

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشيخ عبد الباري الندوي

العالم الفيلسفي الكبير والداعية المعلم الحكيم
حياته وأثاره

تأليف

محمود حسن الحسني الندوي

تعريب

عطاء الرحمن حفظ الرحمن الندوي

المجمع الإسلامي العلمي، بلكناؤ (الهند)

من مطبوعات "الجمع الإسلامي العلمي"
لكناؤ، (المهند)
(رقم: ٣٤٥)

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ — ٢٠١٥م

إسم الكتاب	:	الشيخ عبد الباري الندوي
إسم المصنف	:	محمود حسن الحسيني الندوي
الصفحات	:	٣٠٨
العدد	:	١١٠٠
المطبع	:	ورك لائن، لكناؤ
سعر النسخة	:	٢٠٠ روبية
اهتم بالطبع	:	محمد كلام الدين الندوي
الناشر	:	الجمع الإسلامي العلمي، (المهند)
العنوان	:	ص ب ١١٩، ندوة العلماء، لكناؤ
الهاتف	:	0522:2741539
اي — ميل	:	airpnadwa@gmail.com

المقدمة

بقلم سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسيني الندوي - حفظهم الله ورعاهم -
رئيس ندوة العلماء العام، لكاناؤ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد! حينما أفلتت شمس الحكومة الإسلامية في شبه القارة بعد أن أضاعت العالم إلى قرون طوال ووقع المسلمون ولاسيما العلماء المتدينون فريسة لاستبداد السلطة الأجنبية التي انتهكت أعراضهم وسفكت دماءهم واحتلت أراضيهم وأرادت أن تنشئ نظاما يقوم بنشر الإلحاد والزندقة ويسمم العقول والنفوس بالكفر والعصيان فنهض العلماء الربانيون لتأسيس مدارس دينية ليتحلى المسلمون بالعلوم الدينية ويظل الدين باقيا ناميا ويكون على أمن من أعدائهم وكانت هذه المدارس أقل عدداً وقد كانت الحاجة إليها أمس، ولكنها رغم قلتها أسهمت في الحفاظ على العلوم الإسلامية والاحتفاظ بتشخص المسلمين وبقائهم على الإسلام، وكانت تقوم بإحياء التراث الإسلامي وبث العلوم الدينية خلال الأوضاع التي كانت تدوى بمؤامرات الاستعمار ودسائسه التي كان يكيدها لقمع الفكر الإسلامي وإطفاء نور الإسلام بجميع إمكانياته ووسائله، وفي الوقت نفسه لم يزل ينتشر التعليم

الغربي والفكر الملحد انتشارا شغل الناس عن كل مايعنيهم إليه وحسبوا ذلك من متطلبات الساعة، فخييف أن يفصل الدين عن الدنيا حتى ينجح الإلحاد وتنفق سوقه تبعا لمقتضيات العصر، وأن يطرد أصحاب الدين الذين يكثفون جهودهم للحفاظ على دينهم كل طرد من مجال الحياة - لقلة عددهم - شأن الدين المسيحي في البلدان الغربية، ولكن المدارس حالت دون نجاحه وعرقلت في سبيل دعايته، ولكن جهودها لم تستطع أن تمد أجنحتها عبر التعليم الديني وذلك لأن إمكانياتها ووسائلها لم تكن تسمحها بأكثر من ذلك. أما العلماء فإنهم لم يكونوا جامعين بين القديم الصالح والجديد النافع ولم يزالوا محبوسين في جانب واحد من الدين، فأعجزهم ذلك عن إرشاد الناس في أي مجال من مجالات الدنيا، وكانت ههنا طبقة خلعت ربة الإسلام عن عنقها وشردت عن تعاليمه شرود الأوابد، فكانت أولى بالخوف من غيرها. وشعورا بهذا الخوف والخطر تكفلت طائفة من العلماء بإطلاع الجيل الجديد على ما يهمهم من شؤون الحياة التي تتعلق بالجوانب الحضارية والاجتماعية ليكون لهم تأثير في العالم دون أن يتأثروا وليظهر أنهم علماء لا أميون فبدأوا يسعون في هذا السبيل وحالفهم من الله توفيق ومن العلماء تأييد، وأنشأوا حركة علمية طبق اسمها المشرقين، وهذه هي الحركة التي عرفت بندوة العلماء، وأثمرت جهودهم بفضل الله بأن أسفرت عن ظهور نظرة تعليمية إسلامية جامعة، ولتطبيق نظرتهما وإنجاز نشاطهما وضعت حركة ندوة العلماء أساس دار العلوم. وطلائع المتخرجين في هذه الدار كانوا جامعين بين القديم الصالح الذي ينفعهم في الآخرة والجديد النافع الذي يكون سبيلا إلى تبليغ دعوتهم إلى غيرهم وينفعهم في مرافق الحياة. ولم يكونوا راسخين في علوم الدين وفنونها فحسب بل كانوا

موهوبين من الله من قدرة الجدال والتأثير ما يؤثر في نفوس الجهال بكلامهم البليغ ويمجادلوهم بالتي هي أحسن.

ومن أجددهم بالذكر العلامة السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الباري الندوي وغيرهم ممن أثروا أصحاب العلم والبصيرة وعرضوا الفكر الإسلامي وأحكام الدين بأحسن أسلوب وأجوده. والحري بالذكر أن كليهما اتصل بالعالم الرباني الشيخ أشرف علي التهانوي — رحمه الله — الذي كان معروفاً بتحديد الجوانب العملية من الحياة الدينية وذلك بدعم الناحية الدينية من حياتهما العملية بعد أن وهبهما الله سبحانه مكاناً رفيعاً في مجال العلم والمعرفة، ولما تملا من منهله العذب الفياض واصلاً القيام بإصلاح الطبقة المثقفة بالعلوم الحديثة، ودحض الشيخ عبد الباري الندوي نظرية الطبقة المثقفة العصرية التي تقول بانفصال الدين عن العلم الطبيعي وحقق الصلة بينهما، وخلال دراسته الدينية تضلع من الفلسفة القديمة التي كان بينها وبين الفلسفة اليونانية القديمة صلة لا تهمل في أي صورة، كما أنه درس الفلسفة الحديثة دراسة أهله لدحض الأفكار والآراء الباطلة في منهج علمي وكانت الفلسفة اليونانية مؤسسة على عقلية مناقضة للفكرة النظرية الإسلامية. ولكن العرب حينما أقبلوا على العلم بعد قدوم الإسلام كانت الفلسفة اليونانية قد دهمتهم فاندشش بها الباحثون وتأثر بها الدارسون واستعانوا بها في جهوداتهم العلمية فأل كل ذلك إلى أن مال العرب إليها وغلب طابعها على علومهم واصطبغت مؤلفاتهم وبحوثهم بصبغتها فأسفر ذلك عن التناقض بينها وبين الفكرة الإسلامية المقتبسة من الكتاب والسنة فنهض لها الإمام الغزالي وغيره من أئمة المسلمين وقاموها أشد المقاومة ودحضوها حتى دحضها. ولما جاء العصر الحديث تكاسل المسلمون عن السعي في المجالات العلمية أكثر مما قاموا به

واستأنفت أوروبا في بذل مجهوداتها تجاه تراثها العلمي القلم الذي وصل إليها عن طريق هؤلاء العرب وللكشف عما تضرر الحياة في باطنها من أسرار وحقائق وجدت سبيلا إلى أحدث اختراعات وحسبت أن دينها مناقض لعلومها واختراعاتها، وفصلت الدين عن حقائق الحياة بما أسفر عن ديبب الشعور بتخوف الفلسفة الإسلامية في أذهان المسلمين وذلك لأنهم تأثروا بالفلسفة الغربية ونظرية انفصال الدين عن العلم الطبيعي بعد أن التحقوا بمعاهدهم ومدارسهم ودرسوا كتبهم ونظرياتهم، فأدى كل ذلك إلى ضعف الإيمان بحقائق الدين ومعتقداته فصارت تميل نفوسهم إلى الإلحاد والزندقة شيئا فشيئا، وكان ذلك من أعظم التحديات وأخطر التهديدات للإسلام ومزاياه العلمية. إن الشيخ عبد الباري الندوي الذي لم يتضلع من العلوم الدينية فحسب بل صار أهلا للاجتهد والإبداع فيها، ودرس الفلسفة الغربية والعلوم الطبيعي دراسة واعية مستوفية وحقق تقدم النظرية الإسلامية عليهما ببراعة ونجاح وأبطل النظرية القائلة بوجود التناقض بين الدين والعلوم الطبيعي فتأثر بذلك أصحاب العلم ولم يجدوا بدا من الاعتراف بفضل حقائق الإسلام وصحتها. وقد ألف الشيخ عبد الباري الندوي حول هذا الموضوع السعيد كتابا حظيت بأسمى منزلة في العصر الراهن، منها "مذهب اور سائنس" (الدين والعلوم) الذي عرف بجزالة أسلوبه ومتانة دلائله. ورغم احتلاله مكانة رفيعة في مجال العلم اتصل بالشيخ أشرف علي التهانوي للاسترشاد وتزكية النفس وتهذيب الباطن، وعرض علومه الباطنة في أسلوب ينسجم مع ذوق أهل هذا العصر. وألف عدة كتب شرح فيها أسرار التصوف وتزكية النفس شرحاً دفع كل ما كان يثور في أذهان أهل الحق من إيرادات. وأما رسوخه في مجال البحث والتأليف فقد اكتسبه بتلمذه على العلامة شبلي النعماني، وقد كان

يعترف بذلك أيضاً، وامتاز عن العلماء الباحثين بحيث إنه قام بتطبيق الفلسفة والعلم الطبيعي على النظريات الإسلامية وسخرهما في سبيل أسرار السلوك والتصوف.

وهذا الأمر هو الذي أدى إلى سمو مكانته وعظمة شخصيته بين عظام المفكرين والباحثين، ولم يكن ذلك إلا لاجتهاده الشخصي في دراسة العلوم الحديثة رغم أنه كان خريج مدرسة دينية لا تقوم إلا بتدريس علوم الدين وما يتعلق بها. أما المدارس العصرية فإنه لم يدخلها إلا كأستاذ بها فحقق فيها فضله أيضاً. إنه عين أستاذاً في العديد من الكليات العصرية ثم في جامعة حيدرآباد، وتم تعريفه في نظام حيدرآباد بالكلمات التالية:

"إنه رغم مكانته الرفيعة في مجال العلم واصل اكتساب السلوك والتصوف لدى الشيخ أشرف علي التهانوي ووقع كل ما قاله وفعله من قلبه موقعا لا يمكن فصله عنه في أي حال من الأحوال. ومن أعظم مزاياه إتيانه بأفكار التهانوي وتوجيهاته وأقواله وسلوكه في أحدث الأساليب وأجدها فجاءت سهلة سلسلة أقبل عليها الجيل الجديد، وكان ذلك من أعظم منجزاته وقيم آثاره حتى إن حياته الشخصية تأثرت بفكرة الشيخ التهانوي تأثراً لم يكن سرا على أصحابه وزواره وأرادوا أن يتخذوها اتباعاً له. وقد كان يتململ تملل السليم حينما يرى الناس غافلين عن تركية النفس، وكلما لقي أحداً نصحه بتركيتها، وكلما تقدم سنا ازداد لوعه. فجملة القول إن الشيخ عبد الباري الندوي قام بإنجازات مهمة في كلا المجالين، فكما أنه قدم توجيهات الشيخ التهانوي في أسلوب جديد عصري كذلك لم يدخر أي وسع في دعوة أصحابه وزواره والمتصلين به إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم."

وذلك عمل لا يمكن إهماله ويظهر ذلك من خلال حياته الشخصية فلم يدع إلى ذلك غيره فحسب بل عمل به بنفسه وتزود بتقوى الله وورعه وقدم أروع نموذج للإرشاد والتوجيه وذلك الذي جعل حياته أنفع وأصلح فإن الذين ينفعون غيرهم لا ينسون حتى بعد مماتهم، ليتطفل الناس من مائدتهم وتستفيد بها الأجيال القادمة بعده.

كتبه وإن كانت تلوح بما بمجهوداته الجبارة وتضم في طيها شرحا وافيا مؤثرا للغاية، ولكن الحاجة مست إلى كتاب بيدي مكنونات حياته ويقدم سيرته ومراحل حياته التي لم يكن الناس على اطلاع واسع عليها وعلى عاطفته الجياشة ومجهوداته التي بذلها تجاه دينه وعلمه فيستفيدوا بها. من بواعث الفرح والسرور أن السيد محمود حسن الندوي سلمه الله دون أحوال حياته بغاية من البحث والتوفيق واستعان في ذلك بأبنائه واطلع على بعض أنحاء حياته وخفاياها بألستهم، فبفضل رحمة الله عليه نشر كل ذلك في صورة كتاب مستقل واختار صاحب الكتاب هذا الموضوع بعد أن أشار عليه بعض شيوخه فحقق كل ما كان يحلم به أبناؤه وذلك مايسرنا نحن وسائر الناس فضلا عن أبنائه. تقبل الله عمله هذا وبارك فيه.

محمد الرابع الحسيني الندوي

١٧/١٢/١٤٢٩هـ

رئيس ندوة العلماء، لکناؤ

١٧/١٠/٢٠٠٨م

المقدمة

بقلم سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي

مدير دار العلوم ثنوة العلماء، لقلنو، ورئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي - حفظهم الله ورعاهم -

من قلم وجد الصراع بين العلوم العقلية والحضارة الإسلامية، فكان ذلك من أكبر العوامل لوجود فريقين: ينحاز أحدهما إلى العلوم العقلية، والآخر كان يرفضها وينكرها بتاتا، ولم يكن هناك طريق وسط يجمع بينهما بالقصد والتوازن، رغم أن الحياة الإسلامية السليمة لا تتحقق ما لم يكن هناك اعتراف بواقع الدين الذي يجمع بين العلوم الدينية والعلوم الطبيعية، إنما كانت تراود شكوك في نفوس كثير من الناس ممن كانوا يرون أنه لا توفيق بين الدين والعقلية، ولا علاقة بينهما في تصور الدين الإسلامي الأصيل، من ثم رفضوا أي علاقة بين العلوم الدينية والعلوم العقلية، وظنوا أن هذه الفكرة تمهد الطريق إلى الزيغ والإلحاد ليس غير.

كان الأستاذ عبد الباري الندوي من الرعيل الأول للمتخرجين من ثنوة العلماء، وهو زميل العلامة السيد سليمان الندوي وتلميذ العلامة شبلي نعماني، وقد جمع بين الثقافتين الدينية والعصرية، وترجع منصب الأستاذية في الجامعة العثمانية بحيدرآباد، وعُين رئيساً للفلسفة الحديثة فيها، له مؤلفات قيمة في هذا الموضوع، وفي غيره من الموضوعات، من بينها: الدين والعلوم العقلية، الذي يحتل القمة في ابتكار الموضوع وتقريبه إلى الأذهان، وكتب في موضوع تجديد الاقتصاد والاجتماع والسلوك، وآخر ما صدر من قلمه: الدين والعلوم العقلية باللغة الأردية،

وقد تولى اجمع الإسلامي العلمي بنووة العلماء نشره وتوزيعه.

ومعطياته في موضوع الفلسفة الإسلامية في جميع المجالات الحيوية من الدين والعقيدة والاقتصاد والسياسة، والسلوكيات، رفعته إلى قمة من جامعية العلم والدين، والجسم والروح والأصالة والمعاصرة، وبينما كان حملة الفلسفات الإنسانية وزعماء الديانات السابقة يعيشون خبطاً في متاهات الحيرة والضلال، وكانوا يصرون على فصل العلوم الفلسفية عن العلوم الدينية، إذ جاء العالم الفلسفي الكبير الأستاذ الشيخ عبد الباري الندوي وأثبت بدلائل قوية وحجج دامغة أن فلسفة الحياة الإنسانية والكائنات الواسعة ليست لغزاً من ألغاز اليونان والرومان، بل الواقع أن حياة الإنسان ولعارف الدين ولنظام الكون فلسفة عقلية، لا يستغني عنها العالم البشري، في أي فترة من التاريخ، ولا يكاد ينكرها الإنسان في أي مساحة زمينة أو مكانية.

وقد سبق أن شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم ألف كتاباً في بيان فلسفة أسرار الشريعة الإسلامية، في القرن الثاني عشر للهجرة، ظهر هذا العالم الرباني الفذ في الهند، وأقام في دهلي، حيث أسس مدرسة تولت تخريج أفواج من علماء الدين البارزين، الذين مثلوا الفلسفة الإسلامية للكون والحياة والإنسان، فكانوا أساتذة فن التشريع، وتخرج على أيديهم علماء جامعون بين أسرار الفلسفة والتشريع والقانون.

كما أن الإمام الغزالي اعتنى بهذا الموضوع بإيجابية وجدية، وناقشه في مؤلفاته وخاصة في كتابه "تهافت الفلاسفة" وأثبت أن التشريع الإسلامي يحمل فلسفة عقلية تامة ولا يعوزه أي جانب من جوانب الفلسفة الدينية في ضوء العلوم العقلية، وكتابه "إحياء علوم الدين" خير شاهد على ذلك.

لازيب أن العلامة الأستاذ عبد الباري قد استفاد من علوم شيخ الإسلام الدهلوي، ونظرته الفلسفية في الشريعة الإسلامية والجمع بين العقل والدين، كما أنه عكف على دراسة موضوعه لدى شيخه ومريه العلامة أشرف علي التهانوي، واستفاد منه فوائد جلية، في

الموضوع، دوتها في مؤلفاته القيمة، وخاصة في كتابه الجليل باسم: الدين وعلوم الطبيعة، الذي يحتوي على بيان صلة الدين بالعقل ودورهما في بناء الإنسان المطلوب من خلال كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن ثم كان الأستاذ عبد الباري الندوي علماً من أعلام ندوة العلماء، عاش مع زملائه الأعلام كالعلامة الشريف عبد الحي الحسيني (والد للمفكر الإسلامي الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رئيس ندوة العلماء سابقاً) والعلامة شبلي نعماني والعلامة الدكتور السيد سليمان الندوي ومعالي الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني.

إني إذ أتمن تأليف هذا الكتاب: العلامة عبد الباري الندوي: حياته ومآثره، بقلم الأخ الفاضل الأستاذ السيد محمود حسن الحسيني الندوي من أعضاء الأسرة الحسينية في هذه البلاد، وإخراجه باللغة العربية، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأخ العزيز الأستاذ عطاء الرحمن الندوي سلمه الله تعالى، أبتهل إلى الله تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد للشكور، ويعمم نفعه في جميع الأوساط العلمية في الهند والعالم الإسلامي، وأدعو الله أن يجزي المؤلف والمترجم كليهما بأحسن ما يجزي به عباده المخلصين العاملين.

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سعید الأعظمی الندوی

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي

ندوة العلماء، لکناؤ

— ۱۴۳۳/۱۱/۲۵ هـ

۲۰۱۲/۱۰/۱۳

تصدير الطبعة العربية

بقلم سعادة الشيخ محمد واضح رشيد الحسيني النلوي - حفظهم الله ورعاهم -
رئيس الشؤون التعليمية لجامعة ندوة العلماء، لكاناؤ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وبعدا

منذ قلتم يرى أنه لا صلة بين العقل والدين. والعقيدة يشوبها شيء من الفساد. ممارسة الفلسفة، ولذلك فرض الحظر على دراسة الفلسفة اليونانية ومباحثها في أوربا بعد أن انتصر، وكان الاعتناء بما جناية لا تنفرد عند أئمة دينهم، ووضعت كتب هذه العلوم في الغرف المقفلة فأما الذين كانوا يخوضون في هذه العلوم ويتناقشون مناقشة عقلية أو علمية يعاقبون أشد العقاب.

ولما جاء العهد العباسي عني المسلمون بعلوم اليونان وبرعوا فيها. إن فلاسفة المسلمين لم يتقنوا هذه العلوم فحسب بل نقلوها ونقحوها حتى سمي يعقوب الكندي بفيلسوف العرب وابن رشد بأرسطو الثاني، كما لاشك في أن بعض الناس داخل عقيلتهم شيء من الفساد بالخوض فيها واعتزتهم ظنون في دينهم فقام العلماء لمقاومة هذا الوضع العصيب واتخذوا لذلك وسائل علمية ولم يتمتعهم خلفاء المسلمين وملوكهم بل اتخذوا وسائل عقلية وعلمية لإزالة شبهات أمثال هؤلاء الناس. يقول الإمام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال": "علمت أن رد للنهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية، فشمردت عن ساق الجدر، في تحصيل

ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاث مائة نفر من الطلبة ببغداد، فأطلعني الله سبحانه وتعالى، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلصة على متهمي علومهم في أول من ستين، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريبا من سنة، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خلع وتليس، وتحقيق وتخيل اطلاقا لم أشك فيه.

اعلم أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية. أما الأقسام الخمسة الأولى فلا يتعلق شئ منها بالأمر الدينية نفيًا وإثباتًا، بل هي أمور برهانية لاسبيل إلى مجاحلتها بعد فهمها ومعرفتها، وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم، إلا في مسائل معينة من الطبيعيات، وماعناها مما يجب المخالفة فيها، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ولكن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور برآئنها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاد في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان لهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وقهواهم بالشرع ماتناولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض. وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحنة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة.

ويظن بعض الناس أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن مقالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف بذلك بالبرهان القاطع، فازداد للفلسفة حبا وللإسلام بغضا، ولقد عظم على الدين جنابة من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات إلا الإلهيات التي فيها أكثر أغاليطهم، فما

قروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها".^١

وبعد القرن الثاني عشر بدأت تلوح تباشير النهضة العلمية في أوروبا، فجعوا يتطفلون من مائدة هؤلاء الفلاسفة والحكماء، وحازوا قصب السبق فيها بزيادتهم فيها. إن النزاع الذي لم يزل قائما بين العلم والكنيسة إلى ألف عام أدى إلى مناقضة أهل العلم للدين وأصحابه، حتى أنكروا بعضهم وجود الإله، واتخذ أهل الدين شر موقف ضد أهل العلم وعاندوهم، وتحول هذا الصراع الذي نشأ نتيجة عن أوضاع خاصة إلى الواقع.

كان الشيخ عبد الباري الندوي رحمه الله الذي درس كلتا الفلسفتين القديمة والحديثة ونشأ في بيئة دينية وتعلم فيها وكان دقيق النظر نافذ البصر في أمهات مصادر الدين وكان يحسب هذا الصراع زائفا مزعوما، وذلك هو الذي ميزه عن غيره من العلماء والحكماء، وكان جامعا بين كلا العلمين القديم والجديد مثل فلاسفة المسلمين في القرون الأولى من الإمام الغزالي وفخر الدين الرازي والعلامة ابن رشد. وإنه ألف كتابا دينية تعلم تركية النفس، وكان مع ذلك متصلا بمشائخ عصره كالعلامة السيد سليمان الندوي وشيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني والحكيم الرباني الشيخ أشرف علي التهانوي. وبحسبه بعض أصحاب العلم غزالي العصر، الذي ألف "مقاصد الفلاسفة" و "إحياء علوم الدين" الذي يجدد الإيمان واليقين. يقول عنه الشيخ مناظر أحسن الكيلاني: "أسلمت الفلسفة بيده" ولكن الإمام الغزالي حينما صنف "تهافت الفلاسفة" ردا على كتابه "مقاصد الفلاسفة" ونبه فيه على أخطاء الفلسفة فصنف العلامة ابن رشد الذي كان جامعا بين العقل والنقل وبين العلم والدين "تهافت التهافت" وأنكر هذا الصراع وقال: إن مجال كل من العلم والدين يختلف عن الآخر فلا صراع، ويقول: "أما الدين فإنه يتعلق بما بعد الطبيعيات وأما الفلسفة فإنها تتعلق بالطبيعيات".

وينكر الشيخ عبد الباري الندوي هذا الصراع في كتابه "الدين والعلوم العقلية" قائلا:

^١ المنقذ من الضلال للإمام الغزالي، باحتصار وحذف ص ٦٩-٧٨.

"المراد بالدين الإيمان بما هو فوق الفطرة، ويوجد هذا في سائر الأديان، وأما المراد بالعقل فهو العلم الطبيعي والفلسفة". إنه يقول: "وصلت إلى الهند مع الحكم الإنجليزي مخترعات أوروبا العلمية التي كانت جميعها، ومنها القطار، والتيلغراف، والكهرباء، تكفي أن تحير عقول المثقفين، ورجال العلم، وفوق ذلك فإن العلم كان قد اكتشف وزن الأرض، وسرعة النور واكتشف وجود الأنهار والجبال، والحياة في المريخ، فلما سمع أولادنا في معاهد التعليم الحديث أن العلم "أخرج إلى الحدود" فلم يصعب عليهم أن يصدقوا بأن العلم الذي يقدر على أن يأتي بهذه المعجزات الباهرة والحيرة للعقول، إذا أخرج هو نفسه الله والدين وأبطلهما فلم يبق في المسألة شيء. إن هذا الرعب الذي لا يزال يسود الفكر وحتى اليوم، فلاحجة أكبر من إيراد أوروبا والعلم لإثبات أي أمر.

لم تسنح لطلبة الكليات والمدارس العصرية فرصة لدراسة الدين والعقليات والعلاقة القائمة بينهما، بجد وتفكير، ولم ينر بخلهم برهة، هل يمكن حقا أن يتزل الدين والعلم للمبارزة بينهما، فصاروا حاملين لواء العقل والعلم والدعاة إليه، ولو أن هذا الطريق، وصل إلى الهند ومصر وغيرهما من البلدان الأخرى أساسيا بهذا الطريق، إلا أن تبعية المثقفين الجدد لانتحامل وحلها المسئولية الكاملة عنها، فهناك عدة أسباب ساعدت في نشر هذه الفكرة وتعميمها.

أولا: أدلى بعض رجال العلم والشخصيات المسئولية أمثال لابلاس، وهكسلي وغيرهم بتصريحات جعلت وحتى الخاصة من الناس فريسة للخداع وسوء التفاهم بأن الصراع والعداء بين الدين والعلم لم يعد حديث السوق والمارة، وإنما هو حديث ذو شأن، وقد قدم لابلاس كتابه (*Mecanique Cdeste*) إلى نابليون فقال: يقولون إنك ألقت هذا الكتاب عن نظام الكون ولكنك رغم ذلك لم تذكر فيه اسم خالقك، فرد عليه لابلاس بلهجة خشنة: "سيدي إني لا أحتاج إلى مثل هذا الافتراض أبدا"^٢.

^٢ الفطرة والأدرية لوارد ص ١ ج ٤.

وصرح هكسلى: "إن المادة وقوانين المادة قد أبطلنا عقيدة الخلق ووجود الروح، فقد كانت هذه التصريحات والمزاعم هي التي أحدثت في قلوب غير العقائين وسلاوس وزادت شكوكهم، وبالأفاظ أخرى منحت خضوعهم الفكري شهادة وتصريحا وتوجههم.

ثانيا: ولكن الواقع أن المصدر الرئيسي والهدف الحقيقي لسوء التفاهم كان الظن الخاطى الذي ساد عن العناء بين العلماء وعلماء الدين، والذي يرجع فيه القدر الكبير من المسئولية إلى مصلحة الاحتساب الأوربي (Inquisition) التي كلفت بأيدي الباباوات في القرون الوسطى عشرات الضحايا من باحثي العلم بجرمة الكشوف العلمية، وقد كان الأساقفة يعتقدون بأن القول بكون الأرض منوردة بدحض الدين، وصنف كويرنيكس كتابا في حركة الأرض ومركزية الشمس أو في تأييد نظام فيساغورس تصدر الحكم بتكفير من يقرأ الكتاب، وأيد الجليليو باختراع العينات ما اكتشفه كويرنيكس فسجن عليه ومات في السجن، وأحرق بروتو حيا لأنه كان يعتقد بتعدد العوالم. وقصارى القول إن مات الناس عذبوا وأيدوا باسم الدين بأيدي هذه المصلحة فلم يكن إلا نتيجة حتمية لهذا الموقف المعادي أن الناس بدأوا يحسبون بأن الدين والعلم متنافسان بعضهما للآخر، وقد قويت هذه الفكرة الخاطئة يوما بعد يوم إلى أن ألف دريزر كتابا باسم "معركة الدين والعلم" والواقع أن لب الكتاب كان المعركة بين رجال الدين، ورجال العلم.

ثالثا: والسبب الثالث الرئيسي هو موقف أصلقاء الدين السذج وهم المتكلمون الذين لم يفكروا قط في أنه ليس هناك أي صراع حقيقي بين الدين والعقليات وشرعوا في التوفيق والتطبيق بينهما أو أنهم وضعوا نصب أعينهم إنكار ورفض كل ما يصدر من مصدر الحكمة والفلسفة، واعتبروا إبطاله مسئولية دينية.

وقد كان الفكر الذي دعم الشعور بالخصام بين الدين والعقل في المسلمين ونشره بينهم وليد علم الكلام نفسه، الذي ألحق الدين بصدمة شديدة من جهة وأتلف الصلاحيات

والكفاءات الهائلة للفكر والعقل في مسائل غير حيوية فكانت جهودهم كالرسم على الماء أو التحليق في الهواء. والواقع أن أسطورة الصدام بين العلم والدين مصنعة وملفقة لأساس لها مطلقا أكثر من طولها وانتشارها، وسيكون جهدي في هذا المقال أن أوضح هذه النقطة الأساسية، غير محاول للتطبيق بينهما، كما يحسبه بعض الناس باتصالي بالدين^٣.

قال لي أحد أصدقائه المثقفين يوما: "إن الدين أفلس، وسرى كيف تمويه وتذافع عنه".

لكي نفهم الفصل بين الدين والعلم، وعدم الاتصال بينهما فهما تاما، لا بد لنا من أن ندرك الفارق وبعد الحقيقة الذي يفصل بعضها عن الآخر، هنا الاصطدام يحدث، وليس من الغريب حدوثه ولكن هل يمكن أن يحدث اصطدام بين قطار وباخرة؟ كلا، فإن مثل هذا الصدام ممتع ومستحيل، لأن القطار لا يستطيع أن يبحر في الماء كما لا يستطيع آية باخرة أن تجري في البر وهكنا مثل العلم والدين. فدخل العلم في حلود الدين مستحيل كاستحالة سير القطار في الماء، أو الباخرة في البر، فإن العالم ينتهي حيث يبدأ الدين، وآخر نقطة يترقى إليها العلم تشكل بداية حلود الدين، فالعلم مرتبط ارتباطا وثيقا عن طريق بحوثه وكشوفه بأصلر الطبيعة الواقعية ومشاهداتها وتجاربها، أما الدين فإنه قوامه هو مافوق الطبيعة وراء التجربة والمشاهدة مثل الله، والروح، والبحث بعد الموت، والحشر وأمثاله^٤. أبطل الشيخ عبد الباري النلوي هنا التناقض المزعوم بين العقل والدين بحجج عقلية وعلمية وأثبت أن مجال كل منهما مختلف عن الآخر ولا يمكن الصراع بينهما حتى يلج الحمل في سم الخياط ويتصادم القطار مع الطائرة.

ولقد عد الشيخ العلامة أبو الحسن علي الحسيني النلوي رحمه الله تعالى كتابه

^٣ الدين والعلوم العقلية نقلا عن مجلة البعث الإسلامي، العدد ١، المجلد ١٦، سبتمبر ١٩٧١م، ص ٧٦-

^٤ الدين والعلوم العقلية نقلا عن مجلة البعث الإسلامي، العدد ٢، المجلد ٢٦، أكتوبر ١٩٧١م ص ٣٩.

"منهـب وعـقـليـات" من الكـب الـتي لـها مـنة عـظـيـمة وفضـل كـبـير.

يقول: "وقـع نظـري عـلى كـتاب للـشـيـخ عـبـد البـاري النـدوي سـماه بـ"منهـب وعـقـليـات" (الـدـين و الـعـلـوم العـقـليـة) فـاسـتـولـى عـلى ذـهـني و تـوصـلت بـه إلـى فـهـم حـنـود العـقـل و النـقـل و قـصـور عـلـم البـشـر و تجـاربه عـن الـوـصـول إلـى كـنه الحـقـائـق و ظـنـيـتها و قـطـعيـة عـلـم الأـنـبيـاء و الـمـرسلـين. و قـلـيـلا ما دـرست حـول هـذا الـمـوضـوع فـي أـي كـتاب آخـر، ثـم دـرست ما تـيسـر لـي من كـتب الفـلسـفـة القـادـيـمة و الجـديـدة و تـاريـخـها، و لـكن لـم يـدـاخـل يـقـيني أـي شـك و لـم يـتـعـضـع لـما قـرأته بـعد. بـل كـلـما قـرأت و مـهـما دـرست لـم يـزدني ذـلك إلـا يـقـينـا، و صدق سـبـحـانه: "إن هـم إلـا يـخـرصـون" و كـذبـوا. بـما لـم يـحـيطـوا بـعـلمه و لـما يـأكـم تـأويله".^٥

و من أشـهر مـصنـفات الشـيـخ عـبـد البـاري "منهـب اور سائـس" (الـدـين و الـعـلـوم). يـقول العـلامـة أبو الـحـسن عـلي الـحـسـني النـدوي عـن هـذا الكـتاب: "ثـم تحـرك يرـاعه فـظـهر مـنه كـتاب جـزـل الفـائـدة كـبـير النـفع سـماه بـ"منهـب اور سائـس"، و تـشـرف يـاصـدره مـجمـع البـحـث العـلمي الإـسـلامـي لكـثـاؤ، و كـتب مـقـلمـته الرـيـاضـي الشـهـير مـحمد رضـي الـدين الصـديـقي، و أنـثى فـيـها عـلى الكـتاب. يـتماز الكـتاب بـأسـلـوبه الـذي سـلك فـيه مـسـلك العـلامـة شـبـلي، الـأسـلوب الـذي لـم يـزل تـاركا إـياه إلـى أـمـد طـويل و هو آخـر كـتاب ألفـه قـبل و فـاته يـلـوح من خـلال أسـلـوبه فـكره النـير و مـوهبـته الـوقـادـة الـتي نـالها من لـدن حـكـيم عـليم".^٦

و هـنـاك كـتب أـخـرى ألفـها فـي الإـيمـانيـات و الـيـقـينيـات مـنها "تـجـديـد دين كـامل" و "تـجـديـد تصـوف" و "تـجـديـد تـعـليم و تـبـليـغ" و "تـجـديـد معـاشـيات" (تـجـديـد عـلم الإـقـصـاد) و "مـعـجـرات أنـبيـاء اور عـقـليـات جـديـدة" (مـعـجـرات الأـنـبيـاء و العـقـل الجـديـد) و "قـرآن كا دو آيـتى نـظام صـلاح و اصـلاح" (نـظام الصـلاح و الإـصـلاح فـي ضـوء آيـتين من القـرآن الكـريم).

^٥ بران جـراغ: ١١٨/٢.

^٦ بران جـراغ: ١٢٦/٢-١٢٧.

كان الشيخ جامعا بين العقل والإيمان، ولا نكاد نجد مثله بين علماء عصرنا، ومما يؤسف أن كتبه كلها في اللغة الأردنية و لم ينقل إلى اللغة العربية منها إلا كتابان وهما "منهـب و عقليات" (باسم "الدين والعلوم العقلية") و "تجديد تصوف" (باسم "التصوف والحياة").

الجدير بالذكر أن أحد علماء العرب حينما قرأ كتابه "الدين والعلوم العقلية" وكان عميد كلية العقائد ورئيس قسم العقائد في إحدى جامعات العرب فقال معترفا بأهمية الكتاب وجزالة نفعه: "الكتاب أهل بأن يضم في مقررات عقائد الجامعة". ولما قرأ أحد علماء الفلسفة بمصر هذا الكتاب وكاد أن يصير ملحدا، زالت عنه سائر الشبهات التي كانت تجول في رأسه فتاب وأخلص للدين.

ولم يعرف العالم العربي شخصية الشيخ عبد الباري الندوي لكتابه باللغة الأردنية ولو كتب باللغة العربية لعد من علماء الإسلام العظام في العالم العربي كله.

ولم يكن أي كتاب ظهر حول حياة وآثار الشيخ عبد الباري الندوي حتى الآن، فقام لهذا الأمر الجليل ابن بنت أخي الكبير - الشيخ محمد الثاني الحسيني رحمه الله - محمود حسن الحسيني الندوي وقد أكرمه الله سبحانه بالنوق السليم في مجال تراجم الأعلام وقد ورثه عن جده لأمه العالم الضليح محمد الثاني الحسيني الذي ألف تراجم العديد من الأعلام منها "سوانح حضرت مولانا محمد يوسف كاندهلوي" (سيرة الشيخ يوسف الكاندهلوي) و "حياة خليل" و "تذكرة مولوي محمد هارون" و "تذكرة محمد الحسيني" و "حضرت سيد أحمد شهيد كي مختصر سيرت" (سيرة السيد أحمد الشهيد الموجزة"، وكانت قريحته تتسجم مع التاريخ كل الانسجام. وصنف حول حياة مشائخ أسرته كتابا سماه بـ "خانواده علم الهي" و كتابا حول حركة السيد أحمد شهيد سماه بـ "صادقين صادق بور". وأما ابن ابته السيد محمود حسن الحسيني الندوي فإنه قد ألف كتابا حول سيرة الشيخ أبرار الحق الحقي خليفة الشيخ الأجل أشرف علي التهانوي فتلاوته الأيدي. وصنف هذا الكتاب ببالغ جهد على إلحاح من أبناء

الشيخ عبد الباري الندوي وخاصة صديقي الحبيبين الحاج فضل الباري وأخيه الحاج أحمد الباري اللذين قد اهتمما بنشر مصنفات أبيهما الشيخ عبد الباري الندوي. وقد ذكر أساتذته ومشايقه وعلماء عصره أيضا. وقد تربى صاحب هذا الكتاب بيد العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي فكان يشرف عليه ومن سعادة حظته أن العلامة الندوي استعان به في بعض أموره.

ندعو الله سبحانه أن يثمر بركة ذلك وتقبل عمله هنا، ونرجو أن الكتاب سيكون نافعا للأوساط الأردنية والعربية على السواء.

محمد واضح رشيد الحسيني الندوي

١٤٢٩/١٢/١٢ هـ

رئيس الشؤون التعليمية

٢٠٠٨/١٢/٢٠ م

جامعة نبوة العلماء، لکناؤ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين. أما بعد!

أولاً أشكر الله سبحانه لما وفقني للقيام بعمل يجلب قدره ويجزل نفعه وكنت بتوفيقه سبحانه أهلاً للثور على حياة عبد أودعه الله سبحانه صفة الصلاح والتقوى والورع والغيرة لدينه، ولم يزل يحالفه التوفيق كل لحظة فالآن أسعد بتقدم هذا الكتاب بين أيديكم.

وثانياً أشكر كل من أسدى إليّ معروفاً منذ نعومة أظفاري إلى أن شهدت يومي هذا وأهدي إليهم كلمات الشكر والدعاء وأسأل الله سبحانه أن يزيهم أحسن الجزاء "وما عندكم ينفد وما عند الله باق".

وكيف أنسى فضل ذينك المرين العظيمين اللذين دفعاني إلى تأليف الكتاب ولم يزالا يلحان عليّ، وزد على ذلك ما كتبنا من كلمات تقدما لكتابي هنا أحدهما سماحة الشيخ محمد الرابع الحسيني النلوي (رئيس ندوة العلماء، لكتاؤ) حفظهم الله ورعاهم وثانيهما فضيلة الشيخ محمد واضح رشيد النلوي (رئيس الشؤون التعليمية لندوة العلماء، لكتاؤ) وأنا سعيد بالاتصال بـما نسباً وأسرة بالإضافة إلى إشرافهما عليّ وذلك فضل الله عليّ إذ أكرمني بما لم يكرم به كثيراً من عباده.

ولا يفوتنا شكر سعادة أستاذنا ومدير جامعتنا ندوة العلماء فضيلة الشيخ الجليل الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي النلوي أطال الله بقاءه وبارك في حياته السعيدة على أنه شرفنا بتقليده القيم كما أشكر فضيلة أستاذنا الشيخ حفظ الرحمن النلوي استاذ بجامعة ندوة العلماء بأنه أشرف على ترجمة الكتاب من اللغة الأردنية إلى العربية وقام بترجمة الكتاب منجلى الآخ الأستاذ عطاء الرحمن النلوي حفظهما الله تعالى خير قيام استحق به شكري وشكر القراء ودعواتهم.

وكيف أغفل عما صنع إلي خالي الشيخ السيد محمد حمزة الحسيني الندوي من خير
ومعروف، وكيف لا أتذكر فضله وقد زودني بنصائح غالية ودرس الكتاب كله.
والباري هذه من عظيمة ثم أضافت إليها مئة أخرى فتولى أحد أقسامها "مجمع الصحافة
والنشر" نشر الكتاب بالأردية والمجمع الاسلامي العلمي بالعربية ولا غرو فإن الكتاب يتحدث حول
أحد أبنائها الذي تعتر به.

ولابد لي من الشكر للحافظ الحاج أحمد الباري والحاج فضل الباري ابني صاحب الترجمة
اللذان ألحا علي مراراً حتى دفعت إلي تأليفه وساعدني كلاهما في توفير مواد أسرته. أسأل الله سبحانه
لهما العز والبركة. ويستحق كل من الشيخ محمد غفران الندوي، والشيخ نعيم الرحمن الصديقي
الندوي، ومرزا أمان بيك اللكنوي، و من الاخوة الاستاذ محمد إسحاق الندوي والاستاذ محمد كلام
الدين الندوي والاخ العزيز محمد سلمان خان الندوي البنجوري شكري وتقديري، وأدعو لهم كل خير
وعافية. جزاهم الله تعالى أحسن الجزاء. ولم أترك الإحالة إلى مصادر رجعت إليها واستفدت منها ولا
أدعي لهذا الكتاب الفضل في موضوعه بحثاً وتحقيقاً ولا أزعج أبي وفيه حق هذا العلم العظيم إلا أنني
أظن أن الكتاب سيعود بباطل على من يرغب في الاطلاع على شخصية صاحب الترجمة وعبقريته
النادرة.

أدعو الله سبحانه أن يغفر لنا كل ما صدر عنا من الذنوب والسيئات ويعفو عنا صغيرة كانت
أو كبيرة ولوا لدينا ولجميع إخواننا الذين سبقونا بالإيمان واللامة جميعاً. وينفع بهذا الكتاب على أوسع
نطاق وصلّى الله تعالى على النبي الكريم محمد نالصادق الأمين صلاة دائمة وسلم تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

محمود حسن الحسيني الندوي

١٢ من محرم الحرام ١٤٣٧هـ

المصادف ٢. أكتوبر ٢٠١٥م

كلمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه

أجمعين. أما بعد!

فهنا تعريب كتاب ألف حول حياة وأعمال الشيخ عبد الباري النلوي رحمه الله.

مفخرة نلوة العلماء التي يحق لها بما أن تفاخر أحوالها قاتلة:

أولئك أبنائي فحنتي بمثلهم

إذا جمعتنا إليك يا جرير الجامع

فهو عبقرى بمعنى الكلمة، عبقرى عندما يؤلف، عبقرى عندما يوضح الفرق بين

الفلسفة القديمة وفلسفة الإسلام، عبقرى عندما ينصح غيره، عبقرى عندما يأمر بالمعروف

وينهى عن المنكر، بل وهو عبقرى عندما يمشي ويتكلم.

وعرف عنه بأن "الفلسفة أسلمت يده". امتازت شخصيته بين أبناء عصره بميزتين

عظيمتين، إحداهما الجمع بين القدم الصالح والجديد النافع والتضلع من الفلسفة بفرعيها القدم

والحديث واستخداها في مصلحة الأمة المسلمة وخدمة العلم والدين، وأخرهما تلمذه على

الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله والاستفادة منه من الجانب الروحي.

ألف الشيخ عبد الباري النلوي كتابا عديدة نسمي منها على أجل: "مذهب اور

عقليات" (الدين والعلوم العقلية) — قام بتعريبه سعادة الشيخ واضح رشيد الحسيني النلوي — و

"مذهب اور سائس" (الدين والعلوم) — والكتاب المؤخر ذكره من أروع ما ألف في موضوعه

إلى يومنا هذا ولا بد من تعريبه حتى يتعرف العرب على هذه العبقريّة - وسلسلة كتب التوحيد. فهذه عبقريّة كان لها الحق أن يختارها أحد العلماء موضوعا لتأليفه فنهض لذلك الاستاذ محمود الحسن الحسيني الندوي وألف حول حياته ومآثره كتابا ضخما بالأردية يكون منفذا لكافة الباحثين الحراص على الاطلاع على سيرته إلا أنه كان بحاجة إلى التعريب لتستفيع به الأوساط العربيّة على السواء فقام هنا الطالب بمنا الأمر متبعا فيه أسهل أسلوب وأقر به إلى الفهم وأبعده من الغموض، فهو يتقدم بالحمد والثناء لله عز وجل الذي تم هذا العمل بمجرد فضله وتوفيقه ويسعدني بهذه المناسبة أن أشكر سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي حفظهم ورعاه - مدير دار العلوم لندوة العلماء ورئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي" - الذي لم يزل يزودني بتوجيهات مخلصّة والحق أنني أتّمت هذا العمل بأمر منه، كما أنني أتقدم بغيّة من التعظيم الشكر لوالدي الكريم فضيلة الشيخ حفظ الرحمن الندوي الأستاذ بدار العلوم لندوة العلماء، لكنّاؤ. ثم لا يسعني بعد إلا أن أشكر صديقي عبد الكريم الصديقي الندوي الذي بذل لطباعته بالكمبيوتر جهدا كبيرا وأفرغ له وقتا طويلا ولم يدخر أي وسع في إبرازه في ثوب قشيب فله مني شكر جزيل.

"ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله"

جزاهم الله تعالى أحسن ما يجزي به عباده الصالحين والحمد لله رب العالمين.

عطاء الرحمن الندوي

جامعة لكاناؤ

٢٠١٠/١٢/١

الباب الأول

عناصر تكوين شخصية العلامة عبد الباري الندوي

(الأسرة - الدين - العلم)

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

كتب العلامة السيد سليمان الندوي مقالا حول وفاة شيخه العلامة شبلي النعماني ذكر فيه إعجاز الإسلام مبينا أن الإسلام أنجب رجالات حسب متطلبات كل أونة، ومقتضيات كل وضع. ولم يعجزه عن الإتيان بما أي أمر. يقول العلامة السيد سليمان الندوي: "إن غيث الإسلام لم يزل يُمطر على بلاد الهند منذ ألف عام، وكم مرة أمطر فامتأرت الهند به خصبا ونخضة. ولما جاءت سنة ١٨٥٧م أمطرت عليها سحابة دموية، وسالت الدماء في أوديتها وجبالها، وفي سهولها ووعرورها، اللهم إلا بعض أقطارها فقد حالفها السعد وحالفها النحس فأمطرت عليها حبات حمر البواقيت ونفائس الزيارج واللاكي، ومن أعلقها وأنفسها العلامة شبلي النعماني.

لا حاجة إلى سرد تاريخ العلوم والفنون التي أحيتها الهند. حسينا فخرأ ذكر أسماء أعلامها في شتى مجالات العلم والدين أمثال العلامة ولي الله الدهلوي، وعبد الحق الفرنكي محلي للملقب ببحر العلوم في علمي أسرار الدين والكلام، والقاضي عبد القنتر، وملك العلماء شهاب الدين الدولت آبادي، وللملا محمود الجونفوري في علمي الأدب والمعاني، وللملا نظام الدين والملا

محب الله الجهاري في المنطق والفلسفة، والشاعر مسعود وسعد وسلمان وخسرو وفيضي في مجال الشعر والأدب، وضياء البرني وأبي الفضل وآزاد البلجرامي في علمي التاريخ والجبر. وأما الشخصية التي نرى فيها ميزات سائر المذكورين فهو العلامة شبلي التلمساني الذي كان جامعاً بين عبقریات الملا محمود وفيضي ومحب الله وآزاد، ويمكننا القول بأنه أفضل كلهم أو أكثرهم سوى المذكورين أولاً. إن تاريخ الإسلام الممتد إلى ثلاثة عشر قرناً شاهد بأن رياضه لم تكف عن نشر الزهور في كل فصل، وأن مصرعه لا يخلو عن الأبطال. وكل قرن لأعظم دليل وخير مثال لما قلنا. حينما تعارض المنقول والمعقول فأوجب الإسلام ابن عطا وعلاف. ولم يخل أي قرن من أمثال ابن فدرك والغزالي وشيخ الإشراق وابن حزم وابن رشد والرازي وابن تيمية وابن قيم والقاضي عضد والشيخ أحمد السرهندي والشاه ولي الله الدهلوي وعبد الحي فكيف يخلو القرن الجديد من عبقرية تسحيم وطبيعته، ومن بطل يأتي بالأعاجيب، لم يصارع أحداً إلا صرعه. كان مطلع القرن التاسع عشر مغرب شمس الإسلام. فكم من شمس أقلت وبحسن الحظ طلعت نجوم في السحر سنة ١٨٥٧م^٧.

ويضيف قائلاً:

"تأخر العلامة عن هنا المجلس حضوراً ولم يتأخر عنه منزلة وجلوساً". والحقيقة أن الشيخ السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الباري الندوي حلقتان من حلقات هذه السلسلة الذهبية.

إن الشخصيات التي يرجع إليها الفضل في تكوين سيرة الشيخ عبد الباري الندوي وتعليمه وتثقيفه كلها شخصيات بارزة جامعة للفضائل والموهب. وكان أبوه الحكيم عبد الخالق خليفة الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي. والشيخ إدريس النغرامي أيضاً أسهم في بناء

^٧ ياد رفكان (ذكر الناهين) للعلامة السيد سليمان الندوي طبعت من دار المصنفين، أعظم جراه، وجلس نشریات إسلام، كراتشي.

شخصيته — كان الشيخ أحد العارفين بالله والعلماء الربانيين، وورث السلسلة المجددية المتصلة بالشاه علم الله جداً عن جده. وأما الذي يمكننا أن نصفه بمربيه وأستاذه فهو العلامة شبلي.
علماء فرنكي محل:

إن ما نالت هذه الأسرة من شهرة فائقة بفضل مآثر الملا نظام الدين السهالوي مؤسس الدرس النظامي رفعها إلى ذروة الشاهقة من العلم والجد وأحلبها محلاً رفيعاً من الفضل والكمال، ولقد نرى أن هذه الأسرة لم تزل تتجذب رجالاً لا مثيل لهم في مجال العلم والفضل نسمي منهم على عجل بجله الشيخ عبد العلي الفرنكي محلي المعروف بالملا بحر العلوم، والشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي، ثم العلامة عبد الحي الفرنكي محلي الذي رفع شأنها وأعلى قدرها وأهميتها، ولا نكاد ننسى عبقرية الشيخ عبد الباري الفرنكي محلي فقد اتصل به الشيخ محمد علي جوهر وأخوه الشيخ شوكت علي ولهما فضل كبير في توسيع دائرة فرنكي محل.
الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي:

كان الشيخ عبد الحكيم حفيد الشيخ عبد العلي الفرنكي محلي الملقب بملك العلماء وبحر العلوم عالماً عبقرياً. وأما الشيخ نعيم — بن الشيخ عبد الحكيم الفرنكي محلي — فإنه واسطة عقد هذه الأسرة والجامع بين العلم والإرشاد وكان شيخ العلامة عبد الحي الحسيني — والد الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي — والشيخ عبد الخالق الباره بنكوي — والد الشيخ عبد الباري الندوي — ولد بفرنكي محل، لكناً وتعلم وترى بيد أبيه الشيخ عبد الحكيم الفرنكي محلي ثم اشتغل بالتدريس، وسعد بزيارة البيت الحرام والحج، واستفاد من الشيخ أحمد بن زين دحلان الشافعي المكي من علماء الحرمين الشريفين، ونال إجازة الحديث الشريف، ولما رجع من سفره اعتزل في بيته، ولكنه لم يزل يدرس ويفيد ويرشد ويربي، فكان عشاق العلم يضرّبون إليه أكباد الإبل ويشدون إليه الرحال للتطفل على مائدة علمه وفضله. يقول العلامة عبد الحي الحسيني:

"إنني قرأت عليه "الهداية" و "السراجي" و "شرح العقائد للدواني" و "نخبة الفكر" وسمعت منه الحديث للسلسل بالأولية ونلت إجازة سائر المقررات والمسموعات".

كان الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي صاحب الفضائل والكمالات. يحذر من قبول الهدايا والنور. إذا ارتاب في مال رده وإن كان قدره عظيماً - أهديت إليه خمسا وعشرين ألف رية [تعادل مآت ألف روية اليوم] ولكنه لم يقبلها لجرد ارتيابه في حلها وأمر بتصدق المال كله^٨.

هذا في مجال الزهد والورع وأما الصبر والاستسلام فقد كان فنا في ذلك، ويشهد بذلك حادث وفاة ابنه الوحيد الشيخ محمد أكرم الفرنكي محلي. وصل إليه العلامة عبد الحي الحسيني - رئيس ندوة العلماء سابقاً - ليعزيه عن ابنه الفقيد، فاستقبله طلق الوجه - حسب عادته - كأن لم يقع شيء. ثم قال قولة فيها عبرة لنوي الألباب: "حينما كانت أمه تضيق صدرها بضنك العيش فكنت أقول معزيا لها: لا بأس، سيخرج محمد أكرم ابتغاء للقوت وسيفتح الله تعالى أبواب الرزق، فلما توكلنا على غير الله سبحانه توفاه إليه رحمة بنا ومنا علينا". يقول العلامة عبد الحي الحسيني: "فلما رفعت عيني ونظرت إلى وجهه وجدت مخايله ناطقة بالشكر لله شاهدة بالامتنان له".

وكان قد نشأ على الاشتغال بالمطالعة والحرص على دراسة الكتب حتى باع منزله وابتاع حاشية الطحاوي على الدر المختار في ستين روية من ذلك المال، وإذا أهدى إليه كتاب قبله بطيب نفسه، وكان مثالا حيا لسلفه الصالح بفضائله العلمية والروحية.

يقول العلامة أبو الحسن علي النعوي: "كان الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي سليل الملا نظام الدين مؤسس الدرس النظامي وابنه الكريم الشيخ عبد الحي المعروف ببحر العلوم، وكان نموذجاً رفيعاً ومثلاً متميزاً بجميع ما امتازت به فرنكي محل من الكمالات العلمية

^٨ نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسيني، دار عرفات، راي بريلي.

والروحية والتدريسية، ولانكاد نجد مثيلا له في الزهد والورع والتوكل على الله والاستغناء، وقد تلمذ على أبيه الشيخ عبد الحكيم، واستمر ذلك من بداية حياته إلى نهايتها، وفاز بالقدح المعلى^٩ في سائر العلوم المتولدة في عصره، طويل الباع في تدريس الكتب الدراسية كلها، خبيراً بالأوضاع، واسع الاطلاع على طبقات العلماء والمشايخ، شديد التحفظ في مجالس العلم، وله مناقب وفضائل لا يأتي عليها الحصر^{١٠}، هذا وكان ينفق الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي مع حركة ندوة العلماء وأهدافها منذ بداية أمرها، ولما انعقدت الحفلة الثانية لندوة العلماء سنة ١٣١٢هـ بلكتاؤ أدى وظيفة المضيف حق أدائها، وكان عضو الشرف لندوة العلماء^{١١}.

وأما الشيخ الحكيم عبد الخالق والد الشيخ عبد الباري الندوي فكان خليفة الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي، وسمى ابنه بـ "عبد الباري" بإيماء شيخه المذكور. يقول الشيخ عبد الباري الندوي: "ولما دنت ساعة الولادة قال لشيخه الفرنكي محلي: سيدي! زوجتي قريبة الولادة. قال الشيخ: سيولد ذكر إن شاء الله. فسأله والدي: ماذا يسمى؟ قال: أكمل خالق باري". ثم يكشف اتصال والده بالشيخ نعيم قائلا: "ولا وجه لاتصال أبي بالعلامة عبد الحي الحسيني إلا أن العلامة كان تلميذا للشيخ الفرنكي محلي، وكان أبي يحضر مجالس الشيخ ويقوم عنده لعدة أسابيع في بعض الأحيان. ويضيف قائلا أيضا: هذه الصلة:

"لم يكن أبي تلميذ شيخه الفرنكي محلي فحسب بل أحب تلامذته وذلك لمجاهلته الشاقة في السلوك وخدمته له، ولكن كان مائلا إلى الإخفاء والايستار طبعاً حتى لما توفي وجاء إلي حفيده الشيخ محمد أسلم بكديا ليعزيني عن وفاته قال: أفضي إليك بسر من أسرار الفقيد،

^٩ حياة عبد الحي ص: ٧٥-٧٦.

^{١٠} وانظر للمزيد من التفصيل نزهة الخواطر، الجزء الثامن، توفي في ٢١ من ربيع الثاني ١٤١٨هـ المصادف ١٨ من أغسطس سنة ١٩٠٠م.

^{١١} تاريخ ندوة العلماء الجزء الأول، ص: ٢٨١.

قال: إني سرحت نظرة على أسماء تلامذة وخلفاء جدي فوجدت فيها اسم الفقيد أيضاً".
العلامة عبد الحفي الفرنكي محلي:

العالم الهندي، المحقق الفذ، المؤلف العظيم، المفتي الخبير، المعلم الحاذق الذي اشتهر في العالم العربي باسم "الإمام اللكنوي" وفي شبه القارة الهندية بالعلامة عبد الحفي الفرنكي محلي. هو سليل أسرة أنصارية مدنية عربية الأصل من فرنكي محل بلكتاو، وحارس القيم الخلقية والمثل الإسلامية والداعي إليها، المعلود من رجالات التاريخ الإسلامي التي لم يطل عمرها ولكنها فعلت في مدة قليلة مالا تستطيع أن تفعله الأجيال والمجامع في سنين طوال.

ولد ببلدة باندة عام ١٢٦٤هـ وحفظ القرآن الكريم في صباه، وقرأ المنقولات والمعقولات على أبيه الشيخ عبد الحلیم اللكنوي، ولم يزل يزداد حرصاً على مطالعة الكتب وانقطع إلى الدراسة ولكن أباه لم يقنعه كل ذلك، فأراد أن يمتحنه وقصة ذلك أن ابنه سأله الماء ذات يوم فأعطاه النفط مكان الماء، فدهش حين رآه شربه في جرعة واحدة ثم غرق في الدراسة، فأعطاه أبوه - الذي كان طبيباً - دواءً لئلا يلحقه أي ضرر، وشكر الله سبحانه على أن رزق ابنه مثل هذه الرغبة والحرص على المطالعة^{١٢}.

إنه بدأ يدرس ولم ينيف على الثاني عشر من عمره، وكان دأبه في ذلك أنه كان يدرس بنفسه، ولم تقتنع نفسه بقرن واحد من الفنون، فلم يزل يطلب الأصحح والأفصح. ولم يخيب طالباً ولم ينهر سائلاً قط، فكان يدفع بعض الأحيان إلى القيام بأنواع من خدمة العلم معاً، يصنف ويؤلف، يدرس ويذكر، يدعو ويبلغ، يفتي ويربي، فلا يخور ولا يني، ولا يكسل ولا يتكاسل.

تشرف بالحج وزيارة البيت مرتين، المرة الأولى مع والده الشيخ عبد الحلیم اللكنوي

^{١٢} ذكر الشيخ القارئ السيد صديق أحمد الباندوي هذه القصة في كتابه "آداب المتعلمين".

سنة ١٢٧٩هـ، ولمرة الثانية سنة ١٢٩٣هـ بعد وفاته. واستفاد من علماء الحرمين كالشيخ أحمد بن زين دحلان الشافعي، والشيخ محمد بن حميد الحنبلي في مكة المكرمة، والشيخ محمد المغربي الشافعي، والشاه عبد الغني الجملدي الحنفي الدهلوي في المدينة المنورة، ونال إجازة الحديث الشريف. قضى بقية حياته في لكتاؤ مشغلاً بالعلم والدين. توفي في ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٣٠٤هـ بلكتاؤ بالغام عمره ٣٩ عاماً ودفن بـ"باغ مولوي أنوار" وهي مدفن كثير من شيوخ أسرته وعلمائها. ويصف العلامة عبد الحي الحسيني بماشاهد: "كنت حاضراً في ذلك للشهد وكان ذلك اليوم من أنحس الأيام. اجتمع الناس في المدفن من كل طائفة وفرقة أكثر من أن يحصروا وقد صلوا عليه ثلاث مرات"^{١٣}

وكان الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي يحل من معاصريه محلاً رفيعاً. احتدم الخلاف بينه وبين العلامة الثواب السيد صديق حسن خان القنوجي (م ١٣٠٧هـ) في بعض المسائل ولكنه لما فوجئ بوفاته أصابه حزن شديد حتى لم يتناول العشاء وصى عليه صلاة غائبة. وصدق العلامة السيد عبد الحي الحسيني (ت ١٣٤١هـ) إذ قال: "وكانت له علاقة بالشيخ الثواب لأجل سعة اطلاعه على العلوم والأحكام".

أما تلاميذ الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي فيتجاوز عددهم رؤوس الأصابع. من تطفل على مائة علمه ولو لمرة واحدة طول حياته تمتع بثقة واسعة. ومن أشهر تلامذته الذين اعترفوا بفضائله وتعلموا عليه وصاروا موضع ثقة عند العلماء الشيخ إدريس النغامي [ت ١٣٣٠هـ]، والشيخ شير علي الحيدرآبادي [ت ١٣٥٤هـ]، والشيخ حفيظ الله البندوي [ت ١٣٦٢هـ]، وتعلم على هؤلاء الشيخ عبد الباري الندوي فبرع في سائر العلوم والفنون. لم يسعد الشيخ عبد الحي الحسيني بالتلمذ على سميه الفرنكي محلي وإن شهد بحالسه

^{١٣} نزهة الخواطر، الجزء الثامن.

مرات واستفاد منه وحضر جنازته. وكانت للشيخ عبد الباري به علاقة طيبة^{١٤} وكان الطيب اليوناني أجدد علي عم الشيخ عبد الباري الندوي تلميذ الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي، واشتهر من تلامذته الشيخ السيد محمد أمين النصير آبادي والشيخ السيد ظهور الإسلام الفتح فوري والشيخ حميد الدين الفراهي والشاه عين القضاة النقشبندي اللكنوي والشيخ ظهير أحسن للملخص بـ شوق النيموي^{١٥}. خلف الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي تراثا ضخما من الكتب. واتخذ الشيخ الشامي العلامة المحدث المحقق عبد الفتاح أبو غده مؤلفاته - سواء كانت مخطوطات أم مطبوعات - موضوع بحثه وأولاها بالغ عنايته واهتم بنشرها بعد أن حققها وراجعها. وقضى عشر سنوات في نشر وتحقيق كتابه "ظفر الأمانى بشرح المختصر المنسوب إلى المحدث الجرجاني". وقد فاز بنشره وعرضه بين يدي الناس بعد عظيم اهتمامه بتحقيقه ومراجعته، وقد حققه ونشره أيضا المحدث الشيخ تقي الدين الندوي الأعظمي أيضا. ثم قام بنشر شرحه القيم "التعليق للمجد" على "موطأ الإمام محمد". الشيخ الفرنكي محلي تعرفه العرب والعجم على السواء. ولا غرو إذا قلنا إنه يحتل مكانة الإمامة في سائر العلوم الإسلامية. يقول العلامة أبو الحسن علي الندوي:

"أما فخر المتأخرين أبو الحسنات الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي فقد اعترف بفضله العالم واشتهر بتبحره في العلم والجمع وسعة الاطلاع ودقة النظر"^{١٦}
أسرة الشيخ علم الله، وعلماء ومشايخ نغرام:

يقول العلامة الندوي كاشفا عن مكانة "نغرام" في مجال العلم ومركزته الروحية.

^{١٤} راجع للتفصيل الإمام عبد الحي اللكنوي علامة الهند وإمام المحدثين والفقهاء للدكتور ولي الدين الأعظمي الندوي.

^{١٥} رجال الفكر والدعوة الجزء الخامس ص: ٢٥١.

^{١٦} المصدر السابق

"نغرام" بلدة معروفة عامرة بالرجال ومنبت جهابذة العلماء والأدباء في "أوده"، وظلت مركزاً علمياً في عهد الهندوس، وأنجبت رجالات عظيمة خلال حكم المسلمين أيضاً. ولا يعلم كثير من الناس أن الشيخ السيد نصير الدين "جراغ" الدهلوي تلميذ وخليفة سلطان المشايخ خواجه نظام الدين أولياء كان سليل نفس هذه الأسرة وينتمي إلى هذه البلدة.

واستارت البلدة في أواخر القرن الثالث عشر بنور الهدى وإصلاح العقائد. كانت أوده عامرة بمراكز علمية وروحية استفاد منها ألوف من الناس باطناً وظاهراً، تصقل نفوسهم، وتجلب باطنهم، وتحليهم بالعلم، ولكن كانت هناك أسرتان تمتاز كلتاهما من سائر أسرها بالاعتصام بحبل الله، والتمسك بشريعته، والتوحيد، واتباع سنة النبي، وإصلاح العقائد والطقوس، إحداهما أسرة الإمام السيد أحمد الشهيد التي اتخذت مركزها مديرية راي بريلي، وأخرهما هي التي نحن بصددنا أعني التي حوتها بلدة "نغرام" بمديرية لكتاؤ^{١٧}.

ويذكر العلامة الندوي للمراكز العلمية والروحية والدينية التي كانت سائدة في القرن الثالث عشر فيقول في كتابه "سيرة سيد أحمد شهيد": "كان القاضي عبد الكريم الجوراسي خليفة الشيخ السيد محمد عدل المعروف بـ"الشاه لعل الراي بريلوي" وخليفة القاضي عبد الكريم النغامي [ت ١٢٤٩هـ] متصلين بالسلسلة الجملدية ومركز الهدى والإرشاد"^{١٨}.

الشيخ السيد الشاه محمد عدل :

كان الشيخ الشاه علم الله الحسيني الراي بريلوي (١٠٣٣-١٠٩٦هـ) أحد أشياع عصره، عالي الهمة، رفيع المنزلة، متبعاً للسنّة، خليفة مجدد الألف الثاني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١هـ - ١٠٣٤هـ) ومن أكبر خلفاء الشيخ آدم البنوري [ت ١٠٥٣هـ] للمدينة المنورة، وإليه تنسب السلسلة الأحسنية الآدمية. ينفر من البدعة فنور الأوابد، وينظر إليها

^{١٧} سيرة سيد أحمد شهيد ١٩/١

^{١٨} بران جراغ ٢/٢٤٧-٢٤٨

نظرة بغض واحتقار. كان منقطع النظر في اتباع السنة ، و التمسك بشريعة الله الغراء، والاعتصام بمجبل التوحيد والعقيدة الصحيحة^{١٩}

ومنه انتقلت هذه الخصيصة إلى خلفائه وأحفاده وأولاده، فكان ابنه الصغير الشيخ السيد محمد جي^{٢٠} أحب خلفاء الشيخ الشاه ونموذجا لأبيه. وخلفه الشيخ السيد محمد عدل. يقول السيد محمد الحسيني: "ومن أبرز أحفاد الشيخ السيد الشاه علم الله الشيخ السيد محمد عدل، وكان ابن السيد محمد جي وأخا للسيد محمد حكم من الرضاة^{٢١}. يعرف بـ"الشاه لعل"، ويعتبر أحد أشهر شيوخ عصره وتتمي إليه بعض الأوساط الدينية والعلمية في "أوده" بيعة

^{١٩} انظر للتفصيل: "تذكرة حضرت شاه علم الله حسني" مؤلفه السيد محمد الحسيني، و "سيرة سيد أحمد شهيد" للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي و "سيد أحمد شهيد" للشيخ غلام رسول مهر و "خانواده علم الله" للسيد محمد الثاني الحسيني.

^{٢٠} كان الشيخ السيد محمد جي (١٠٧٠هـ - ١١٥٦هـ) أصغر وأحب أبناء الشاه علم الله الحسيني. وأخذ العلم والطريقة من الشيخ الشاه علم الله الحسيني وخلفه بعده فكان أجل خلفائه. وأعطاه الشيخ شاه المذكور بعض ما بقي من تبركات الشيخ السيد آدم البنوري والشيخ مجدد الألف الثاني. بنى مسجدا وزاوية ومدرسة على مسافة غير بعيدة من "تكه" ببلدة راي بريلي. يسمى المسجد بـ"دائرة والي مسجد"، وقد بنى المسجد على هيئة الكعبة المشرفة في راي بريلي، وبين مثله الشاه علم الله الحسيني في تكه قبله. ويقول محمد الثاني الحسيني مؤلف "خانواده علم الله": "كانت تنعقد محافل الإرشاد والسلوك في شتى أقطار أوده بفضل الشيخ الشاه لعل والشيخ السيد محمد جي رحمهما الله".

ويثنى عليه العلامة عبد الحمي الحسيني بما يلي من الكلمات: "كان آية بينة في النسبة الصحيحة وقوة التأثير ولفت الأنظار". وله كتاب يسمى بـ"شرح كلمات نقشيندية".

^{٢١} السيد محمد حكم [ت ١١٥٠هـ] الأخ الأكبر للسيد محمد عدل الذي قام بتربيته وتثيقه. توفي أمام أعين أبيه السيد محمد جي. كان مصنفا جليلا. كتب تفسيرين للقرآن الكريم أحدهما بالعربية وثانيهما بالفارسية، وله "تلخيص الصراح" في علم اللغة، و "ولائي النحو" في علم النحو، وهذا الأخير ذكره كتبه لأخيه السيد محمد عدل. استفاد من أبيه والشيخ عبد الأحد بن الشيخ محمد سعيد السرهندي.

وخلافة وإجازة. وشهد مجالسه بعض علماء عصره من فرنكي محل وتشرفوا بصحبته وبيعته وخلافته، حتى إن السلسلة النقشبندية الكاكوروية وبعض شيوخ السلسلة القلندرية ينسبون أنفسهم إليه. وكتب جدي العلامة السيد عبد الحي الحسيني بقلمه على حاشية السيرة العلمية كلمات شيخه محمد نعيم الفرنكي محلي التي كان يقولها في شأن الشاه لعل. يقول العلامة الحسيني: "لقد كان يقول أستاذي الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي: إن هذا الزمان لم ينجب مثله في الورع والتشريع والتقوى والفضل والكمال والاستقامة. فكان قمرا للعالم يتلأأ في جرح الظلام، فاستارت به كل أرجائه".

نشأ تحت كفالة أبيه السيد محمد جبي ولم يزل يستفيد منه من صباه إلى شبابه. وسلك مدارج التصوف ولم تمض مدة قليلة حتى قطعها فصار خلفا لأبيه وترجمانا عنه، وكان نموذجاً رفيعاً ومفخرة لسلفه الصالح، اعتر به الأولون وافتخر به الآخرون. نال العلوم الظاهرة من أخيه الأكبر السيد محمد حكيم في أوائل عمره، وحسبنا إذا أردنا أن نعرف قدر حبه إياه وإشفاقه له أنه صنف له كتاباً في النحو.

ولما ألقى دراسته عني بالتركية وعلم الإحسان وتجشم في سبيل المجاهدة والرياضة مصاعب يشتد تحملها فلذلك كله تحت إرشاد أبيه فأكرمه الله بالخلود والبقاء الذي لا يقدر بثمن ولا تقل أهميته وعظمته وإن اقتضى بذل النفس والمال، فإنه من فضل الله يؤتيه من يشاء. ولقب بأبي المساكين لخدمته الفقراء والمساكين وتعهده بالضعفاء والمرضى، ويقول الشيخ السيد نعمان — وهو أحد خلفائه — ناعتاً إياه: "لقد بلغ من الزهد والمجاهدة والجدود مبلغاً يدفعه إلى إكثار المرق بالماء، لا يتناول الطعام أكثر من ربيع معدته، وربما يصل كلال ليله بكلال نهاره طاوياً بطنه، ويتصدق ما فضل من طعامه على الفقراء والمساكين، وإذا أقبل الشتاء ذهب بكل ما كان يلحف به ويفرشه إلى زوار الزاوية ويلقيه عليهم ثم يأتي إليهم في الغلس ويوقظهم ويطوي فراشه ولحافه فيرجع كما إلى حجرته وذلك لئلا يطلع عليه أحد، وترك استعمال

الصوف وما يصنع به ظانا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله، ثم ترك استعمال السرير اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وكان يضطجع على قش الأرز أو الحصير^{٢٢} وأما عبادته وخصيته لله سبحانه فإكفا بتجددان ذكريات الصحابة العظام والسلف الصالح، ويصف الشيخ نعمان صاحب "أعلام الهدى" بكل مشاهد بأمر عينيه: "كم رأته قائما لصلاة العشاء حتى تطلع الشمس". يقول الشيخ السيد نعمان بعد ذكر مشاهدته:

"يصدق هذا البيت على حياته: يابني ثلاثة أشياء تدل على وجود الحب، اصفرار لون الوجه والصلعاء والكمال العين. وكانت الكيفيات الثلاث تبلو في قسمات وجهه، والله لا أقول ذلك مبالغة"^{٢٣}

وكثيرا ما كان يسافر إلى أقطار أوده، وهراتش، ومانك فور، وإله آباد، وضواحي دلهي ويستفيد من علمائها وشيوخها، ويوزر مقابر أولياء الله، ولكن لا يطلع على سفره أحدا. وكانت آية ذلك أنه إذا لم يحضر الجماعة علم الناس وقالوا: بعد عنا. وسافر إلى برهان فور وبوفال أيضا، ولما اطلع الناس على قلبومه اليمون وازدحموا غادرهما إلى مكان آخر. يقول صاحب "بحر زخار" - معاصر الشيخ الشاه لعل وصديق تلميذه عبد الله خان صاحب كتاب "رياض الأولياء" - وهو يذكر حول هؤلاء المشايخ:

"ولا يخف أن هؤلاء المشايخ كانوا خاملين، مستوري الكرامات والخوارق، ومتأملين فيها غاية التأمل، ولم تكن المجالس والأمالي برائحة في أسرهم. وكانوا يقولون بألستهم: "إن مثل هذه الكرامات والخوارق لا تليق إلا بالمشايخ والأولياء الذين هجروا الدنيا وبجتها بقلوبهم لا بقولهم فحسب، فليس من شأننا أن نعلمي على الناس أقوالنا وملفوظاتنا". ويستطرد قائلا: "كل ما أكتب عنه من أخبار وأحوال، ليس إلا ما سألت عنه الشيخ عبد

^{٢٢} أعلام الهدى.

^{٢٣} أعلام الهدى.

الكريم^{٢٤}.

"وأحسب أن كل من ذكرهم في غضون هذه الورقات المملوءة كلهم بمئة
الشمس من السماء والجذع من الشجرة، حملة لواء الإسلام، ومناثر نور، وأعلام هدى يهتدى
بها من أراد الله^{٢٥}.

وحسبكم قصة غريبة في استغناء الشيخ الشاه لعل وازدرائه الدنيا ومافيهما، واتباعه السنة
والعزيمة وما أكرمه الله به من قبول لدى الناس وتأثيره وتسخيره إياهم، وقد رواها الشيخ إدريس
الغرامى صاحب "الأصول الثابتة للفروع النابتة" بغاية من التفصيل. وإليكم القصة بنصها وفصها
كما حكاهما الشيخ إدريس:

"سمعت والدي الكريم الشيخ الشاه محمد عبد العلي الغرامى^{٢٦} أن الأمير شجاع
الدولة لما قدم راي بريلي، فاشتاق إلى زيارته، فقال له من حوله: إن شارب السيد الأمير قد ازداد
طولا، وإذا رار الشيخ الشاه لعل أحد ممن لا يتبع سنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم لفته أن
يعمل بسنته ويجعل صورته كما أقر النبي صلى الله عليه وسلم فما كان لشجاع الدولة بد من أن
يسكت، وبينما هو كذلك إذ قال قتيان قويان من الأفغان: كيف يجترئ هذا الفقير على أن
يقص شارب سيدنا، ثم حضرا لدى الشيخ لعل، فلم ينشب أن امتزج حبه بدم كل منهما،
وحملا كلاهما نفسه على أن يرضى بما يأمره الشيخ ويعمل بما يقول، وفي الوقت نفسه قص
ييده شارب كل منهما حتى صار كما أراد الشرع، فلما ودعاه عند شجاع الدولة، فسأل:

^{٢٤} الشيخ عبد الكرم الجوراسي خليفة الشيخ شاه لعل، وسيأتي ذكره قريبا إن شاء.

^{٢٥} بحر ذخار (مختار) ص: ٨، قام بترتيبه وتدوينه الدكتور السيد عبد العلي الحسيني (١٣٨١م-هـ).

^{٢٦} وكان الشيخ عبد العلي الغرامى خليفة القاضي عبد الكرم الجوراسي، وأتم السلوك لدى الشيخ
كلزار شاه، كما أحازه واستخلفه الشيخ شاه بناء عطا. كان ممتازا باتباع السنة والاجتناب عن البدعة
حتى كان يشار إليه بالأنامل.

مابالكما؟ وأين ذهب الكبير الذي كتتما في غرقمنه قبل زيارته. فقالا: أيها السلطان! لقد كنا ساعة ينصحنا مثل من يقوم أمام أسد مهيب. ولو لم نعمل بما أمر الشيخ لكنا قد قتلنا، فبحاف شجاع الدولة وحرم زيارته^{٢٧}

وكان الشيخ الشاه لعل يحنو حنو آبائه وسلفه الصالح في اتباع السنة النبوية، وهذه هي الميزة التي تميزه عن سائر معاصريه وللبايعين له، واستفاد منه في إصلاح باطنه. وظل عاملا بهذه الرسالة طيلة حياته: "عليك أن تصل نفسك بنفس محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لادين إلا دينه، فإنك إن لم تصلها به فقد حرمت ودخلت عسكر أبي لهب".

كان الشيخ أزهار الحق صنو الشيخ أنوار الحق، وصهر الشيخ بحر العلوم وعم الشيخ محمد ميين، وأحد أعلام "فرنكي محل". اتصل بالشيخ الشاه لعل فبايعه وخلفه. والمعروف أن الشيخ بحر العلوم في طريقه إلى بوهار^{٢٨} مر بزاوية الشيخ الشاه لعل وكان معه آنذاك الشيخ أزهار الحق.

لازم الشيخ أزهار الحق صحبة الشيخ الشاه لعل إلى مدة غير قصيرة وترى في كفه حتى حظي بمراتب عالية. وأما القاضي عبد الكريم الجوراسي فكان ممتازا من سائر من أجازته الشيخ وصار تلميذا له. الجدير بالذكر أن القاضي الجوراسي توطن قرية شيخه الشاه لعل وسكن قريبا من زاويته، وقد دفن قريبا من قرئته زاوية الشاه علم الله عند جسر "راج غات" على شاطئ نهر "سي".

وفيما يلي أسماء أهم خلفاء الشيخ الشاه لعل:

الشيخ أزهار الحق الفرنكي محلي، والشيخ محمد كاظم قلندر الكاكوروي، والشيخ ذو الفقار علي الدينوندي تلميذ الشيخ بحر العلوم والشيخ عبد الكريم الجوراسي مرشد القاضي

^{٢٧} الأصول الناجية ص: ١٤.

^{٢٨} تقع قريبا من بردوان (بنغال الغربية)، وهناك شق خاص بـ"بوهار" في المكتبة القومية لكلكتة.

عبد الكريم النغرامي، والشيخ محمد يحيى الجائسي، والشيخ السيد محمد نعمان - عم الشيخ السيد أحمد الشهيد، وصاحب كتاب "أعلام المهدي" - وعبد الله خان صاحب كتاب "رياض الأولياء".

لفظ الشيخ أنفاسه الأخيرة في الحادي عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١١٩٣هـ. بالغاً عمره ٨٥ سنة، ودفن قريباً من قبر جده "الشاه علم الله" وجدته في زاوية الشاه علم الله^{٢٩}.

القاضي عبد الكريم الجوراسي:

كان القاضي عبد الكريم الجوراسي فناً بفضله وعلمه ولكنه لما قرع أذنيه صيت الشيخ الشاه لعل زاره وأرسل زوجته وأعضاء عائلته إلى بيته، وظل نفسه قائماً خارج بيته ليرى أيصغر منه قول أو عمل أو فعل ينافي سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن نظر فيه إلى فترة غير قصيرة توصل إلى أنه لا اختلاف بين ظاهره وباطنه. وصدق صاحب "تذكرة حضرت شاه علم الله حسني" حيث قال: "الواقع أن العمل بذلك ليس سهلاً هينا شأن القول. كل امرئ ولو كان عظيماً فريداً ليس له بد من التمسك بوحدة من رخص الدين بترك العزائم ولو لمرة واحدة طوال حياته، وليس من الضروري أن يكن الظاهر والباطن سواء. ذلك من أهم ما يمتاز به السيد الشاه لعل، وهذه الخصيصة هي التي عظمته في عيني"^{٣٠}.

وإليك القصة التي نقلها الشيخ إدريس النغرامي عند ذكر السيد الشاه علم الله الحسيني في الأصول الثابتة: "وبلغ الورع منه مبلغاً لم يبايع به أحداً. وكان يقول: لا تابع إلا من كان

^{٢٩} وفي تلك البقعة نفسها دفن الشيخ شاه علم الله الحسيني وشاه لعل وبقي جزء منها خالياً دفن فيه العلامة السيد أبو الحسن علي الندوي.

^{٣٠} نزهة الخواطر ٧/٣٣١.

لمترما بحدود الشرع ظاهرا وباطنا، ولما سمع عن الشيخ الشاه لعل شد رحله إلى راي بريلي مع زوجته ليتبين ماهو الحق، ولبثت زوجته في داخل بيته وهو نفسه خارج البيت سنة كاملة ليرى كل منهما أيصدر منه قول أو عمل ينافي سنة النبي صلى الله عليه وسلم أم لا، ولما وجد أنه لم يصدر منه مثل هذا العمل أو القول سأله البيعة ففرح الشيخ الشاه لعل وبإبعه وجعله خليفه له^{٣١}

القاضي عبد الكريم النغرامي:

يقول الشيخ عبد الحي الحسيني في "نزهة الخواطر" تحت ترجمة القاضي عبد الكريم النغرامي خليفة القاضي عبد الكريم الجوراسي خليفة الشاه السيد محمد عدل بن السيد محمد بن الشيخ الشاه علم الله الحسيني الرائي بريلوي:

"الشيخ العالم الفقيه القاضي عبد الكريم بن محمد مقيم بن أمين الدين النغرامي ثم البريلوي، كان من ذرية الشيخ حميد بن عبد البديع بن قطب الدين القلندر العمري الجونوري، ولد ونشأ بنغرام (بفتح النون) قرية جماعة من أعمال لكانا، وقرأ الرسائل المختصرة على خاله محمد نذير، والفقهاء والأصول على الحافظ معين الدين الصلبي الأميتهيوي، وقرأ المنطق والحكمة وغيرها على الشيخ عبد القلوس بن يعقوب اللكنوي والشيخ عبد الواحد الخيراآبادي، وأخذ الصناعة الطبية عن الحكيم بير علي خان الموهاني، ثم لازم القاضي عبد الكريم الجوراسي، وأخذ عنه الطريقة وسكن يلدتتا راي بريلي، وكان بارعا في الفقه والسلوك، زاهدا غفيفا متوكلا، شديد التعب، له مصنفات عديدة. توفي يوم الأربعاء لتسع بقين من رجب سنة تسع وأربعين ومائتين وألف، وقبره في راي بريلي ظاهر البلدة، كما في مهرجاناتنا^{٣٢}.

ومن خلفائه الأولين الشيخ الشاه كل محمد الرائي بريلوي، والشاه كلزار علي

^{٣١} تذكره حضرت شاه علم الله حسيني، ص: ١٥٩.

^{٣٢} نزهة الخواطر ٧/٣٣١.

الكششوي، والششيخ عبد العلي النغرامي. يقول صاحب نزهة الخواطر: "الششيخ العالم كل محمد الحنفي البريلوي أحد عباد الله الصالحين، قرأ العلم في بلاد شتى على أساتذة عصره، ثم دخل راءى بريلي ولازم القاضي عبد الكريم النكرامي، وأخذ عند الطريقة، ولما مات القاضي تولى الشياخة مكانه. مات سنة ست وخمسين ومائتين وألف كما في مهر جهاتتاب"^{٣٣}

وأخذ الشيخ عبد العلي النغرامي بقية التصوف عن الشاه كلزار علي الكششوي، وحظي بمراتب عالية".

الششيخ عبد العلي النغرامي:

"الششيخ العالم الصالح عبد العلي بن بير علي بن غلام إمام الهندي النغرامي أحد الفقهاء الحنفيه، ولد سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف، وقرأ العلم على خاله عليم الله والسيد أنور علي المرادآبادي والششيخ أوحد الدين البلكرامي والششيخ عبد الحكيم بن عبد الرب اللكنوي وعلى غيرهم من العلماء وأخذ الطريقة عن القاضي عبد الكريم النغرامي ثم لازم خليفته كلزار علي الكششوي وأخذ عنه، وله الإجازة عن الشيوخ بناه عطا السلوني وخواجه أحمد بن ياسين النصيرآبادي.

وكان ورعا تقيا صالحا عفيفا، انتفع به خلق كثير وهدى الله به عباده، وله مصنفات عديدة أشهرها: تفسير آيات الأحكام في مجلد ومنها تحقيق الأمور في حلوث الفاتحة والنور، ومنها رسالة في تحقيق المولد والقيام بالعريية، ومنها اليواقيت اللطيفة في تأييد مذهب أبي حنيفة، ومنها التحرير في حرمة للزماير، وله غير ذلك من الرسائل^{٣٤}. مات ليلة الأربعاء لأثنين بقيتا من

^{٣٣} نزهة الخواطر ٤٣٧/٧.

^{٣٤} وللششيخ عبد العلي النغرامي - والد وأستاذ الشيوخ محمد إدريس النغرامي أستاذ الشيوخ عبد الباري الندوي - إجازة واستفادة من طريقة السيد أحمد الشهيد بوساطة خواجه أحمد النصيرآبادي وكان السيد أحمد الشهيد خليفة الشاه عبد العزيز الدهلوي متصلا بطريقة الشاه ولي الله الدهلوي. وكان

شوال سنة ست وتسعين ومائتين وألف، أخبرني بها ولده إدريس بن عبد العلي رحمه الله^{٣٥} وخلفه ابنه الشيخ إدريس النغرامي". يقول الشيخ عمير الصديق الدرابادي وهو يذكر مكانته العلمية والدينية: "كان الشيخ عبد العلي النغرامي علماً قديراً. تمت بيعته وإجازته بيد الشيخ النقشبندي القاضي عبد الكريم النغرامي الذي كان خليفة سميّه عبد الكريم الجوراسي الذي تربى تحت رعاية السيد محمد مريد والسيد محمد عدل ابن الشيخ الشاه علم الله الرائي بريلوي، وللشيخ عبد العلي إجازة نواجه أحمد النصير آبادي ابن أخت الشيخ السيد أحمد الشهيد أيضاً، وبفضل تأثير هؤلاء المشايخ والأولياء نشأ فيه حملس ديني وعاطفة إيمانية جعلته متبع سنن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يتجول في القرى والأرياف يدعو أهلها إلى دين الحق، وكان

مجداً للسلوك والطريقة وعمل الدعوة والإصلاح. تاب على يده مآت ألوف من الناس. وسماه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي بمجهد الإصلاح والدعوة بعد مجده الألف الثاني الإمام أحمد السرهندي (ت ١٣٤٠هـ). يقول العلامة الندوي في كتاب: "المسلمون في الهند":

"وكان منهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) الذي قام بالدعوة إلى الدين الخالص، والجهاد في سبيل الله، وتأسيس الحكومة الشرعية على منهاج الخلافة الراشدة، ونفخ روح الجهاد والحماسة والتضحية في الهند، وهبت بجهوده في الهند ريح الإيمان وعادت نفحة من نفحات القرون الأولى، ولم يعرف مثله في القرون الأخيرة، في قوة التأثير وعلو الهمة، والحمية الدينية، ولم يعرف مثل جماعته وأتباعه في الصلابة في الدين والاستقامة على الشريعة وحب الجهاد". وللمزيد من التفصيل يراجع: كتاب "سيرة سيد أحمد شهيد" للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، وكتاب "سيد أحمد شهيد" لغلان رسول مهر. يقول العلامة الندوي عما جرى مع الذين بايعوه وتابوا على يده خلال إقامته في كلكتة: "وأقام في كلكتة شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان بعد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس بمسكوتها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمان عشرة مرة". (المسلمون في الهند، ص: ١٢٣).

^{٣٥} نزهة الخواطر: ٣٠٩/٧ - ٣١٠، طبعة دار عرفات، رائي بريلي.

للشرك والبدع والتقاليد اللادينية دولة وصولاً، وقد أكرمه الله سبحانه وتعالى بتأثير وروعة أسلوب في مواظبه كثر بما عدد التائين بيده، فانصرف الناس عن التقاليد اللادينية والأعراف القبلية وأقبلوا بقلوبهم وقوا بهم على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم".

الشيخ الأجل محمد إدريس النغرامي:

كان الشيخ إدريس النغرامي ابن الشيخ عبد العلي النغرامي وجد الشيخ محمد أويس النغرامي - شيخ التفسير بدار العلوم لندوة العلماء، لكتاؤ - وكان للشيخ إدريس النغرامي صيت ذائع في لكتاؤ وضواحيها ساعة بلغ الشيخ عبد الباري النلوي رشده. وكان عالماً جليلاً، ومصنفاً بارعاً، ومحققاً ضليعاً كما كان شيخ الطريقة وعارفاً كاملاً أيضاً، وكان والده الشيخ عبد العلي النغرامي من أشهر العلماء والمشايخ. وكان شيخ الطريقة النقشبندية التي سلكها الشيخ الشاه علم الله الحسيني - أحد أجداد الشيخ السيد أحمد الشهيد - وطليعة المتأثرين به الشيخ عبد الباري النلوي.

يقول الشيخ: "أما نظرتة الكريمة فإنها قد أثرت في دائماً ودفعني إلى التوجه إلى العلم والدين فمنذ ذلك اليوم بدأت أحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة في مسجده، وازداد ولوعي بالعلم حتى أزال الله به ذلك القصور الذي طرأني أثناء طلب العلم في ندوة العلماء"^{٣٦}

ويقول عنه معاصره العلامة عبد الحي الحسيني في "زهة الخواطر": "الشيخ العالم الصالح إدريس بن عبد العلي الحنفي النغرامي أحد الفقهاء المتورعين. ولد بنغرام يوم الاثنين في الرابع عشر من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين بعد الألف، وقرأ العلم على أبيه وتفقّه عليه ثم دخل لكتاؤ، وقرأ "مسلم الثبوت في أصول الفقه" على مولانا عبد الحي بن عبد الحلیم اللكنوي

^{٣٦} إن روح العبادة التي نراها تسري في نفس الشيخ عبد الباري ورغبته في التعلم والتعليم كلاهما رهين ملازمته صحبة الشيخ إدريس النغرامي، ومن ثم نشأت فيه تلك العاطفة التي لم تزل تزداد شيئاً فشيئاً بفضل تربية العلامة النعماني والتحاقه بندوة العلماء كما كان يعترف بذلك الشيخ عبد الباري الندوي.

وأُسند الحديث عن الشيخ عبد الحق بن محمد مير الدهلوي^{٣٧} والشيخ عبد الرحمن بن محمد الباني بتي وشيخنا الإمام فضل الرحمن بن أهل الله البكري المرادآبادي^{٣٨}.

وأخذ الطريقة عن أبيه وعن الشيخ فضل الرحمن المذكور وعن خالي المرحوم عيد السلام بن أبي القاسم الحسيني الواسطي^{٣٩}، وعن غيره من المشايخ وتولى الشياخة بعد أبيه.

^{٣٧} المراد به الشيخ عبد الحق الدهلوي صاحب "التفسير الحقايق"، وكان من أعضاء تأسيس ندوة العلماء في بداية الأمر، وكان مائلا إلى تأسيس دار العلوم لندوة العلماء بدلهي بدلا من لكتناؤ، ولكن الثانية انتصرت على الأولى. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. (للمزيد من التفصيل لاحظوا تاريخ ندوة العلماء، الجزء الأول للشيخ إسحاق جليس الندوي).

^{٣٨} يقول سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: كان الشيخ فضل الرحمن الكنج مرادآبادي (١٢٠٨هـ - ١٣١٣هـ) خليفة الشيخ الشاه محمد آفاق. ولم تزل الهند (وخاصة الشمالية منها) تستنير بمصباح نوره، وتحتدي بحديه، وتحطو بعاطفته القوية، ونفسه الجياشة، وقلبه الدفاق، وبزهده وتجرده، واتباعه أوامر الشرع ونواهيها، وعلمه بالحديث النبوي، ووجه الله ورسوله، حتى مضى عليها نصف قرن أو أكثر. والجدير بالذكر أن معظم مؤسسي ندوة العلماء والمسئولين عنها تعلموا عليه. ومنهم الشيخ السيد محمد علي المونكري - مؤسس ندوة العلماء ورئيسها الأول - والشيخ مسيح الزمان خان الشاه جهانفوري - رئيس ندوة العلماء الأسبق - والشيخ ظهور الإسلام الفتوحوري، والشيخ السيد جميل حسين البهاري، والشيخ الدكتور السيد عبد الحي - رئيس ندوة العلماء الأسبق - والشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني، وصفي الدولة النواب السيد علي حسن خان - رئيس ندوة العلماء سابقا - . والشيخ علي المونكري هو الذي قام بنشر طريقة الشيخ فضل الرحمن على أوسع نطاق وأعظمه. (رجال الفكر والدعوة: ٣٨٠/٤).

^{٣٩} كان الشيخ شاه عبد السلام الحسيني المنسوي (١٢٣٤هـ - ١٢٩٩هـ) سليل أسرة حسينية غادرت واسط (العراق) إلى الهند، واستفاد من أشهر علماء عصره ومشايخه وكان والده الشيخ السيد أبو القاسم الواسطي المنسوي خليفة الشيخ شاه غلام علي الدهلوي، وعمه الشيخ السيد سراج الدين المنسوي تلميذ الشيخ السيد أحمد الشهيد ومرشد الشيخ عبد السلام ومربيه الذي الشيخ الشاه أحمد سعيد الجدي الدهلوي كان خليفة الشاه غلام الدهلوي، ومن خلفائه وخوادمه المستفيدين منه الشيخ

وكان صالحا متورعا متينا الديانة، حسن الأخلاق، لطيف المعاشرة مع الاشتغال بخاصة النفس، وتقويض للأمر وعفاف، وعزة نفس، يدرس ويذكر^{٤٠}.

وكان الشيخ إدريس النغمي عالما كثير التصانيف، أحصى منها الشيخ عبد الحي الحسيني أربعة عشر كتابا، توفي بنغرام في ١٠ من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٣٠هـ -
دار العلوم ندوة العلماء:

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال والجمع بين القلم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم، وبين طوائف أهل السنة التي تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية، وإن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد، فيجب أن يتأوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزداد فيه ويحذف منه بحسب تطورات العصر وحاجات المسلمين وأحوالهم.

عنيت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم - الرسالة الخالدة - وتدرسه ككتاب كل عصر وجيل، وعنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه وأمانة خزائنه، ووجهت عنايتها إلى تعليم هذه اللغة الكريمة كلغة حية من لغات البشر يكتب بها ويخطب، لا كلغة أثرية دراسة لتجاوز الأحجار أو الأسفار كما كان الشأن في الهند، وقللت قسط بعض العلوم القديمة التي لا تفيد كثيرا وأبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينه وأمته، واجتهدت أن تخرج رجالا مبشرين بالدين الإسلامي الخالد لأهل العصر الجديد

إدريس النغمي والشيخ عبد الحي الحسيني - رئيس ندوة العلماء الأسبق - والشيخ ناظر علي الكاكوروي الذي نال ابنه عبد الشكور الفاروقي اللكنوي شهرة فائقة في مجال نشر الإسلام والدعوة إليه وإصلاح ذات البين، وردالبدعات والمحدثات ولقب بإمام أهل السنة لنصرة مذهبهم وتأييده البالغ.

^{٤٠} نزهة الخواطر، الجزء الثامن.

شارحين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهل العصر، وبأسلوب يستهوي القلوب، أمة وسطا بين طرفي الجمود والجنوح، وقد نجحت في مهمتها نجاحا لا يستهان بقيمته، فأنجبت رجلا هم خير مثل للعالم المسلم العصري، لهم آثار جميلة خالدة في الأدب الإسلامي وعلم التوحيد لأهل العصر الجديد، والسيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - والتاريخ^{٤١}. إن هؤلاء العلماء وفروا ثروة قيمة في السيرة النبوية والأدب الإسلامي وعلمي الكلام والتاريخ. ومن أجازهم بالذكر الشيخ السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الباري الندوي^{٤٢}.

أما الأول فإنه تولى رئاسة مكتبة "دار المصنفين" أسستها العلامة شبلي النعماني، وتحت رئاسته أعد خريجو ندوة العلماء موسوعة إسلامية شاملة للتاريخ والأدب والفكر الإسلامي والموضوعات الإسلامية الأخرى، ثم تقلد الشيخ سليمان الندوي مناصب أخرى في إدارة الشؤون الإسلامية بباكستان ثم بوفال. وأما الشيخ عبد الباري فقصد الجامعة العثمانية حيدرآباد، وصار فيها أستاذا للفلسفة الجليلة ثم عين رئيسا لقسم الفلسفة وعرض موسوعة فكرية، وهي عبارة لما قام به من بحوث وتحقيقات طول حياته. وأنجبت ندوة العلماء غيرهم من الكتاب والمفكرين.

العلامة شبلي النعماني:

كان من أهالي أعظم جراه. اشتهر بعلمه وفضله. دفعته العاطفة الدينية والحب للملي إلى إنشاء مقالات وقصائد مليحة بالحماس واللوعة هزت أعضاء الأمة هذا عنيقا ورد على تشكيكات أعلء الإسلام ردا أدهش العقول واستوقف أبصار الأوساط العلمية، مؤيدا بالدلائل والشواهد ومستخدما أقوى الأساليب. ولما صنف الشبلي كتابا حول "مكتبة الإسكندرية"

^{٤١} المسلمون في المنذ: دراسة تاريخية للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص: ١١٢-١١٣.

^{٤٢} الشيخ السيد سليمان الندوي من طليعة المتخرجين في دار العلوم لندوة العلماء، وأما الشيخ عبد الباري فقد تخرج فيها سنة ١٩١٠م بعدما تخرج الشيخ سليمان الندوي.

تجلى أمام الأوساط العلمية أن قد شوه التاريخ بفرض تمم كاذبة على مسلمي أوروبا وبث دعايات باطلة. فأزعم على تلوين التاريخ الإسلامي بأسلوب فذ ولم يمض وقت قليل حتى بدأ يبنونه، ولكنه لما فرغ من تأليف "الفاروق" و "المأمون" وكان على وشك تصنيف "الوليد" إذ دار بخلده أن يصنف موسوعة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فبذ سائر نشاطاته وراء ظهره، ويصح القول بأن نشاطاته تلك انتقلت إلى تلاميذه، وقد أجزوها بغاية من التخطيط والتسيق فتم له المراد الذي كان يهدف إليه. ومن حسن توفيق الله سبحانه إياه أن تأليف سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من خواتيم أعماله. وفي هذا الكتاب رد على تلك الشبهات التي لم تزل ترفع تجاه السيرة، ولكن لم يقدر له إتمام هذا العمل الميمون، فأتمه تلميذه وخلفه العلامة السيد سليمان النلوي. واستغرقت سيرة النبي هذه سبعة مجلدات ضخمة، ويصدق على العلامة شبلي يته الذي قاله بهذه المناسبة:- "مدحت العجم و دوت تاريخ بني العباس فكان من المقلور أن أتمد عليهم شيئاً. ولكني الآن أصنف سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فإله أشكر على أن يوفاني وأنا دائب في هذا العمل".

وقد وهبه الله تعالى موهبة خاصة لتشخيص الأوباء والأدواء التي انتشرت في المسلمين على أوسع نطاق. فصارت أدواء اشتركت فيها سائر أفراد الأمة. كما كان واعياً متنبها للأخطار التي تعرض للإسلام وللمسلمين، والعناصر التي تعمل في إفساد الشخصية. ففضل اهتمامه وترتيبه نشأ رجال أكفاء لخدمة الدين وأهله وإرشادهم إلى الفكر الصحيح، قام كل واحد منهم بمجهودات جبارة وخدمات جليلة في مجالهم لا يمكن أن ننساها أو نتناساها. إنه لم يكن يهتر بالأم مواطنيه للمسلمين فحسب، وإنما كان يقاسم هموم كل مسلم، أينما كان وطنه، وأياً كان مذهبه، ويعالجون مشاكل غيرهم من المسلمين كما يعالجون مشاكل أنفسهم، ولا يرون أين ثارت وكيف ثارت، ولهمنا السبب النبيل كان يحث تلاميذه على إتقان اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية، ويساعدهم في ذلك. وإن ما قام به من دور بارز في تكوين

شخصية الشيخ عبد الباري النلوي وما أسهم في تربيته وتعليمه وما أولاه من عنايته اللائقة به لم يكن مقدور غيره، والشيخ عبد الباري نفسه يعترف ما أحسن إليه وصنع معه من خير و معروف. تعالوا نسرح نظرة على ما قاله الشيخ أبو الحسن علي النلوي في هذا الصدد: "خلال الأيام الأخيرة من تقاعله واعتزاله في المنزل كان يذكر العلامة الشبلي كثيرا، وكان يذكر فيما يكتب ويخطب من فضله عليه وتأثيره في تعليمه وتربيته، ويرى أن دار العلوم لنووة العلماء هي ثمرة جهود العلامة شبلي لا الشيخ محمد علي المونكري"^{٤٢}

ويقول الشيخ عبد الباري النلوي عما أسدى شبلي إلى الجيل الجديد من طلبة دار العلوم لنووة العلماء من معروف وإحسان:-

"أما تأثير العلامة شبلي النعماني الذي قبلته نووة العلماء على أوسع نطاق وأعمه فذلك ما نبر عنه بالكلف أو الولوع بالكعب الدراسية كما نما فيهم الرغبة إلى دراسة الكعب اللادرسية وكتابة المقالات والبحوث وأخذت مكتبة نووة العلماء تكتظ بدارسيها وطلابها وكانت من قبل مقفرة لا ترى فيها إلا طالبا أو طالين. وبفضل تأثير العلامة شبلي نشأت في طلاب النووة رغبة عامة إلى الكتابة والخطابة ودراسة الأدب والتاريخ، وأتذكر فكاهة طريفة إليك إياها: كان في دار العلوم لنووة العلماء طالب مسمى بعبد العزيز، وهو حتى الآن حي بحمد الله وفضله. يحترف الزراعة في وطنه هذه الأيام، وكان أثناء دراسته في دار العلوم اتباع كرسي وطولة قليمين يجلس على الأول ليكتب المقالات محاكاة لطريقة العلامة شبلي، ولكنه إذا راجع مقالاته العلامة شبلي أشار عليه ألا يفعل، فإن كتابة المقالة ليست فريضة أو واجبا كتب على المرء، ولا تنفق طبيعته وهنا العمل، فيس وترك الكتابة. كيف الظن بك؟ البلدة (أعظم جراه) التي نبغت فيها عبقرية الشيخ عبد السلام النلوي وخلفت آثارا قيمة لم يستطع أن يكون أحد أماليها - عبد العزيز - أن يكون قادرا ولو على كتابة مقال واحد. إذا تصفحنا الأمر تبين

أن العلامة شبلي كان يحمل في طيه ملكة انتبه لموهبة الإنسان وجوهره الحقيقي. لما قدم دار العلوم لندوة العلماء التفت حوله جماعة من طلبتها، ليس السيد سليمان فحسب، وإنما تكونت جماعة حازت قصب السبق في مجال الكتابة. تشر مقالات بعضهم في مجلة "الندوة" وتقرأ بغاية من الشوق والرغبة وينظر إليها بنظرة الإعجاب والتقدير.

وكانت تتعد جلسة عامة في منزل العلامة شبلي يتراوح وقتها بين العصر والمغرب، يحضر فيها طلبة دار العلوم وغيرهم، ويحلولي أن أسمى منهم عبد الماجد علامة اليوم وطالب الفلسفة في إحدى سنوات البكالوريوس بالأمس، وصنوه الأكبر عبد المجيد رحمهما الله تعالى، وكان العلامة شبلي يتزل الطلبة منزلة أبنائه بل يحبهم أكثر منهم، وأتذكر فكاهة وهي أن بعض الناس أخبروا العلامة شبلي بأن ابنه الوحيد (حامد) قد فاز بكأس أو جائزة في مباراة كرة القدم، فقال العلامة شبلي على الفور: ما هذا من شأن ابن شبلي وإنما هو صنيع أبناء الجهال. يمكننا أن نفهم من خلال هذه القصة النظرة التي ينظر بها إلى تلامذته وأبنائه، وإذا نظر إلى أحدهم نظرة الوالد إلى ابنه عامل معاملة الأول إلى الثاني، ولم يكن يدخر أي وسع في تكوين شخصيته وترقية المواهب للمكونة في نفسه، ويشهد بهذا قصة كاتب هذه الأسطر^{٤٤}.

ويدل على العلاقة الوثيقة التي توطدت بين الشيخ عبد الباري وأستاذه شبلي الرسائل التي كتبها إليه العلامة وهي مملوغة بالحب والشفقة، وفي التالي قطعة من الرسالة التي كتبها إليه في ١٠ من يونيو سنة ١٩١٣م "أيها العزيز! لم يبق من حياتي إلا أيام أو شهور لا يتجاوز عددها رؤوس الأصابع، ولم يبق منها إلا كما يبقى في المصباح الموشك على الانطفاء من الزيت، تخاف أن تهب عليه ربح أو تبث الشمس أشعته فتطفئه إلى الأبد. عليك أن تشعر بالمسئوليات التي كادت أن تقع على عاتقك، فليس لك بد من أن تتولاها كارهاً نفسك. أما أنا فإنني أعنم

^{٤٤} "سركرشت" (المحريات) للشيخ عبد الباري الندوي (ملحق كتابه "الدين و العلوم" ص:

بما أنا فيه وما يوجد في من نقیصة أو محملة، وأعرف الناس بما يشينني وما يزينني، فإن "صاحب البيت أدرى بما فيه" و "المرء أعرف بنفسه" وبالرغم من هذا كله لم أزل أشعر بأن إشاعة النوق الصحيح هي إحدى للمسؤوليات التي تقع علي^{٤٥}

ولاحظوا نموذجاً من الرسالة التي كتبها إليه في ١٦ من أكتوبر سنة ١٩١٤م: "إنني بئست من وقع اليوم حتى لا يرتاح قلبي لأبي أمر ولو بلغ حد الإعجاب".
أبواه:

أبوه الدكتور عبد الخالق البار بنكوي أحد الصوفية والأولياء، وأما أمه صديقة (اسمها صديقة النساء، وتدعى بـ "صديقة") فكانت متينة الخلق، طيبة السيرة، كريمة النفس، وصاحبة الخصال الحميدة، كلاهما من أسرة واحدة، وهي أسرة أنصار المدينة.

يقول الحافظ أحمد الباري: يتصل نسبه بالعلماء الأنصارين من فرنكي محل في الأصول العليا وينتهي نسبه هذا إلى الحي الذي قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: الأنصار شعار والناس دثار".

وقال الشيخ أبو الحسن علي النلوي رحمه الله موجهها خطابه إلى جمع حاشد من الناس: "وتعريفه الموجز أنه أحد أعضاء أسرة أنصارية صلحة، تنتمي إلى "كلية" بمليرية باره بنكي".

ويقول الشيخ الدكتور عبد الله عباس النلوي الكاتب الضليع والأديب الأريب الذي نال شهرة فائقة بروعته أسلوبه واختيار الألفاظ الجزلة والتراكيب السهلة الواقعة من النفس موقع الأمثال وفنادة طريقتة في التدريس: "إنه نشأ وترعرع في أسرة ثرية، جامعة بين وجاهة الدنيا وثروة الآخرة، سعيدة بنعماء العاجلة وسراء الآجلة. ولد سنة ١٣٠٧هـ. كان أبوه الدكتور

^{٤٥} ليراجع: مكاتيب شبلي / رتبها الشيخ السيد سليمان الندوي، طبعة دار المصنفين، أعظم جراد.

عبد الخالق رحمه الله تعالى تلميذا لشيخ عصره العلامة محمد نعيم الفرنكي محلي حفيد الشيخ للملا نظام الدين السهالوي مؤسس الدرس النظامي، وأما أمه فكانت من أئمة الناس وأورعهم لله، راسخة في الدين. ويقول الشيخ عبد الباري الندوي في سيرة حياته الذاتية:

"كانت أسرتي ثرية، لم يكن يقض مضجعها شظف الحياة وضحكها، وقلة للمال وعسره. وبالرغم من وفرة المال في أسرتي كان أبوي متدينين، حظيا بحظ وافر من الدين الصحيح، كلائب أهل عصره، ووالدي الكريم لم يكن مبايعا مجازا للشيخ الكامل العلامة محمد نعيم الفرنكي محلي فحسب وإنما كان أحب تلامذته إليه لمجاهلته الشاقة في منارج السلوك ولما قام به من خدمات جليلة. ولكنه مع ما حظي به عنده من مكانة سامية تطمح إليها الأبصار وتحرص عليها النفوس كان محبا للخمول واستار حاله، ولم يكن يجب أن يرى أو يحدث ذلك لدى غيره ولا يريد أن ينكشف لهم، حتى إن حفيد شيخه الشيخ محمد أسلم حينما أتى إلي من وطنه "كديا" من مديرية باره بنكي، تأينا لوفاة والدي الكريم فجعل يقول: أفضي إليك اليوم بسر عظيم: "لما ألقيت نظرة على فهرس أسماء مجازيه وتلامذته بعد وفاة جدي فوجدت فيها اسم والدك الكريم فقلت له: أنت أحد تلامذته ومجازيه. فوضع يده على منكبي وقال لي بلهجة للتناجي: أسألك ألا تقشيه أمام غيرك". وكان هنا أمرا لم يجل بخاطري قط، ولم يعلم به أحد تلامذته، وكل ما كنت علمته في ذلك أن شيخه نعيم الفرنكي محلي كان لقنه بعض الأوراد. وإذا أردت أن تشبه لتدين والدي فحسبك قصة واحدة في هذا الصدد: رجعت إلى وطني في الإجازة السنوية خلال توظيفي في مدينة "بونه" وكت لا أؤدي إلا الصلوات المكتوبة، غير مكثرت لما أترك من السنن القبلية أو اليعدية إذ انقلب الوضع ظهرا لبطن، وإن كنت لا أتذكر هذه الساعة السبب الذي آل إلى ذلك، وكل ما أتذكر أنه لم يمض إلا أسبوع أو أسبوعان من أيام إجازتي حتى بدأت أؤدي الصلوات للسنونة أيضا، وذات يوم جاءت إلي والدي تبكي وهي تقول: ما بالك انقلب حالك تماما. كنت لا تصلي المفروضة كاملة قبل اليوم فكنت أدعو

الله سبحانه لك تضرعا وخفية عقب كل صلاة، وأشكر الله سبحانه على ما وفقك لأداء الصلاة كاملة. ولا إغراق إذا قلت إن شأبيب بركاته وفيوضه بدأت تنصب علي قبل أن يظهر وجودي على منصة العالم للمادي مصداقا لقول الشاعر (أكبر الإله أبادي): "المرء لا يزيد دينا وإيمانا إلا إذا لازم صحبة أولياء الله سبحانه، وترى تحت رعايتهم". ولما منحنت أمي وحن وقت مولدي ذهب والذي إلى شيخه وقال له: أوشكت ساعة الولادة. فقال له شيخه: سيولد الذكر إن شاء الله، وسأله أن يسميه فقال: "أكمل خالق باري".

ولما حان وقت البسملة جاءت بي أمي إلى حضرة الشيخ نعيم الفرنكي محلي وكانت تلميذة له، ومعها شئ من الحلوى، فوضهته أمام الشيخ، فأخذني الشيخ في حجره وألقى شطر الحلوى، نصفه في فيه ونصفه الآخر في في، ثم دخلت في إحدى كتابتي ولي بـ "سترك" وكان أستاذاً لوالدي أيضاً، وكان ولياً من أولياء الله ظاهراً وباطناً. وعلم من ذلك أن والدي الفقيد لم يزل يهمله جاني الدين واهتم بالألا يكون الأستاذ معلماً كنايةا فحسب وإنما ينبغي أن يكون رجلاً صالحاً أيضاً^{٤٦}

ويقول الشيخ الدكتور عبد الله عيس الندي رحمه الله تعالى مشيراً إلى دور أبيه الذي مثله في نشأة الشيخ عبد الباري الندي: ورث الشيخ عبد الباري الندي وجاهة الدنيا وثروة الدين أبا عن جد، وقد منح النعمتين وهبا واكتسابا، أما ثروته الدنيوية فلا أدري إلى متى بقيت، ومتى قل قدرها، والظاهر أن الثراء الذي رآه في صباه وربيعان شبابه عسى أن لا يكون قد ظل باقيا بعد أن تم إلغاء الإقطاعية وقسمة الإرث ولكن الله أبطله بخير منه فعاش مطمئن البال، ثري للمال، خبير للمال، مسرور الحال. وبئر العاطفة الدنيوية الذي غرسه أبواه في سويلاء قلبه نبت، ثم أورك، ثم التفت فروعها وأغصانها، ثم أثمر حتى صار شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء^{٤٧}

^{٤٦} سرگزشت / للشيخ عبد الباري الندي.

^{٤٧} نقوش سوانح حضرت مولانا عبد الباري ندي (روائع من حياة الشيخ عبد الباري الندي).

ومما قدمنا من نصوص العلماء يمكن التوصل إلى خلفية أسرته والعاطفة الدينية التي امتزجت بدماء أبايهما امتزاج الماء باللبن. كما أن القصة التالية تجدر بالذكر لإدراك عاطفتها الدينية أن الشيخ عبد الباري الندوي حينما تخرج في دار العلوم لندوة العلماء وتشبع بالعلوم الدينية فكتب إلى أبيه أنه يريد أن يتعلم شيئاً من الإنجليزية فأجاب: إني قد أدت واجبي الذي كبه الله سبحانه علي. أما ما تريد الآن فليس بوسعي أن أشركك فيه، ولم يلبث أن حبس النفقة التي كان يرسلها وهذه العاطفة الدينية التي نراها في والديه قد ورثها عن مشيخة فرنكي محل الذين تطفل على مائلتكم وارتشف من منهلهم العذب الفياض، وهذه المدرسة (فرنكي محل) هي التي أنجبت رجلاً يجمع بين جانبي العلم والقيادة الملية، ألا وهو الشيخ عبد الباري الفرنكي محلي الذي تولى قيادة المسلمين في كفاح تحرير الهند ضد الإنجليز، وقام بتأسيس "جمعية العلماء".

هنا، وإن أباه وإن حبس نفقته ولكنه لم ينهه عن تعلم اللغة الإنجليزية التي دفعته إلى تعلمها أوضاع عصره فإنه لم يكن لأحد بد من إتقانها إذا أراد أن يشاهد من أين يدس أعداء الإسلام تشكيكات وكيف يسرون في الجسم الإسلامي لبث الجرائم فيه وتسميمه من كل جانب، فهياً له العلامة الشبلي رجلاً تولى الإنفاق عليه فلم يلبث أن صار مؤهلاً لأن يقوم بخدمة الإسلام به.

وظل بهم والده كيف يصلح باطنه ويتلبن وكيف يقوم ذلك على الخط للمستقيم فلم يزل يزور أشياخ وأولياء عصره وإن كان خليفة شيخه الأول، وقد كتب الشيخ زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى (ت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) رسالة إلى الشيخ عبد الباري الندوي ترشدنا إلى أن والده الدكتور عبد الخالق اتصل بالشيخ أشرف علي التهانوي مكتابة بعد أن توفي شيخه محمد نعيم الفرنكي محلي رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

الباب الثاني

حياته

مولده ونشأته:

خلف الدكتور عبد الخالق وراعه سبعة أولاد، بتين وخمسة بنين، وكان الشيخ عبد الباري الندوي أكبر إخوته وأخواته. أما الأربعة البواقي من إخوته فأكبرهم محمد شعيب بعد الشيخ عبد الباري، ثم سعد الدين الندوي^{٤٨}، ثم طيب، وأصغرهم محمد شعيب (سُمي أخيه

^{٤٨} كان الشيخ سعد الدين الندوي أوسط إخوته وأحبهم إلى أخيه الأكبر الشيخ عبد الباري الندوي. التحق بدار العلوم لندوة العلماء سنة ١٩١١ء ولم يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة، و تخرج سنة ١٩٢٠م بالغاً عمره عشرين عاماً، ثم شد رحله إلى مصر حيث التحق بالجامع الأزهر، ودرس هناك بغاية من الجِدِّ والجهْد، فلما رجع اتصل بالجامعة المليَّة الإسلاميَّة، دُعي الجديدة، و بذل أقصى ما في وسعه، و ضحى بنفسه ونفيسه لثقافتها، ولم يكن يكثر في ذلك بأي شيء حتى طعامه و شرابه، ولا يبالي أكل أم لم يأكل، ولا يفكر نام طاوياً بطنه أو شعبان، وكان الساعد الأيمن للدكتور ذاكر حسين (شيخ الجامعة و رئيس جمهورية الهند). كان الشيخ سعد الدين أدبياً قديراً موهوباً، و كان يحب أمه حياً كما يحب حتى لما حج البيت، دعا الله سبحانه لها ملتزماً بغلافه: "اللهم! أدم لنا بقاها" فاستجاب الله له حيث توفي و بقيت أمه حية و هزت وفاته الشيخ عبد الباري الندوي وحزن عليه حزناً شديداً. يقول الحافظ أحمد الباري: "لم أر والدي يبكي على أحد ذلك البكاء الذي بكاه إثر وفاة الشيخ سعد الدين و الدكتور السيد عبد العلي الحسيني (رئيس ندوة العلماء الأسبق)".

الكبير).

كان الشيخ عبد الباري الندوي من مواليد مديرية باره بنكي (قرب لكناؤ) وتاريخ ميلاده ١٤ من ذي الحجة سنة ١٣٠٦هـ المصادف ١١ من سبتمبر سنة ١٨٨٩م وقام بتحنيكه الشيخ الأجل محمد نعيم الفرنكي محلي (شيخ والده)^{٤٩}

يقول الشيخ عبد الباري الندوي: "أخذني الشيخ المرشد في حجره وألقى شطر الحلوى في فيه وشطره الآخر في في، ثم دخلت في إحدى كتاتيب ولي بسترک، وكان أستاذا لوالدي أيضا، ووليا من أولياء الله ظاهرا وباطنا، وعلم من ذلك أن والدي الفقيه لم يزل يهمله جانبي الديني، واهتم بالألا يكون أستاذا كتابيا فحسب وإنما ينبغي أن يكون رجلا صالحا أيضا"^{٥٠}

ويقول الدكتور نعيم الصديقي الندوي، دار المصنفين أعظم جراه: "وطنه الحقيقي أميتهي بمديرية لكناؤ، ومن أعضاء أسرته من توطن قرية سترك. وكان أخ والده الدكتور أمجد علي من أشهر أطباء تلك المنطقة، وبفضل شهرته عين والده الدكتور عبد الخالق طيبيا حكوميا في قرية كدية من مديرية باره بنكي، ولد فيها سنة ١٨٨٩م، وأخذ العلم البدائي من الشيخ محمد أويس النغرامي، ثم التحق بندوة العلماء سنة ١٩٠٢م، وسبقه العلامة السيد سليمان الندوي بعام واحد، وسرعان ما توطدت الصداقة بينهما، وتوثقت عراها بتلمذهما على العلامة شبلي، ودامت هذه الصداقة على أساس الإخلاص والوفاء حتى الممات.

^{٤٩} التحنيك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يدل على ذلك غير واحد من الأحاديث الصحيحة، وتتم هذه السنة بالتمرة، فإن لم تكن فيغيرها من الحلوى. الأفضل أن يحك أحد أولياء الله، ولا بأس في أن يفعل ذلك غيرهم.

^{٥٠} سرگزشت للشيخ عبد الباري الندوي.

في حضرة الشيخ محمد إدريس النغرامي:

دخل في دار العلوم لندوة العلماء ولكنه أرسل إلى نغرام (لكناؤ) بعد قليل من الوقت حيث كان الشيخ إدريس النغرامي يتولى منصب التدريس، وإليكم حديث ما انتفع به لدى الشيخ إدريس النغرامي في مجال العلم والدين خلال دراسته فيها بلسانه: "أقمت بنغرام لأقل من عام واحد مصداقا لقول الشاعر أكبر الإله آبادي: المرء يزيد ديناً وإيماناً إذا لازم صحبة أولياء الله سبحانه وعاش في كنفهم". لم أنتفع بزيارته وصحبته ديناً فحسب وإنما انتفعت به في مجال العلم أيضاً، وحينما كنت راجعا من ندوة العلماء لم أكن أقدر على قراءة شيء، ولكنني لما التحقت بعد ملازمة صحبته بندوة العلماء مرة ثانية في عهد العلامة شبلي فصرت مؤهلا لأن يرضى المدير وأساتذة الدار بإلحاقني في أعلى صف مما كنت دارسا فيه من قبل ٥١.

في دار العلوم ندوة العلماء:

ابتدأت ندوة العلماء كحركة علمية سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣م) وعين الشيخ السيد محمد علي الكانوري ثم لئونكيري أول رئيس لها، وبعد خمس سنين افتتحت دار العلوم، سنة ١٣١٦هـ، وهي مدرسة تابعة لندوة العلماء، ومن اشتركوا في مناسبة الافتتاح الشيخ عين القضاء رحمه الله تعالى، وإمام أهل السنة الشيخ عبد الشكور الفاروقي، وكان الأخير من أساتذة الدار الأربعة الذين قاموا بزيادة التدريس فيها، ولم ينف الشيخ عبد الباري على عشر سنوات آنذاك، وبعد مدة التحق بدار العلوم التي كانت تقع في خاتون منزل، كوله كنج، وسط لكناؤ وكان العلامة السيد سليمان الندوي دارس السنة الأولى من العالية (وهي أولى سنوات دار العلوم) وأما عبد الباري فكان أدنى منه سنوات، وكان للعلامة شبلي صيت ذائع في أرجاء العالم، وكان هو للشرف على طلبة دار العلوم مع عمله رئيسا لشؤون التعليم في ندوة العلماء، وكان طلابها مولعين به ولعا تغنيه إشارة واحلة عن الأمر بشيء، وكان لا يألو جهدا في تأهيل

^{٥١} بزم اشرف كى جراغ للبروفيسور أحمد سعيد ص: ٢٧١، طبعة مصباح اكاديمي، الجامعة الأشرفية،

الطلاب للتكلم والكتابة، وصرفهم عن الفكر المخلود إلى غير المتاهي منه، وتوجيه أذهانهم إلى التفكير على المستوى العالمي، وبث حيلماهم التي يقومون بها في مجالي الدين والعلم على النطاق الدولي، وكان الطلاب متأثرين به إلى حد أن ذوقهم وميلهم هما نفس الذوق والميل الذين نشاهدهما في نفس العلامة شبلي، والشيخ عبد الباري نفسه يقول: "وكان ذوق العلامة شبلي ممتزجا بدماء الطلبة امتزاجا شغلهم عن كل شئ إلى الدراسة، ورغبتهم إلى الخطابة والكتابة والتصنيف، والعجب أن أحد تلاميذه اشترى طاولة وكرسيًا طويلين من النحاس، وبدأ يتمرن على الكتابة بهذه الطاولة والكرسي^{٥٢}

حينئذ إلى إتقان اللغة الإنجليزية والتضلع من الفلسفة الجديدة:

لما تخرج الشيخ عبد الباري في دار العلوم لنوة العلماء، وأتقن اللغة العربية ونال العلوم الدينية أولى الإنجليزية عنايته البالغة، والسبب الذي أدى إلى ذلك أنه أراد أن يفند دلائل الفلسفة الجديدة، ويدحض حججها، وذلك يقتضي تعلمها إلى حد النبوغ. وقصة إقباله على العلوم العقلية وشغفه بما أن شبلي دعا دكتور العلوم العقلية الشيخ شير علي من حيدرآباد (دكن) إلى نوة العلماء، وعين القاضي تلمذ حسين أستاذًا للإنجليزية، فاتصل بهما، وجعل يأخذ عنهما العلمين معا بغاية من الرغبة والاهتمام، فكره ذلك أبوه الدكتور عبد الخالق، وحبس النفقة التي كان يرسلها إليه، فلما اطلع على ذلك العلامة شبلي أجرى له خمس عشرة روية شهريا، ثم ذهب إلى كشمير لينال المزيد من الدراسات، وكان يعجب العلامة شبلي اهتمامه ورغبته هذه، فكان يشجعه ساعة فساعة ويساعده، ويقول العلامة شبلي في رسالة كتبها إليه: "بارك الله تعالى في عزمك ووقفك الاستقلال في همك"^{٥٣}

ووجه شبلي رسالة إلى الشيخ مسعود علي النلوي في ٤ من نوفمبر سنة ١٩١٣م

^{٥٢} بزم اشرف كى جراغ، ص: ٢٧٢.

^{٥٣} مكاتيب شبلي ص: ١٥٦.

وخص فيها الشيخ عبد الباري بالذكر لما قام به من خدمات جليلة، وأما رسائله التي كتبها إلى الشيخ عبد الباري فيترشح منها أنه لم يكن حبه إياه وصلته به إلا لمؤهلاته ومواهبه العلمية التي لم يستغرق تملكه عليها إلا مدة لا يعتد بها. يذكر الشيخ عبد الباري قصة إتقانه اللغة الإنجليزية والفلسفة الجديدة:

"وكنت أميل إلى العلوم العقلية أكثر مني إلى العلوم النقلية، هنا وقد دعا العلامة شبلي الشيخ شير علي نابغة عصره في العلوم العقلية من حيدرآباد إلى ندوة العلماء، وكانت المقررات الدراسية قد طرأها حنوف وزادات، فلما جاء الشيخ إلى الندوة زدت شغفا وإقبالا على العلوم العقلية، وكانت الجلات والجرائد العربية الصادرة من مصر ترسل إلى ندوة العلماء في عهد العلامة شبلي، منها مجلة "المقتطف" وكان مديرها أحد المسيحيين، تحتوي معظمها على مقالات تتعلق بالفلسفة الجديدة والعلوم، وكت ولوعا بهذه المجلة بل إنها تسببت لأن أعزم على أن أتعلم اللغة الإنجليزية بنفسى للعثور على العقليات ولكن عندما كشفت ذلك لأبي فأبى أن يفتق علي، وفي جانب آخر بدأ العلامة شبلي قسما للإنجليزية كان يشتمل أولا على ثلاثة أو أربعة أساندة، وكان القاضي تلمذ حسين رئيسا له فأمره العلامة هو والشيخ دين محمد بأن يدرسي كلاهما درسا للإنكليزية كل يوم، وفي خلال ذلك توطلت بيني وبين الشيخ عبد الماجد النبريادي الذي كان طالبا للفلسفة الجديدة صلة وثيقة وكت أقرأ عليه كتابا في علم النفس. فصرت أعود نفسى أن أدرس كتب الفلسفة البلائية بنفسى اعتمادا على القاموس حلا للمعضلات أو الكلمات الصعبة. وأما النفقة التي حبسها والذي فهياً العلامة لها بديلا صالحا حيث إنه كتب إلى آفتاب أحمد أمين مؤتمر المسلمين التعليمي فأجرى خمس عشرة روية شهريا من قبل المؤتمر المذكور أعلاه، وكت بوؤ أن أحضر محاضرات الفلسفة في كلية علي جراه وأنفع بها قدرما وفقني الله ولكن مديرها الإنكليزي لم يرخص بذلك رغم توصية أمين الكلية الثواب وقار الملك الفقيد بذلك. ومهما يكن من شئى فإنني كت مطمئن البال لما كت أنال

من نفقة تكفي طول الشهر فأزمت على أن أؤدي الامتحان الشخصي - الذي يسمى اليوم بـ "Entrance"، وكان من المبرر الالتحاق بالكلية بعد أدائه - وخلال هذه الفترة تقلد الشيخ مقبول حسين القلثاوي صاحب منطقة كديا حيث كان أبي يشتغل طبيا في مستوصفه منصب وزير الاقتصاد فكتب إليه: "إن والدي لا يجب أن أتعلم الإنجليزية ولا يريد أن ينفق علي في هذا الصدد. أما النفقة فقد هيأها العلامة شبلي إشفاقا علي، وذلك خمس عشرة روية. أنت وزير الاقتصاد في ولاية كشمير، لا بد من أن يكون متزكيا واسعا جدا، فلو سمحتني بالإقامة في ركن من أركانه فسأكون مؤهلا لأن أؤدي الامتحان الشخصي للإنجليزية متمتعا بجوها الطيب ومناظرها الرائعة، وذلك يمهّد لي السبيل إلى التحاق بالكلية، فكتب إلي ردا على رسالتي هذه بعناية من الشفقة: "كيف يمكن أن تسكن معي وتأكّل في بيت غيري. لا، كلا إنك تسكن وتأكّل معي، تعال ولا تتأخّر، وعش كما يتعاش الأقراب". ولم يكن لي ميل إلى علم الحساب، فأديت امتحانه طوعا وكرها خوفا من أن أسقط فيه، فوقع ما كنت أخافه، فرجعت إلى الوطن، ولم يكن هنا أي سبيل إلى أداء الامتحان الشخصي إلا أن يكون للمرشح خبرة في تدريس مدرسة عصرية لمدة سنة واحدة على الأقل، وكان من حسن حظي أن وجدت عبد العزيز أحد تلامذة العلامة شبلي يشغل منصب المفتش عن المدارس بفيض آباد، فكتب إليه العلامة الشبلي أن يلقاه سرعان ما يفعل، فلما قرأ المفتش الكتاب كتب من مكتبه كتابا إلى مدير المدرسة العالية، بسطان بور أن منصب المولوي فارغ حتى الآن فأعين عليه هذا المرشح، وتمهد ههنا السبيل إلى الاستعداد للامتحان أكثر من قبل حيث وجدت ههنا أساتذة علم الحساب فاستفدت منهم شيئا، وكان العلامة شبلي مشغولا آنذاك بتأليف "سيرة النبي" وتأسيس دار المصنفين معاً^{٥٤}، وخلال هذه الفترة غادرت وطن أستاذي للمشفق العلامة شبلي

^{٥٤} تدل كتابات شبلي على أن كان يود أن يجعل بيته وطنه مثل ما هي في ندوة العلماء بتأسيس دار المصنفين.

من سلطانبور لأزوره، فزلت ضيفا له ليومين أو ثلاثة أيام، ورأيت أثناء الملة أنه لايركز فكره وذمته إلا على تأليف "سيرة النبي" وتأسيس دار المصنفين، وكانت هذه آخر زيارتي له، فلما تم لي ما أردته ورجعت إلى سلطانبور حانت وفاة الأستاذ العلامة شبلي قبل أن أفرغ أنا من أداء الامتحان الشخصي.

وفاة العلامة شبلي النعماني:

وكانت وفاة العلامة شبلي من أعظم عوادي الدهر، ولم يكن أقل من صاعقة نزلت من السماء على سائر أستاذتكم وتلامنكم فتأثر بذلك كل من كان يحمل بين جنبيه قلبا خفاقا وفي نفسه شعورا من أبناء هذه الأمة. إن ما وهبه الله سبحانه من مواهب لا يستهان بما في بحال العلم والبحث وخدمة الدين وأهله قل أن نراها مجتمعمة في نسمة واحدة، وبدنا للشيخ عبد الباري أنه فقد أحد أعضاء أسرته.

في كلية دكن، بونا:

وكانت العلامة شبلي أمنية عظيمة وآخرة من سائر أمانيه أن يبلغ تأليف "سيرة النبي" إلى نمائته وتمامه، وكان يشعر نظراً إلى مرضه وزوال صحته وأعداره بأنه من الصعب أن يتهي من هذا العمل الجليل، فرأى أن يفوضه إلى من هو مؤهل له من بين تلامنته. ومن يستطيع أن يكون للمؤهل لهذا غير الشيخ السيد سليمان الندوي والشيخ حميد الدين الفراهي، فأوصاهما بذلك. أما الشيخ السيد سليمان الندوي فكان يشغل منصب التدريس والبحث في كلية دكن، بونا من أشهر معاهد التعليم في الهند، وكان يحصل على راتب لا بأس به، ويشار إليه بالأناهل بعلمه ونبوغه، وينظر إليه بعين الإعجاب والتقدير لما حظي به من حظ وافر من العلم.

فلما وصلت إليه وصية أستاذه هذه ترك الجاه واللأل و غادر إلى دار المصنفين، أعظم جراه اقتناعا براتب زهيد، تحقيقا لأمنية أستاذه الجليل وإسهاما في عمله الميمون، ولكن قدم بين يدي رئيس القسم البورفيسور الشيخ عبد القادر اسم الشيخ عبد الباري الندوي الذي تمت

للموافقة عليه بدون أي تأخر. يقول الشيخ عبد البارى الندوي: "لما أقام الشيخ السيد سليمان الندوي في أعظم جراه بصورة دائمة فعرض اسمي لأتولى منصبه في كلية دكن، ونال الشيخ موافقة المدير لم ايف بين على اسمي دون طلبات حاملي شهادة الماجستير في اللغة الفارسية، ضاغطا عليه بما يتولى من منصب رئاسة القسم، وبلغني الاطلاع على الموافقة، وكنت بلكنائز ذلك الوقت، فتون أداء الامتحان الشخصي صرت محاضرا مساعدا بقسم اللغة الفارسية بكلية دكن، أشهر كليات ممباىء.

ثقة البروفيسور عبد القادر والمدير بين:

إن الشيخ عبد البارى الندوي يقدر مأسدى إليه الشيخ السر عبد القادر من بر إحسان وأولاه من عنايات بالغة وألطف كريمة وما هيا له من فرص سانحة للانغماس في الدراسة والمطالعة، وقد ذكر عطفاته هذه بصدر رحيب وقلب جواد: "ومما وجدت من أروع فرص للدراسة والمطالعة كان في كلية دكن، وللشيخ البروفيسور عبد القادر والمدير ايف. دبليو. بين أعظم دور في هذا الصدد، فقد تغملاني برعايتهم وألطفهم الكريمة. أما الشيخ البروفيسور عبد القادر فرغم أنه كان رئيس القسم كان يشرف منزلي بقدمه اليمون ويقول لي: "ما تأمرني أن أفعل الآن". وأما المدير ايف. دبليو. بين فيمكننا أن نقدر أطفاه من خلال القصة التالية: ذات مرة أردت أن أسافر إلى ممباي لحاجة فذهبت إلى مكتبه وقلت له: أريد إجازة ليومين، فقال: فماذا ترجو أن أفعل، ثم أوأأ بيده أن أجلس على الكرسي، فلما فعلت قال لي: إنني لا أرى في أصحابي إلا جندلرتهم وتتهمهم، وأمانتهم في عملهم، ذلك حسبي. وأما غير ذلك من إجراءات مكنتية فأهرب من ذلك فقلت له: فإلى من أقصد إذا احتجت إلى إجازة. فقال: لا حاجة إلى ذلك. حسبك أن تكذب على لوحة الاطلاع أنك لا تحضر يوم كنا أو لا تحاضر ساعة كنا، وذلك تسهلا لطلبة الكلية".

تورطه في الخن ونقله إلى كلية غجرات، أحمد آباد:

ولما رأى الخاقنون ما كان يتمتع به الشيخ عبد الباري في كلية دكن، بونا من مكانة سامية، وعز طيب، وصيت ذائع، وثقة لا تفك عراها فصاعدت نشاطاتهم، وجعلوا يتخنون أحدث الحيل وأبدعها لعزله من كل ما كان يتمتع به. واعترف الشيخ أبو الحسن علي الندوي في كتابه "براني چراغ" (١١٧:٢). بما أكرم الشيخ عبد الباري به من مقدرة عظيمة وبما بذل من مجهودات جبارة في أداء واجباته خاصة في التدريس. يقول العلامة الندوي: "كان الشيخ عبد الباري نموذجاً حياً لهذا اللبأ الذي لا مناص من الاعتراف به أن الجهد المتواصل، والمقدرة العلمية والفظانة، كل ذلك مفتاح النجاح والتقدم. والجدير بالذكر أنه لم يكن يحمل أي شهادة سوى تخرجه في النوة، حتى الإنجليزية تعلمها بنفسه، ولم يتعلمها إلا قسراً ما كان يحتاج إليه، ولكنه بفضل فطنته ومقدرته عين محاضراً للغة الفارسية بكلية دكن، بونا، التي حظيت بشهرة فائقة في جنوب الهند، بل في البلاد كلها، وبدأ يلقي محاضراته بالإنجليزية مكان الفارسية أو الأردية، ويقدم بين يدي تلاميذه كتابه المليء بالرموز الخفية والتلميحات الرائعة بعد حله بالإنجليزية، ونجحت خبرته هذه في البكالوريوس أيضاً، وغشيت جميع الطلبة موجة من الطمأنينة، حتى قال أحد فطناء التلاميذ ذات يوم: لو لبث أستاذنا هنا ههنا دائماً يكون خير أستاذ في [ولاية ممباي]".

ولم يكن في وسع أحد أن ينال من مكانة الشيخ عبد الباري الندوي ما دام البروفيسور عبد القادر والمدير بين في كلية دكن، بونا، ولكن الذين خلفوه وتولوا رئاسة الكلية بعده أراحوا النيل من مكانته. وإليك تفصيل ما حدث بلسان صاحبه:

"وتولى بعد الشيخ عبد القادر أحد الفارسيين المدعو بـ "هوم جي" رئاسة القسم، وكان لي معرفة بصديقه باقر علي، فقال لي ذات يوم: هوم جي يود أن يتعلم منك اللغة العربية، فرضيت. وبعد عدة أيام ذكرني بأن هوم جي يتظر لك في منزله. فقلت له: لماذا يتظر؟ قال:

يود أن تعلمه. وهو في منزله، فرددت عليه أنني موظف بهذه الكلية ولست خادماً له، وليعلم أن أدب المعلم شطر العلم وأصل الثقافة، فإن شاء أن يتعلم فليأتني. أما حضوري لديه فلا أراه يحلو لي ولا له، وكان ذلك آخر عهدي به في هذا الشأن، ولم يزل يخالفني أشد المخالفة ما دام رئيساً للقسم، ويطالب بأن يتم عزلي عن منصبه هذا. أما المدير بين (الذي كان مديراً للكلية حتى الآن) فإنه لما حان وقت تقاعده دعاني في مكتبه وأخرج حزمة ضخمة من الأوراق وقال لي: "هذه مجموعة الشكاوي التي كتبها إلي الرئيس هوم جي، وهو متصد لعزلك، ولكنني أحول دون ذلك، ولو لم أكن لتم عزلك، وأما أنا فقد رأيت فيك قلباً أميناً ونفساً مؤهلة، تؤدي كل مسئولية بكل أمانة واستعداد، واعلم أنه عسى أن يتم عزلك بعدي. فوقع ما تتبأ به فلم يمض إلا أسبوع حتى تم نقلي إلى كلية عجمرات، أحمدآباد." ويستمر الشيخ عبد الباري قائلاً:

"كنت أوجه ذات يوم محاضرة حسب العادة إذ جاء الخادم بشيء في اللقافة ففتحتها فإذا هي فهرسة طويلة، محشوة بأنواع من التهم والأراجيف، في مقدمتها:

"He is implicated in khilafat propaganda." (إنه أحد من أسهم في

حملة حركة الخلافة). ومما وجدت فيها أن مدير الكلية بين كان أحد المبشرين المسيحيين. وسألني: كيف صلتك بالسيد سليمان. فقلت له: إنه ظل زميلاً لي خلال طلب العلم، وصار أستاذاً لي بعد ما تولى التدريس. فقال: إنه ينهب ليسهم في حملة "حركة الخلافة" فقلت: فماذا أصنع؟ قال: إن الحكومة تريد أن لا يتولى أمثال هؤلاء الوظائف الحكومية، فلك فرصة شهر واحد، إما أن تؤكد بالابتعاد عن أمثال هؤلاء وإما أن تعزل. قلت: لا حاجة إلى مثل هذه الفرصة. الآن أطالب العزل، ثم لم ألبث أن خرجت من غرفته ورجعت إلى وطني، وكنت على أنني من أسرة متوسطة الثروة أتمتع من الوظائف حتى لم أشعر بعد ما تخليت عن المنصب بأي خسارة ولا نقص في ما كنت أملكه. وبعد ذلك لبثت في منزلي سنة واحدة، لم يزل يرسل أتباعها السيد سليمان الندوي رسائل إلي أن اتت دار المصنفين. لا وظيفة ههنا، كل من فيها حر

فيما يفعل، لا يتقيد بامثال أوامر أي رئيس ولا ينزل كما ينزل الأتباع والخدم".
إقامته بكلية غجرات، أحمد آباد وتأليف الكتاب "الدين والعلوم العقلية":

يقول سماحة الشيخ أبو الحسن علي النوي: "لم يزل مقيما بكلية غجرات، أحمد آباد لمدة طويلة بعد ما ترك كلية دكن، وخلال هذه الفترة بدأ يلقي محاضرات حول الموضوع "الدين والعقل" استجابة لاقتراح النواب الشيخ حبيب الرحمن نغان الشيرواني. ونشر المؤتمر هذه المحاضرات في صورة رسالة. كانت الفلسفة هي المادة التي يركز عليها جل عناياته، وخلال طلب العلم في ندوة العلماء أخذها من نوايها، في مقلتهم الشيخ السيد شير علي الخيلرآبادي الذي قرأ عليه كبا للفلسفة القديمة بغاية من الجهد والرغبة، ولما فرغ من دراسة الكتب الدراسية بدأ دراسة شاملة واعية حول هذا الموضوع، وزادت ملازمة العلامة شبلي رغبته في الفلسفة الجديدة وعلم الكلام، وأقن اللغة الإنجليزية إتقاناً أهله لمطالعة كتب الفلسفة من غير شعور بأي صعوبة فيها، فطالعها بتعمق وإمعان. ومن نعم الله عليه أنه أكرمه بذهن ثاقب ونظر دقيق مكنته للحقائق والدقائق، فتوصل إلى فحوى تلك الكتب واستبطن منها النتائج التي تتطلب جهدا مضنيا ونظرا دقيقا ودراسة وافية شاملة، فمن الله عليه بأنه يسر له التوصل إلى نتائجها مستعينا في ذلك بذوقه السليم ونظره الدقيق وصار من الميسور له وضع حدود الفلسفة والعقل، وتجلي له الفارق بين الفلسفة والعلوم الذي يشتهه أمره لا على عامة الناس فحسب بل على المثقفين أيضا، فإنهم يخلطون الخابل بالنايل. إن هنا الكتيب عصارة ما درس وطالع، وأعلى نموذج لسلامة طبعه وذوقه ودقة نظره وقوة مدركاته، وقد تم تعريبه بيد الشيخ واضح رشيد النوي أسماء "الدين والعلوم العقلية" وطبعته إحدى مطابع القاهرة، مصر.

ولما قرأه الشيخ أنشرف علي التهانوي رحمه الله قال مرتجلا: "الكتيب حصن حصين يعتصم به الدين". ووجهت بعض الأوساط العلمية بجيدرآباد الاعتراض و الطعن على إسناد رئاسة قسم الفلسفة بالجامعة العثمانية إلى رجل لم يحصل على أي شهادة فضلا عن شهادات

الفلسفة، واستحويت الشيخ حبيب الرحمن الشيرازي شيخ الجامعة فأرسل هنا الكتيب (الدين و العلوم العقلية) إلى الملك النظام قاتلا: "حسبه شهادة أن الفلسفة أسلمت يده، وسيتوصل معالي الملك إلى نفس هذه النتيجة إثر ملاحظة شيء من هذا الكتاب". فرضي الملك النظام وتم التوقيع على وثائق الإجراءات اللازمة لتوظيفه للنائب. ولما ألف كاتب هذه السطور مقالا على كتبه التي لا ينسى فضلها، فعد منها الكتاب المذكور أعلاه، وذكره كما يلي: "وقع نظري على كتاب للشيخ عبد الباري الندوي أسماءه "الدين والعلوم العقلية"، فأساغته العقل والنوق، وتوصلت منه إلى علم أساسي بقطعية علم الأنبياء والرسل عليهم السلام ودوام العلم الإنساني والتجربة البشرية وحدود المعقول والمنقول، وشذ ما رأيت مثل هذه الكتب، ثم قرأت ماتيسر لي من كتب الفلسفة القديمة والجديدة وتاريخها، ولكن لم يتدهور أسس هذا التصور الأساسي الذي توصلت إليه من خلال دراسة كتابه، بل الحق أنني مهما قرأت بعد ذلك، كان مفسرا لما مضى ومصدقا لقول الله عز وجل: "إن هم إلا يخرضون" و "كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله".

في الجامعة العثمانية، حيدرآباد:

كانت الجامعة العثمانية أهم معاهد حيدرآباد، الهند التي تأسست أول ماتأسست تحت مسمى "دار العلوم"، وشرفها صفوة رجال اللغات العربية و الأردية والفارسية بجلال خدامهم منذ أول يومها، ثم نالت درجة الجامعة بفضل جهودات الشيخ حميد الدين الفراهي والمولوي عبد الحق المعروف بـ "بابائ اردو"، وكان النواب عثمان علي خان نظام حيدرآباد يتحمل نفقاتها، فسميت باسمها. يقول المفتي ظفير الدين صاحب "حياة كيلاني": "وارتقت دار العلوم هذه إلى الدرجة الجامعية بفضل نشاطات الشيخ حميد الدين الفراهي وجهود المولوي عبد الحق وغيرهما من الناس واشتهرت باسم الجامعة العثمانية. وضع حجرها الأساسي في شهر أغسطس سنة ١٩١٩م، واقترح علي أن يسمى باسم النواب عثمان علي خان والي حيدرآباد".

وكان الشيخ حميد الدين الفراهي آخر مدرء دار العلوم يبحث دائما عن أصحاب استعداد جم وكفاة وافرة، ولما قدم الشيخ السيد مناظر أحسن كيلاني مدينة حيدرآباد توسمه نظره الثاقب، فلما رجع مرة إلى دار العلوم ديوبند حيث كان مدرسا، أشار عليه بعض شيوخه وأساتذته بأن يتصل بالجامعة العثمانية، فعمل بذلك واتصل بها. وكان اهتمام الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني بها ومساعدته الجميلة مثلت دوراً بارزاً في ترقية قسم اللغات الشرقية والدراسات الدينية الإسلامية. وكان للشيخ الشيرواني نفوذ عظيم على أهالي حيدرآباد ولم يتخلف قط في توظيف أولي الفضل والكمال في اللغات الشرقية والدراسات الدينية، وكان يؤثر أصحاب النبوغ والكمال على حاملي الشهادات، والشيخ عبد الباري الندوي أروع نموذج لذلك الذي لم يكن يحمل إلا شهادة دار العلوم لندوة العلماء، فدعاه النواب الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني إلى الجامعة العثمانية ثقة به ونظراً إلى نبوغه وكماله، وفوض إليه عمادة قسم الفلسفة، وكفاه شهادة له كتابه "الدين والعلم العقلية"، وبناء على هذا الكتاب أجرى له صدر الصلور للمملكة الآصفية (حيدرآباد) مائتي روبية شهريا لمدة سنتين، واشترط عليه بأن يكمل الكتاب الذي أراد تأليفه في علم الكلام. يقول الشيخ عبد الباري الندوي: "كادت تم ستة أشهر منذ وصلت إلى الجامعة العثمانية، حيدرآباد، إذ تلقيت ذات يوم كتابا فيه مأتا روبية وعليه توقيع صدر الصلور للمملكة واللكوب فيه أنه تجرى لك مائتا روبية شهريا لمدة سنتين وذلك لمحاضرات ألقيتها حول "الدين والعقل" ولتأليف كتاب مستقل في علم الكلام فلرجو منك أن تبدأ العمل، ثم إذا مست بك حاجة إلى المزيد من التوسعة في المدة فلا بأس، وسنهيئ لك مايسهل لك الأمر فيها. تلقيت هذا لللكوب وكنت متمتعا بصحة كاملة، مشغيا من حملات مرض التنفس المفجعة، وكان الشيخ الشيرواني يعودني غبا بين العصر والمغرب وذلك لعطفاته و أطفافه الخاصة بي. فقي مثل هذه الحالة كان من الصعب لي إلقاء محاضرة في الجامعة فضلا عن أن أتولى أي مسئولية أخرى فطلبت إجازة وقدمت لكتاؤو، وأخبر نظام حيدرآباد بأنه لم يتم

تعيينه طبقا للقانون".

"أسند الشيخ الشيرازي رئاسة قسم الفلسفة إلى رجل لم ينل أي شهادة فضلا عن شهادة للفلسفة". فلما استجوب نظام حيدرآباد الشيخ الشيرازي أرسل إليه كتابه "الدين والعلوم العقلية" ملحقا به رسالة مكتوبا فيها: وكفى به شهادة أن الفلسفة أسلمت بيده فلما بلغ نظام حيدرآباد ذلك فوض إليه رئاسة القسم المذكور أعلاه لمدة دائمة^{٥٥}.

وكتب الشيخ عبد الباري أنه مما أفضل عليه الشيخ الشيرازي رد المبالغ التي كان يتسلمها من قبله بإمضائه إلى نظام حيدرآباد راجيا أن يكمل العمل الذي فوض إليه تكميله ولكنه لم يستطع أن يفعل فردها إليه.

عاش الشيخ عبد الباري حياة العز والكرامة، وتمتع بمكانة سامية في الجامعة العثمانية تشرف لها الأعناق، وإليك تفصيل ذلك بلسان الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى:

ثبت الشيخ عبد الباري الندوي أمينا ناجحا في أداء واجباته في الجامعة العثمانية المعروفة في القارة الآسيوية جميعها بفضل أساتذتها النابغين وخريجيها الفضلاء. إنه لم يؤد واجباته بأمانة فحسب بل أثبت أن العلماء يسمون بالأنفة وعرفان النفس والسمو الخلقى والنهني. وكان يقول نفسه: "إن للمستر ميكرتي الذي كان يعمل مديرا للشؤون التعليم وتولى قبل ذلك إدارة الإرشاد الشعبي في أتراباديش، قدم مرة دار العلوم لندوة العلماء للمعاينة وكنت طالبا فيها آنذاك، وكان معروفا بنفاسته. إنه زار الجامعة ليعاينها، وكان يدخل في كل صف ويستمع إلى محاضرات أساتذتها، فلما رآه الشيخ عبد الباري قاصدا صفه قال لتلاميذه: أغلقوا الباب. قد أديت الامتحان في ندوة العلماء مرة ولا أريد أن أفعل ذلك مرة بعد أخرى فرجع المستر

^{٥٥} ليراجع لمزيد من التفصيل كتابه "الدين و العلوم" (مذهب اور سائنس) تحت عنوان "قصة نفسي بلسان" للشيخ عبد الباري الندوي.

ميكتري على عقبيه^{٥٦}

زيارته لشيخ عارف بالله:

كان الشيخ محمد حسين رحمه الله من أشهر وأكبر مشايخ دكن، وكان يشهد مجالسه كثير من المثقفين والصلحاء، في مقدمتهم العلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني، ويحضر معه الشيخ عبد الباري أيضا، بل يحمل غيره من الناس على حضور مجالسه، فزاره عديد من كبار العلماء والمثقفين كما اتصل به بعضهم اتصالا دائما^{٥٧}.

ويكتب المفتي ظفير الدين صاحب كتاب "حياة كيلاني" عن الشيخ محمد حسين: "كان الشيخ حسين ممثلا لحياة الشيخ محي الدين بن العربي وترجمانه عنه بلسانه وحاله". ويقول عن صلة الشيخ الكيلاني به: "ولما وصل الشيخ كيلاني ههنا حصلت له مناسبة تامة، ولم تمض إلا ملة قصيرة حتى حظي بخلافته^{٥٨}".

تلاؤم بينه وبين الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني:

ولا يخفى على أحد الانسجام الفكري والنوحي والتوافق العلمي الذي يتواجد بين الشيخ مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الباري النلوي. يقول الشيخ عبد الباري: "لم أكن أكيله وزميله فحسب بل كانت صداقتي مثلا يضرب به في مدينة حيدرآباد كلها"^{٥٩}

ويوضح جملته هذه مقال الشيخ أبو الحسن علي النلوي عن صداقتهما: "كان الشيخ عبد الباري مقيما بسوق الخضراوات المعروفة بـ"سيتا جل مندي"، قريبا من الجامعة

^{٥٦} براني جراغ: ١٩٢/٢.

^{٥٧} من أهمهم البروفيسور محمد الياس البرني، صار تلميذا للشيخ حسين ثم استجازاه وبايمه فصار خليفة له، ودون ملفوظاته وإفاداته.

^{٥٨} حيات كيلاني ص: ٢٥١.

^{٥٩} مجلة تعمير حيات، فبراير سنة ١٩٧٦ م.

العثمانية بمحيدآباد، وبها كان الشيخ مناظر أحسن الكيلاني والدكتور عثمان أحد أساتذة الجامعة العثمانية، وكل من هؤلاء بنوا بها مسجداً، ولوقوع المسجد في أقصى المدينة سماه الشيخ مناظر أحسن بـ "المسجد الأقصى". ولعل اسمه هنا كان إشارة إلى تاريخه أيضا. ولما سافرت سنة ١٩٤٦م إلى حيدرآباد لأول مرة لطباعة مصنف والذي "زهة الخواطر" - وسفري هنا قد تم بأمر من الشيخ مناظر أحسن الكيلاني - أقيمت في منزل الدكتور عثمان وأضافي الشيخ مناظر أحسن. أما الشيخ عبد الباري فكان قد تقاعد عن منصبه، ومن سوء حظي أنني لم أستطع أن أرى التقاء البحرين وقران السعديين الذي أحدث بيمة خاصة في سائر أنحاء حيدرآباد، ولكني زرت منزله الذي كان يسكن فيه، وكانت الألسنة تلهج بذكره الجميل، وذكره الطيبية الذكية كانت حية رطبة في أفئدة الناس، وكان تلامذته ورفقاءه يجالسه يقصون علينا كل ماشاهدوه بأمر أعينهم^{٦٠}.

مبايعته للسلوك وسفوره للحيح (سنة ١٩٢٨م):

وكان عام ١٩٢٨م عاما ميمونا للشيخ عبد الباري، فإنه كان هو وصنيقه الشيخ عبد الماجد الديرابادي في بحث مستمر عن شيخ يرشدهما فهذه المرة تشرفا بزيارة الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله، فأتاه في منزله بديوبند، فلم يدخر الشيخ أي وسع في إكرامهما، وتواضع لهما غاية التواضع، ثم ذهب بهما إلى تمانه بجون، وحملهما على مبايعة الشيخ أشرف علي التهانوي، وسأله ذلك، ولكن الشيخ التهانوي كان يعلم صلتها بالشيخ حسين أحمد المدني، فلم يستعد حتى اضطر الشيخ حسين إلى أن يمد يده لياياعاه ولكن ذلك لم يقلل من تواضعه مثقال ذرة، كما أقر بذلك الشيخ عبد الماجد الديرابادي في كتابه "حكيم الأمم نقوش و تأثرات". يقول الحافظ أحمد الباري راويا عن أبيه الشيخ عبد الباري:

"وبعدما بايعنا الشيخ المدني ضغطت تلك الليلة على أرجلنا لنستيقظ قائلاً: "قد حان وقت التهجد" وكان الشيخ عبد الباري كلما ذكر ذلك دمعت عيناه". ويحدث قصة أخرى راوياً عنه:

"وكانا نسافر مرة بالقطار مع الشيخ المدني فذهبنا إلى الحمام فإذا هو وسخ قذر، فرجعنا القهقري من غير أن نقضي حاجتنا، فشرع بذلك شيخنا المدني، فنهض بعد سويعات و نظف الحمام بنفسه ثم نخرج وقال: أما الآن فلا بأس. يمكنكم أن تقضوا حاجتكم فإنه الآن نظيف".

وأشار عليهما الشيخ المدني أن يرأس كلاهما الشيخ التهانوي لإصلاح نفسه، وهذا ما أدى إلى ولوعهما بالشيخ التهانوي، وكان غرامهما به شديداً إلى أن جعلنا نشر علومه نصب عيونهما. أما الشيخ عبد الباري فكان من شأنه أنه لم يزل يكتب إلى الشيخ التهانوي طيلة حياته، وانظر معاملة الشيخ التهانوي من معاملة عطف وشفقة كما يحكي الشيخ عبد الباري نفسه أنه مهما وجه إليه مكتوباً نشره الشيخ التهانوي في مجلة (النور)^{٦١}

يقول الشيخ عبد الباري نفسه: "إني وجهت إليه رسائل طويلة، وكتبت إليه أنني أكتب إليك رسائل طويلة، لا بد من أن تضيع أغلى ساعاتكم بها وتأذى بها نفسكم الكريمة، فكذب الشيخ التهانوي: "وهل يتأذى بشعر حبيبه الطويل أحد" و الشيخ عبد الباري قد جمع بين صلته بالشيخ المدني وبين صلته بالشيخ التهانوي - وكل منهما أسدى إليه معروفاً وقام بترتيبه وتركيبه - بغاية من الجودة. ابتدأت حاله من غرامه و ولوعه بالشيخ المدني وانتهت إلى ذكره غير مرة، وذكرت ذلك للشيخ أبي الحسن علي الندوي رحمه الله تعالى فقال: غلبته نسبة شيخه"^{٦٢}

^{٦١} كانت مجلة (النور) ترجمان زاويته بتيانه بمون.

^{٦٢} رواية عن المحافظ أحمد الباري.

أما قصة السفر إلى الحج فاجتمعت له ثلاث شخصيات - كل منها بحر علما و فضلا - وهي: الشيخ عبد الباري النبوي، والشيخ عبد الماجد الدرايبادي، و الشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمهم الله تعالى، وكان أحدهم يحنو حنو صاحبه ويتهيج تهيجه، سواء في العواطف والليول، والأفكار والآراء، والعلاقة، وقد يكون واحدهم تابعا حينا، ومتبوعا حينا آخر، وإن كان بين علمهم وفضالتهم تفاوت. وكان هنا شأنهم عند سفرهم إلى الحجاز. ينوي أحدهم فيتبعه الآخر فيعقد مثله عزمه على ابتغاء مرضات الله سبحانه، فهل كان من الممكن أن يعلم بذلك الثالث ثم يتخلف عن انتهاز هذه الفرصة السانحة، فرصة مصاحبة زملائه المتحلين نفسا وطبعاً، للتلاميذ فكرا وخيالا، فخرجوا إلى أرض الحجاز المقدسة، و نفوسهم لا تريد إلا الحج، وقد ألف منهم اثنا كتابا حول رحلتهم إلى الحجاز، من انطباعات نشأت في نفوسهم و من مشاق كابدها. وكتاب كل منهما يرغب الناس إلى أداء هذه العبادة العظمى وعلوهم شوقا وحماسا تجاه الحج، ويجعلهم مطلعين على آداب و سنن الزيارة والقيام.

ألا وهما: "سفر حجاز" [الرحلة إلى الحجاز] للشيخ عبد الماجد الدرايبادي و "ديار نبوت مين حاضري" [زيارة البلاط النبوي] للشيخ مناظر أحسن الكيلاني، [وهو مجموعة انطباعاته].

ميناء ممبائ هي المبدأ الذي بدأوا به سفرهم لليمن هنا. وأول منزل نزلوه هو ميناء جدة، ثم غادروها إلى المدينة لأن الحج كان بعيدا منهم بشهر كامل حتى الآن، ولما وصلوا إلى المدينة نسي كل منهم نفسه ومن حوله وغشيتهم موجة من الحب النبوي حتى لم تكن تملؤهم إلا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم وجمتمعه.

أقاموا بالمدينة شهرا أو أكثر، ثم خرجوا إلى مكة في ٤ من شهر ذي الحجة، ووصلوا إليها على الليعاد، مهلين من ذي الحليفة، مهتمين بالسنن، ملتزمين بما في كل قول وعمل أعظم الالتزام، متمسكين بعلمهم، فأهل الشيخ الكيلاني قارنا، وأما الشيخان عبد الباري و عبد الماجد

فأحرم كلاهما للتمتع، ولو رأيناه خلال تلك الفترة لبلغت القلوب الحناجر، وما أجمل ما قال الشيخ الكيلاني:

"فجملت أصوات التلبية تنوى في كل صقع من أصقاع البلد، ولو قلنا لصقنا أن الصدور كادت تشق عن أفئلتها، والأرواح أوشكت أن تخرج من أجسامها، وكأن كل محرم يلهج لسانه بالنداء الذي خرج من لسان داؤد [يا جبال أوبي معه] ٢٣".

ساعة مع الشيخ الداعية محمد إلياس رحمة الله الكاندهلوي:

لم يزل قلب الشيخ عبد الباري متنورا بالعاطفة الدينية، وكانت هذه العاطفة و الوله والهمة الدينية تدفعه إلى العلماء الربانيين والأولياء والمصلحين من هذه الأمة مرة بعد أخرى، وقد ذكر الشيخ أبو الحسن علي الندوي العديد من مثل هذه الرجال التي لُحِلَّ للشيخ عبد الباري الندوي من منهلها وتطفل من مائدتها العلمية والروحية، وفي مقدمتها شخصية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس جماعة الدعوة والتبليغ. يقول الشيخ أبو الحسن في كتابه "براني جراغ":

"جاء الشيخ عبد الباري إلى حي نظام الدين (بلخي) على طلب مني، ثم ذهب مع الشيخ إلياس الكاندهلوي إلى بلدة ميوات، وشهد فيها إحدى حفلات جماعة التبليغ، ولما رجع منها عبر عن انطباعاته وما ألقت عليه شخصية الشيخ إلياس من تأثير بالغ بما يلي: "شعرت كأن قلبي أعجم، ليس عنده لسان ينطق به ويحدث به حاله، وكل ما سمعت الشيخ إلياس يقول، شعرت أنه كان كامنا في أعماق قلبي لأظهره بين يدي الناس، ولكن لم أستطع، فكان كل حديث له معبرا عما يجول بخلدني".

وأعظم منه ذلك الاعتراف الذي خرج صريحا من لسان الشيخ عبد الباري، وقد ذكره في كتابه الرائع: "تجديد تعليم وتبليغ" قائلا: "زرت الشيخ إلياس الكاندهلوي رحمه الله

تعالى في حي نظام الدين بلطي، والحفل السنوي لجماعة الدعوة والتبليغ كان من اللزوم عقده في اليوم التالي في بلدة "نوح" فأمرني الشيخ إلياس بأن أخرج معه لأشهد الحفل، فسعدت بمشاهدة الخدمات والنشاطات التي قام بها رجال الدعوة والتبليغ كما استغلت من الشيخ إلياس ثلاثة أيام.

وكان من المقرر أن أزور الشيخ أشرف علي التهانوي بزوايته في "كمانه بون"، فلما ذهبت لأودع الشيخ إلياس قال لي: "أقرئه مني السلام، وأخبره بالخدمات والنشاطات التي شاهدتها، واكتب إلي مايقول".

فلما زرته أخبرته بكل ماجرى وما شاهدت ابتداء من مسجد "بنكله والي" انتهاء إلى بلدة نوح بشيء من الإيجاز فقال: "هنا هو أهم الأعمال وأجلها".

رحلة دعوية مع الشيخ يوسف الكاندهلوي إلى رائى بريلي:

ولم تزل صلته بالشيخ يوسف خلف الشيخ إلياس وطيلة، وظلت إسهاماته ومساعداته مستمرة كما كانت من قبل ولا بأس فيما إذا نسبت كل ذلك إلى تأثيره بالشيخ إلياس وملازمته إياه أو إلى ما يوجد في قلبه من عاطفة دعوية جياشة ورغبة دينية قوية، ولذلك لما أزمع عقد حفل دعوي بمدينة لكانا وضواحيها (كرسي ورجيم آباد) وتقرر اشتراك كبار أصحاب الدعوة والتبليغ فيه، خاصة الشيخ زكريا الكاندهلوي والشيخ يوسف الكاندهلوي والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي والشيخ عبد القادر الرائي بوري - الشخصية التي نزلت من كل منهم منزلة شيخ ومرشد - وصل هؤلاء نفر السعداء إلى لكانا في شهر فبراير سنة ١٩٧٤م، ثم سافروا إلى رائى بريلي - البلدة التي يتتمي إليها الشيخ السيد أحمد الشهيد، وما مدفن الشيخ أبي الحسين النلوي - و معهم الشيخ عبد الباري إليها، وأوجز قصة هذه الرحلة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي في كتابه "سوانح حضرت مولانا عبد القادر رائى بوري" وابن أخته السيد محمد الثاني الحسيني في كتابه "سوانح حضرت مولانا يوسف

كاندهلوي" (سيرة الشيخ يوسف الكاندهلوي) ونذكر اقتباسا من الكتاب الثاني فيما يلي:

"جاء الشيخ عبد القادر الرائي بوري إلى لكاؤ، وكان معه الشيخ زكريا الكاندهلوي وجمع كبير، وأقام بدار الضيافة لدار العلوم لندوة العلماء، ثم سافر منها إلى بلدة راي بريلي، وأقام بها يوما كاملا وكان معه جمع كبير من العلماء وللشائخ والدعاة، ونسبوا منهم على عجل الشيخ زكريا الكاندهلوي، والشيخ يوسف الكاندهلوي، والشيخ بير هاشم جان الجملدي، والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوي، وللولوي ظهير الحسن الكاندهلوي، والسيد شفيع القرشي - نزيل راولبندي سابقا - والشيخ عبد الباري الندوي، والشيخ منظور النعماني. نزلت هذه الجماعة الميمونة على ضفة النهر المحاذية للمسجد الذي بناه جد الشيخ السيد أحمد الشهيد ثم دخلت زاوية الشاه علم الله عابرة النهر بالسفينة، وكان السفر تذكاريًا لكل منهم وغمر أهل البلدة ورفقة سفره موجة من السرور واللذة التي لم يزل يتلون بها ويتسمون بذكرها العطر الفائح، ثم رجعوا في اليوم التالي إلى لكاؤ. ويضيف محمد الثاني الحسيني قائلا:

"وصلت هذه الجماعة السعيدة من العلماء والدعاة في زاوية الشاه علم الله صباح يوم الأحد في الساعة التاسعة لثماني خلون من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦هـ المصادف ٣٠ من شهر فبراير سنة ١٩٤٨م. واجتمع سائر أبناء البلدة للترحيب بهم ونصبت لهم مجالس ليقبوا بها، وقد وصلت قبلهم يوم لنصبتها، وقام الشيخ يوسف الكاندهلوي بالدعوة إلى الله خلال إقامته بالبلدة وقام بعد العصر بجولة وجلسة دعوية بقرية ميدان فور، غير بعيدة من الزاوية، خطب فيها شفيع القرشي، ثم انعقدت جلسة في المسجد "العالمكري" برأي بريلي بعد المغرب، وجه فيها الشيخ يوسف خطابا إلى أهالي القرية الذين حضروا فيها، وكان الشيخ وقتئذ أشد ما يكون رغبة إلى نشر الدعوة في أبناء البلدان العربية، فلما فرغ من خطابه الخاص تعرف على الشيخ السيد أبو الخير الذي كان عالما ضليعا قديرا في اللغة العربية، وصاحب اليد الطولى في آدابها، فقال للشيخ يوسف: "ستكون أنت ناجحا في نشر الدعوة بين العرب" ولم تزل هذه القرية تستفيد

منذ قرون من العلماء والمشايخ القادمين إليها، وكان شأنهم أبداً أن ودوا الإقامة بما أكثر مما كانوا فيها، فقد قدم إليها الشيخ السيد حسين أحمد المدني، وتمنى لو أقام بها زمناً طويلاً، ورجعت هذه الجماعة إلى لكناؤ صباح اليوم التالي، ثم عادوا منها إلى دهي بالقطار للمسمى بـ"هاوره ايكسبريس" عن طريق بلدة رامفور، وذلك يوم الأربعاء في اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول^{٦٤}.

دراسة كتاب "سيرة سيد أحمد شهيد" وانطباعه عنه:

يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي رحمه الله تعالى: ظهر كتابي "سيرت سيد أحمد شهيد" على حيز الوجود سنة ١٩٣٩م، فأهديت إلى الشيخ عبد الباري نسخة منه، وكان حينئذ على وشك السفر إلى حيدرآباد، فطالع كتابي هذا خلال السفر، وأبدى انطباعه عنه، وفيما يلي تقدم ترجمة متن الرسالة التي كتبها إليه بعد مطالعته:

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلية العثمانية، مكتب البريد لال كورا

حيدرآباد، دكن

١٢ من شهر مارس سنة ١٩٣٩م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

انتهيت من كتابك الشامل لسائر جوانب حياة السيد أحمد الشهيد خلال رحلتي إلى حيدرآباد، بل الحق أن سفري هذا تم وكأني كنت ملازماً صحبة المؤمنين الصالحين الجامعين بين العلم والعمل، واليقين والتفقه، الذين كانوا نماذج حية للإيمان والإسلام. ولما قرأت الباب الرابع من الكتاب لم أستطع أن أمنع عيني أن تدمع العين التي ما برحت جافة منذ أمد بعيد. الحق

^{٦٤} سوانح حضرت مولانا محمد يوسف كاندهلوي، للشيخ محمد الثاني الحسيني ص ٢٧٦، طبعة

أن المسلمين في أمس حاجة إلى أمثال هذه الكتب حول سيرة المشايخ والأولياء ليقوى إيمانهم حيا رطبا، ويزيد قلوبهم يقينا وإيمانا، فجزاكم الله عن المسلمين.

وزادني كتابكم هذا يقينا وثقة بأن عقد المؤتمرات وتنظيم الجمعيات لايهدينا إلى حل المشاكل التي يعانيتها المسلمون، وإنما الحل الوحيد الذي يخلصهم من برائتها هو المؤمن الكامل الجاهد المجاهد الذي لا يخاف في الله لومة لائم، الذي لا يخرج في سبيل الله رياء وسمعة، وإنما يريد بذلك رضا الله وحده، فيلتف حوله جمع كبير من المؤمنين الذين يجمعون بين الإخلاص في النية والكفاءة في العمل، ويتهافتون عليه تمافت الظمان على الماء، ويتداعون عليه كما يتداعى الأكلة على القصعة، وهذا الجمع من المؤمنين هو اللجنة الخالصة المخلصة لسائر المسلمين، فادع الله سبحانه أن تمب في هذه الأمة نفحة من نفحات الرحمة الإلهية، فتقلب أوضاعها ظهرا لبطن. وأينما وجدت مجلة "ترجمان" لشهر ذي الحجة فاقرأها.

والسلام عليكم
عبد الباري

قدوم الشيخ أشرف علي التهانوي مدينة لكتاؤ:

وقدم الشيخ التهانوي لكتاؤ لعلاج مرضه. خرج من وطنه في ١٠ من شهر أغسطس سنة ١٩٣٨م للمصادف ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧هـ، وقضى أربعين يوما بكتاؤ، واصطحب معه الشيخ جميل أحمد التهانوي، والشيخ أبرار الحق الحقي، والسيد وصل البلغرامي رحمهم الله تعالى. كما قدم الشيخ عبد الباري النلوي الذي كان في موطن الشيخ التهانوي مع سائر أعضاء أسرته، فرجع معه إلى لكتاؤ، وأقام الشيخ التهانوي بمسجد الخواص، بمولوي غنج (لكتاؤ)، وكان من المقرر عقد جلسة واحدة فيه كل يوم، يحضر فيها عيون أهالي لكتاؤ من العلماء والمشايع، كما جاء بعض الناس من ضواحي المدينة، مثل الشيخ مسعود علي النلوي الذي جاء من بلدة باره بنكي، وأقام عدة أيام، وكان يلتزم بحضور جلساته، وكان الشيخ السيد سليمان النلوي مقيما بكتاؤ تلك الأيام فكان يزوره أيضا كما كان يحضر الشيخ عبد الباري النلوي والدكتور السيد عبد العلي الحسيني في جلساته كل يوم. يقول السيد وصل البلغرامي:

"ومن الناس من كانوا يتأسفون على عدم حضورهم في مجالسه، ويحضرونها كلما أمكنهم، ووقع غير مرة أن لم يجلبوا لذلك فرصة ومع ذلك لم يروا أن يغيبوا عنها، وأنشطهم الشيخ عبد الباري النلوي والدكتور عبد العلي رئيس ندوة العلماء سابقا، وكان ولهما مفتخرة يفتخر بها غيرهما من الناس^{٦٥}

وظل الشيخ أبرار الحق الحقي نشيطا فعلا خلال إقامة شيخه التهانوي رحمه الله تعالى بكتاؤ، يحضر في مجالسه ويخدمه، ومنذ أول يومه لم يزل يقربه ويألفه، ويشمله بأعطائه وأطافه. تعود الشيخ أبرار الحق رحمه الله تعالى من بادئ أمره أن يقيد ملفوظات الشيخ التهانوي، وقد

^{٦٥} سفرنامه لاهور و لکھنؤ (رحلات لاهور و لکناؤ) للسيد وصل البلغرامي، ص: ١١٨، طبعة المكتبة الأشرفية، شارع فيروزفور، لاهور.

ألقى مجموعة هذه الملفوظات السيد وصل البلغرامي بذكريات رحلاته إلى لاهور ولكناؤ للسماة بـ"الإسفار عن بركات بعض الأسفار"، وتضم تلك الملفوظات كلماته التي قالها خلال إقامته بمترل الشيخ عبد الباري النلوي. وفي ١٥ من شهر سبتمبر جاء الشيخ التهانوي على طلب من نفسه إلى مترل الدكتور السيد عبد العلي الحسيني - رئيس ندوة العلماء - كما يقول وصل البلغرامي في "روداد قيام لكهنؤ": "المسافة بين مترله وبين مسجد الخواص لا تستغرق للماشي إلا عشر دقائق فقطعها الشيخ ماشيا على رجليه" كما أنه قضى ليلة واحدة في مترل الشيخ عبد الباري وهناك قصة تشير إلى عطفه عليه وهي أنه لما قضى أربعين يوما بلكتاؤ وأراد أن يغادرها إلى وطنه "هاته هون" نخرج معه الشيخ عبد الباري و الشيخ وصل البلغرامي بالسيارة إلى المحطة^{٦٦}

أطيب مكان:

وكانت لكتاؤ وحيدرآباد من أطيّب الأماكن لإقامة للشيخ عبد الباري. أما حيدرآباد فكان فيها زميله الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني، الذي اشتهر باحثا إسلاميا ومترسا عظيما، وأما لكتاؤ فكان له فيها صديقان حبان، الشيخ الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رئيس ندوة العلماء والشيخ عبد الماجد الدرريادي، منبر تحرير صحيفة "الصدق". قضى الشيخ عبد الباري أيام شبابه بحيدرآباد، والبقية الباقية - التي كانت أطول وأفضل من ذي قبل - من حياته بطولها وخيرها بلكتاؤ، وقد ذكر الشيخ عبد الباري قصة إقامته بلكتاؤ بغاية من التفصيل في اللقال الذي كتبه حول وفاة السيد عبد العلي الحسيني أحب أصدقائه، وعنوانه بـ"إن هذا إلا ملك كريم"، الذي نشر فيما بعد في صورة رسالة مسماة بـ"إيك فرشته صفت انسان". إنه اتباع قطعة من الأرض في حني "قدم رسول" الواقع على شارع سيتافور، وبني فيها دارا سماها

بـ"شبستان سعادت" [مقر السعادة]، وأحياناً يدعوها بـ"شبستان قلم رسول" [موضع قلم الرسول]، وكان يدعو المشايخ والعلماء إلى أن يبيتوا بها، فيستحيون لدعوته، فكان يتهز هذه الفرصة ويقريهم أحسن القرى، وما أروع ما مثله سماحة الشيخ أبو الحسن النلوي بما يلي: "ولم يلبث أن تم بناء داره التي سماها بـ"شبستان سعادت" بجانب كلية الشيعة في حي "قلم رسول"، وجعل الشيخ حسين أحمد المدني يقدم لكتاؤ مرة بعد أخرى، وكانت دار الشيخ عبد الباري هي مبيته الوحيد بعد دارنا، والشيخ عبد الباري هو الهندي الوحيد الذي بنى بفضل قلمه وبقوة تحريره مثل هذا القصر الفخم في الهند. أما البلدان العربية فهي زاخرة بمثل هذه النماذج. وكان الشيخ نفسه يقول: إنني بنيت هذه الدار بللمال الذي اكتسبته بترجمة كتب الفلسفة لـ"دار الترجمة" وكانت الدار واسعة جميلة للغاية، فيها عدة غرف جميلة، وفي الوسط قاعة واسعة، يشمل جزء منها دار كتب، وأمام الدار روضة، ودكة عليها كراسي للجلوس في أصائل فصل الحر، وبجانبتها دور للعملة والخدم، وشئ منها مستأجرة. وبالجملة إنني لم أر عالماً مثقفاً بالثقافة القديمة، لا يحمل أي شهادة من الكلية أو الجامعة، ولم يكن عنده إلا ما درس بنفسه، يملك مثل هذا القصر الشامخ الذي لا يملكه إلا الأمراء والوزراء والأثرياء، ولوسألني أحد أن أختار لقصره اسماً لسميته "دار القلم" أو "بيت القلم" بدلاً من "شبستان سعادت" فإن القصر رهين قلمه، ويصدق عليه بيت فارسى قلمم يلى على التلاميذ الصغار تبركا وتفاؤلاً، تمرينا لهم على إجادة خطهم:

قلم گوید کہ من شاه جهانم	قلم کش رابدولت مي رسانم
--------------------------	-------------------------

[يقول القلم: إنني ملك هذا العالم، وأنا أجلب الثروة إلى من يأخذني ويكتب بي.]

جاء الشيخ التهانوي لعلاج مرضه إلى لكتاؤ في ١٠ من أغسطس سنة ١٩٣٨م

المصادف ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧هـ، وكان الشيخ عبد الباري رفيق سفره مع

سائر أهل بيته^{٦٧}، وأقام بمسجد "خواص"، مولوي غنج، لكناؤ. وفي ١٥ من سبتمبر ود أن يزور السيد عبد العلي الحسيني بمزله الواقع بـ (كوئن رود) فكان من حسن حظ الشيخ عبد الباري أن بات الليلة الآتية في مزله، وقد أسهب وصل البلغرامي الكلام عن هذه القصة فقال: "سأله الشيخ عبد الباري النلوي بغاية من الشوق أن يفضل بقلومه الميمون بمزله مع أهل بيته، فاستجاب الشيخ التهانوي لدعوته لإختلاصه وصدقه، فقدم الشيخ التهانوي قبيل صلاة العصر في اليوم السادس في ١٦ من شهر سبتمبر عام ١٩٣٨م، وكان معه للملوي جميل أحمد، وخادمه الحاج عبد الستار وعبد المجيد، وسألته أن يصحبي فرضي، فحضرت أنا وللملوي الحافظ أربار الحق - المراد به الشيخ الشاه أربار الحق الحقي رحمه الله تعالى - عنده قبل صلاة المغرب ومن حسن حظنا أن سعدنا اليوم بأداء صلاة المغرب خلف شيخنا التهانوي حالة مرضه، ثم استأذناه - أنا وللملوي أربار الحق - بالرجوع بعد المغرب، ولكن الشيخ عبد الباري لم يأذن بالرجوع وسألنا للمبيت في مزله بغاية من الشفقة والحنّة وكان الشيخ التهانوي أيضا يحب أن نبيت عنده، ثم صلينا العشاء خلف شيخنا التهانوي، وتناولنا العشاء بعد الصلاة ثم أويينا إلى الفراش لنضطجع وننام، وكان الملوي أفضل علي، الساكن بقرية تملواره. من مديرية باره بنكي - وهو مجاز طريقة الشيخ التهانوي - مقيما في منزل الشيخ عبد الباري مع سائر أهل بيته، قد أصابه شيع من الجنون منذ ثلاثة أيام، ولم يكن ذلك بدعا من الأمر، فإنه أصيب به غير مرة قبل اليوم، ولكن حاله هنا أشد ما يكون اليوم، فلم يستطع أحد ممن كان في قصر الشيخ عبد الباري أن ينام ملء جفنه وأقضى حاله هنا مضجع كل من في قصره، وكانت النسوة أكثر خوفا وأسا، فتأثر بذلك الشيخ التهانوي أيضا، وبالجملة قضينا ليلة كلها أو جلها في اضطراب وخوف، ويأس وقلق، وشهد صلاة الفجر معنا الملوي أفضل علي أيضا، وأمنا فيها الشيخ التهانوي، فلما فرغ من الصلاة توجه إلى الملوي أفضل علي قائلا: "يجلو بك أن ترجع

^{٦٧} ليراجع: سفرنامه لاهور ولكهنو لوصول البلغرامي.

إلى بيتك وتقضي هنالك عدة أيام، فإن طقس هذه المدينة - مدينة لكناؤ - يئو بك". فرضي بذلك رغم ماعتراه من جنون، وكانت عادة الشيخ التهانوي التحول بكرة بعد الفجر بدراجة دخانية تحضر له، فلما وصلت الدراجة بعث بها المولوي أفضل وزوجته وأعضاء أسرته وأقاربه إلى المحطة، وكان ذلك يوم الإضراب عن عربات الخيل والمراكب، فلما لم نجد مركبا وتأخرنا كثيرا حتى قال الشيخ التهانوي: "أتحول اليوم ماشيا، فإذا جاءت الدراجة أرسلت بها النساء، وإذا فضل الوقت ركبناها في الطريق"، فسار الشيخ على رجله واصطحبني أنا والمولوي أبرار الحق، ولم يكن ذهب غير بعيد إذ رأى عربة خيل تعود بعد إيصال راكبها إلى كلية الشيعة - وبجانها قصر الشيخ عبد الباري مباشرة - فلما رآه صاحب العربة راجلا توقف ظانا أنه يحتاج إلى العربة، فكلمته أن يبلغنا إلى مقرنا، فلما أنه كان يوم الإضراب لم يرض إلا إلى حي "بير جليون"، وذلك من فضل الله أنه يسر لنا السبيل بتلك العربة، فركبها الشيخ إلى حي "بير جليون" وليس مقره مولوي غنج بعينا عنه بكثير، وانظر إلى رحمة الله تعالى أننا نزلنا من العربة ولم نمش إلا خطوات حتى وصلت دراجة خليك الزمان بعد إيصال المولوي أفضل وأهله والنساء، فركبها الشيخ ووصل إلى مقره^{٦٨}.

هذا القصر الذي شرفه العلماء والمشائخ بقلوبهم الميمون، لم يزل سعيانا مباركا بقلوب الكتاب المفكرين والعلماء والأولياء إلى أن لفظ صاحبه الشيخ عبد الباري أنفاسه الأخيرة، ولا يزال أخلافه يصلون منه المؤلفات والكتب حتى اليوم.

كفاح تحرير البلاد ورحلته إلى باكستان وإيثاره الإقامة بالهند عليها:

لا يخفى على أحد منا الدور الذي مثله علماؤنا العظام في تحرير الهند ويتجلى ذلك بينا إذا سرحنا نظرة على التاريخ، وليس بوسعنا أن نحدد فضلهم وإسهاماتهم في تخليص وطنهم

^{٦٨} الإسفار عن بركات بعض الأسفار [رحلات لاهور ولكهنوا]، ص: ١٣١ - ١٣٣، طبعة المكتبة الأشرفية، لاهور.

من برائن الإنجليز، ولم يبق خفياً أي خفاء بعد ما اعترف بذلك المؤرخون من الهندوس والإنجليز، وكان للشيخ حسين أحمد المدني مكانة مرموقة بين سائر من قادوا حركة كفاح تحرير الهند، ولم يكن الشيخ عبد الباري ممن ناصروه ووالوه فحسب بل كان تلميذاً ومجاً له، ولكن لما ظهرت باكستان على حيز الوجود تعرض للضغوط واضطرت بعض الجهات إلى أن يعي قدراته ويستخلم مؤهلاته في باكستان، فلما توزعت البلاد إلى قسمين أح عليه أهل باكستان أن يهاجر إليها، ونخص له بعضهم قطعة من الأرض في مدينتي لاهور وكراتشي. يقول الحافظ أحمد الباري:

"إن بعض رفقاء والدي الكريم خصوا له موضعاً أسس فيه الدكتور محمود أخ الدكتور ذاك حسين معهننا باسم "إدارة تعليم ملي" في كراتشي، وذلك ليبي هنالك والدي معهننا كيفما يجب، فذهب هو والشيخ أبرار الحق بالطائرة إلى لاهور وكراتشي، ورأى كلاهما أن الإقامة بالهند هي خير لهما، فقضوا أياماً ثم رجعوا إلى الهند، وهننا تقسح لهما الطريق وتمهد السبيل إلى نخلة الدين والمسلمين".

اتصاله بجماعة العلماء:

ظهرت ندوة العلماء كحركة في حيز الوجود، واجتمع كبار العلماء وجعلوا نصب عيونهم رفع النزاعات والخلافات المالية التي تجاوزت حد العناد والمخالفة وتوحيد المسلمين فيما بينهم وإصلاح المنهج التعليمي ليكون أنفع من ذي قبل فوضعوا لذلك خطة وشعروا بأمس حاجة إلى إنشاء دار العلوم التي لا يمكن بدونها الوصول إلى الغاية المنشودة والظفر بما يطلب من أهداف، فانضم الشيخ عبد الباري في الطليعة التي التحقت بدار العلوم للتحلي بالدراسات الإسلامية، فامتاز بكونه جامعاً بين القديم الصالح والجديد النافع، وكان مع ذلك عارفاً بالله. أكرمه الله سبحانه تعالى بعمر طويل، ففاق من بين أقرانه ومعاصريه بكثرة تلامذته والمتطفلين على مائدته، كما برز عليهم لنيله شهرة فائقة في ريعان شبابه، واعترف بنبوغته وفضله كل من الطبقتين القديمة والحديثة المثقفة، ويجدر

بالذكر كتابه "الدين والعلوم العقلية" في هذا الصدد، وما جعله عظيماً مكرماً في عيون العامة والخاصة على السواء فهو ما قام من بحوث حول شخصية الفيلسوف الشهير "بركلي" وتحليل لنظرياته وأفكاره، واستعراض لفلسفته، ويحق لندوة العلماء أن تعتر به، ولذلك حينما تلقى نظرة على تقارير الحفلات الأولى لإدارة ندوة العلماء، يتحلى لنا أنها كما عرضت أعمال السيد سليمان الندوي ودار المصنفين بين يدي الناس كذلك قدمت لديهم مؤلفات الشيخ عبد الباري الندوي وبحوثه وأعماله وجعلت تدعوه في حفلاتها السنوية، ويشارك في جلساتها الإدارية، فكانت آراؤه ومقترحاته وتأييداته فيها تعد ذات أهمية بالغة وينظر إليها بعين الاعتبار والتعظيم^{٦٩}.

ويعده الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي من أولئك الذين تعتر بهم ندوة العلماء من أبنائها النجباء فقال في خطابه مرة: لكل مدرسة أو جامعة رجالات تعتر وتتأسى بها فلندوة العلماء ثلاث رجالات ممتازة مثالية جامعة بين القديم الصالح والجديد النافع، وهي: الشيخ السيد سليمان الندوي، والشيخ عبد الباري الندوي، والشيخ عبد السلام الندوي. ويقول الشيخ إسحق جليس الندوي مدير تحرير مجلة "تعمير حيات" سابقاً مشيداً بجهوده الجبارة ومثمناً بحوثه المباركة: "وكانت له صلة وطيدة بندوة العلماء"^{٧٠}.

وكان له اتصال علمي إداري بدار المصنفين - أعظم المراكز العلمية بعد ندوة العلماء لأبنائها - ولم يدم اتصاله الإداري بها لما اعتراه من أضرار، فاستقال منها وآثر العزلة في وطنه لكنائز، وأما مقترحاته وآراؤه وتوجيهاته ودراسته العلمية فاستمرت على حالها دون توقف، وذلك هو السبب الوحيد إلى صدور مؤلفات علمية وتحقيقية بقلمه السلسل.

ومنعته مرضه الشديد وغيره من أضرار عن الإسهام في المؤتمر التعليمي الدولي التاريخي الذي تم عقده عام ١٩٧٥م المصادف ١٣٩٥هـ بمناسبة احتفال

^{٦٩} ليراجع لمزيد من التفصيل: تاريخ ندوة العلماء لمؤلفه الشيخ شمس تيريز خان.

^{٧٠} مجلة "تعمير حيات" العدد ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٦م.

ندوة العلماء بإتمام ٨٥ سنة من افتتاح التعليم بها، فشعر أعضاؤها بفراغ عظيم نشأ لعدم حضوره في المؤتمر لاتصاله الشديد الدائم بها ومعهدا التعليمي "دار العلوم" الذي تخرج فيه، فأراد أن يسدوا هذا الفراغ بالإشادة بأعماله العلمية والدينية وتجديد ذكره العطرة، وتحدث عن ذلك الشيخ السيد محمد الحسيني في كتابه "روداد جمن" بما يلي:

"وبهذه المناسبة شعر كل من حضر المؤتمر بفراغ نشأ لعدم حضور الشيخ عبد الباري الندوي فيه، وهو لا يزال رهين فراشه وعاجزا عن كل عمل منذ مدة طويلة".

وكان اسمه مكتوبا في الصفحة الأولى الخاصة بالمؤلفين النابغين من أبناء ندوة العلماء في جدول العرض، وصدر مقال خاص حول حياته وأعماله في العدد الممتاز عن ندوة العلماء لمجلة "البعث الإسلامي" كما نشرت بعض مقالات حول أعمال غيره من صفوة أبنائها.

ومن المؤسف أن رحمة الله تعالى استأثرت به قبل أن يتهيج قلبه بما سيري من ازدهار وتقديم ندوة العلماء، وذلك يوم الجمعة في ٢٧ من شهر محرم الحرام عام ١٣٤٩هـ المصادف ٣٠ من شهر يناير سنة ١٩٧٦م، ففقدت به ندوة العلماء الشخصية التي طار صيتها بعلمها وفضلها في الخافقين رحمه الله تعالى رحمة واسعة^{٧١}.

^{٧١} روداد جمن ص: ٩٤، ألفه الشيخ محمد الحسيني، الطبعة الأولى.

الباب الثالث

الحج والزيارة

تأهبه للسفر:

وهب الله سبحانه وتعالى أسرة الشيخ عبد الباري الهناء والثراء، وأكرمها بالورع والتقوى، وخصها بالأنفة والعاطفة اللينة فلم يزل أعضاؤها متصلين بالمشايخ والأولياء، ومغمورين بحب الله ورسوله صلي الله عليه وسلم وكان أبوه ذاكرا لله، مرتقبا مرتقبا له، ولم تكن لتختلف أمه عنه في الورع والتقوى فلما أزمع الشيخ عبد الباري على أن يزور بيت الله سبحانه وتعالى ويؤدي فريضة الحج اصطحب أبويه وبعض رفاقه وهم الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الماجد الدرايبادي، وتزود كل منهم للحج ولها وشوقا وبغاية من الهمة والحماس، ولو زأهم أحد مقبلين على استعلادهم للسفر بقلوبهم وقوايلهم لاغتبط بهم، وتأثر الشيخ عبد الماجد بالشيخ مناظر أحسن غاية التأثر، ولم يستطع أن يضم ذلك في نفسه ففرى في كتابه "سفرنامه حجاز" (ذكريات رحلتي إلى الحجاز) كلمات مليئة بحبه إياه وتأثره به، وسمى الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وقائع وذكريات سفره إلى الحجاز بـ "ديار نبوت مين حاضري" (زيارة البلاط النبوي)، ولكننا نقدم ههنا بين يديكم مقتبسات من مجموعة رسائله المسماة بـ "مكاتيب كيلاني" يشير إلى مدى صلته وصحبته بالشيخ عبد الماجد في الحرمين.

ورع أمه الكريمة:

كانت أم الشيخ عبد الباري امرأة صالحة متقية لله، وقد أشاد الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بصلاحها وورعها بما يلي من كلمات:

"أرجو ألا تكوني تسين نفسي في دعواتك المخلصة التي تدعون بها في أفضل ساعات وأخصها، واتصال بعضنا ببعض اتصالاً أيمانياً - نشأ بالطبع في عرفة - سيبقى ما دامت السماوات والأرض.

وما أروع تلك الليلة التي تجلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم في منام أمك، فكيف أنسى مثل هذه الكرامات والكشوف التي لا تنزل إلا على أمثالها، أقرئ عليها وعلى زوجتك مني السلام^{٧٢}. وبالتالي يتحدث الشيخ عبد الباري الندوي عن انطباعه فيما يلي:

"قمنا بزيارة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زيارة بيت الله، وكان من المقرر زيارة بيت الله إلى أواخر ذي القعدة، وتمت رحلة قافلتنا هذه بحافلتين، ولما حان وقت الخروج إلى بيت الله لم نستطع أن نجد حافلة ولو بشق الأنفس، وأعظم من ذلك اقتراب أيام الحج، وكل واحد منا قلق مضطرب مخافة أن يفوته الحج، وكان والدي الكريم يذهب أحياناً لدى عبد الرحمن السندي، أحد بوابي المسجد النبوي، فقال السندي يوماً: "لا حاجة إلى القلق، اذهب متى يؤذن لك" ماذا يعني بالإذن؟ كلما مضى يوم زدنا قلقاً واضطراباً، وهكذا جاء اليوم الثاني من شهر ذي الحجة، وشدت الأمتعة، وتم التأهب لقصد بيت الله الحرام، ولكن لم نر أي حافلة فركبها إليه، وبينما كنا كذلك إذ رأيت أمي صباح اليوم الثالث من شهر ذي الحجة تدعوني باسمي، مبتهجة فرحة فرح من يجد ضالته وينال بغيته، وجعلت تقول: "غلبني النعاس بعد أداء صلاة التهجد، فرأيت في المنام النبي صلى الله عليه وسلم قائماً معتمداً على عصاه عند متاعنا، كأنه يودعنا". فقلت: قد أذن لنا، وسنجد الآن إن شاء الله حافلة، ووقع كذلك، فلم

^{٧٢} مكاتيب كيلاني: ٢٣٣/١، جمعها ورتبها الشيخ السيد الشاه منة الله الرحمان، طبعة الزاوية الرحمانية،

تطلع شمس اليوم التالي حتى ودعنا مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وغادرتها إلى بيت الله الحرام^{٧٣}.

إيمان أبيه ووطنه:

ولم يكن الطيب اليوناني الشيخ عبد الخالق - والد الشيخ عبد الباري النوي- ليتخلف عن أحد ولها وولوعا. وماذا كان شأنه في طريقه إلى المدينة المنورة؟ لنستمع قصته بالتفصيل بلسان من رافقه في السفر وهو الشيخ مناظر أحسن الكيلاني: "لا يمكننا أن ننسى ما وقع في منزل نزلناه برابغ المسماة قديما بـ"جهنة". وقفت الحافلة ههنا قليلا، فترل الناس وجعلوا يتحولون، وكنت أتجول معهم إذ رأيت شيئا هرما أبيض الرأس واللحية خلف هذه الأكوخ ماذا يديه كأنه يقول وبه وجد وطرب:

"أين أنا من منزل رابغ؟ من أين حملت؟ وإلى أين؟ وكان يهتر طربا، وهو يحدث نفسه، فلما أحس بقلومي انكمش، وكان في واد غير ما كنا فيه، وكان الرجل الشيخ عبد الخالق والد الشيخ عبد الباري"^{٧٤}.

رفقة سفره:

يستطرد الشيخ الكيلاني قائلا: "وكانت الباخرة المدعوة بـ"أكبر" تشق عباب الماء وهي حاملة أكثر من ألف نسمة على ظهرها تسير كأنها قرية أو جزيرة يحف بها الماء من كل جوانبها، وكان معنا الشيخ عبد الباري وأبوه والشيخ عبد الماجد وزوجته أخت العرفات، وأبناء الشيخ العلامة الرباني محمد علي المونكري مؤسس ندوة العلماء^{٧٥} الثلاثة، الشيخ لطف الله،

^{٧٣} مكاتيب كيلاني: ٢٣٤/١، جمعها ودونها الشيخ منة الله الرحمانى.

^{٧٤} دربار نبوت كى حاضري للشيخ مناظر أحسن الكيلاني ص: ٥٢.

^{٧٥} الشيخ العالم الرباني محمد علي المونكري مؤسس ندوة العلماء، كان من أنبغ علماء عصره علما وفضلا، وأكملهم ديناً وورعا، فطانة وحزما، فراسة وبصيرة في دينه وإيمانه، وأشهدهم ولعا وولها بأتمه

والشيخ نور الله، والشيخ منت الله - رحمهم الله - وأمهم وأختهم، وكانت هذه الجماعة كوحلة واحدة على ظهر السفينة، فكأنها قافلة تحتوي على إحدى وعشرين نسمة، وما شعرنا به من فوائد هذه الوحلة في بادئ الأمر أن بعضنا كانوا حاملين التذاكر من الدرجة الأولى، وكان يحمل معظمهم تذاكر الدرجة الثالثة، فاستفاد هؤلاء من سقفة الباخرة لما كان عند أصحابهم من تذاكر من الدرجة الأولى وحق لهم كذلك أن يستخلموا حمامات وكنف الدرجة الأولى، ولو اتفق أن يحتاج أحد من أصحاب الدرجة الثالثة إلى استخلام مقصورة من الدرجة الأولى، لتحققت حاجته لوحلتنا هذه، بحيث أن يذهب أصحاب الدرجة الأولى إلى سقفة الباخرة ويرسلوا أصحاب الدرجة الثالثة إلى مقصوراتهم نيابة عنهم، وانتفعنا كثيرا ببطاقة المخيمة ولم يك من الميسور تعيين مصلى واحد لجماعتنا نحن، ففرقت الأماكن لئتم فيها أداء الصلوات^{٧٦}.

الشاه السيد لطف الله:

كان المولانا السيد لطف الله التجل الأكبر والخلف الصالح للشيخ الرباني السيد محمد علي المونكري مؤسس ندوة العلماء جامعا بين العلم والدين، ومن العارفين بالله وأهل القلوب الذين لا يقيمون الدنيا وزنا. اجتمعت فيه شتى مؤهلات منحها الله إياه من لدنه، ومن حسن المصادفة أن اصطحبته أسرته، في سفره بالباخرة، وغمرت أصحاب سفره - من الشيخ عبد

ودينه وأكثرهم تأهبا لبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله، ولقد دفعه هذا الوله إلى تأسيس حركة ندوة العلماء، واحتياح الفنن القاديانية والمسيحية، فورث أبناؤه عنه خصائصه وميزاته هذه، وأتاح الله سبحانه للشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله تعالى فرصة سانحة للاستقاء من منهل الشيخ الرباني علي المونكري رحمه الله تعالى، فاغتنمها وقضى عنده عاما كاملا، فاستفاد منه حق الاستفادة [كما روي عن الشيخ الكيلاني نفسه].

٧٦ دربار نبوت كي حاضري، ص: ٢٧-٢٨.

الباري والشيخ مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الماجد الديرابادي - موجة من الفرح والسرور بوجوده فيما بينهم. يقول الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني: "وكانت لي صلة أخوية بالمولانا السيد لطف الله النجل الأكبر للشيخ العلامة المونكري رحمه الله تعالى. لما تم زواجه مع أختي الصغيرة، واشتد حنين المولانا لطف الله إلى الحج بعد سفره هنا اشتدادا دفعه إلى حج بيت الله مرتين، ولما حج للمرة الأخيرة أقام بالحجاز سنة كاملة، شطرها في مكة المكرمة وشطرها بالمدينة المنورة، ولما رجع إلى الهند استأثرت به رحمه الله تعالى ولم تنقض أيام شبابه، غفر الله له وتعلمه برحمته^{٧٧}

الحضور بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم:

ولما ألفت السفينة مراسيها على شاطئ جدة تفرق ركابها، وتفرقوا جماعات، فأما الناهبون إلى مكة للمكreme فاتخذوا طريقها، وقد بقي أكثر من شهر في الحج، والقرح الشيخ مناظر أحسن الكيلاني على جماعته أن يحضروا أولا على الروضة النبوية. يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني: "إلى متى كنت لأصبر؟ حتى متى أكم ما كان كامنا في نفسي؟ من فضل أصحابي أن لم يرضوا بأن يتركوني وحيدا، وينفضوا أيديهم من اصطحابي، وأشكر من صميم قلبي أولئك الذين وافقوا رأيي، وهم أصحاب العقل".

وعلى كل فإن الأمر عجب كل العجب. صفر الربان الإنجليزي معلنا أن قد قربت السفينة من ميقات يللم فأقبل الناس على شد الإحرام، وبقي بعض الناس ممن لم يحرم، ينظرون إلى المحرمين نظرة تحسر وغبطة، ويفكرون فيما قلر لهم الله سبحانه و تعالى، ورأينا أثناء الطريق أن تتخذ طريقا وسطا فتقصد بيت الله معتمرين ثم نشد رحالنا إلى المدينة المنورة زائرين، ثم نرجع

^{٧٧} دربار نبوت كني حاضرني للشيخ الكيلاني. كان المولانا السيد لطف الله علما حليلا و شيخا كاملا، نال شهرة فائقة في شبابه، لعلمه وورعه، ولد سنة ١٣٢٠هـ، وجلس على مسند والده بعد وفاته سنة ١٩٢٧م وأنشأ مدرسة في الزاوية الرحمانية تعرف بجامعة رحمان، وانتقل إلى ذمة الله سنة ١٩٤٢م.

عائدين إلى مكة المكرمة إذا أقبل علينا موسم الحج، ولكن لم تفعل ذلك إذ قال الفقهاء: لا يحسن الذهاب إلى المدينة المنورة بعد الوصول إلى مكة المكرمة خلال أشهر الحج.

وكان سائر أهل السفينة محرمين إلا بعض الصوفية المجنوبين النازلين على شاطئ جلة مرتين بأزيائهم العادية، وكان الحج بعيدا عنا بأكثر من شهر، فغادرت جماعتنا المؤلفة من إحدى وعشرين نسمة جلة إلى المدينة المنورة بدراجة دخانية، ومن فضل الله سبحانه وتعالى أن حافلة واحدة وسعت سائر أفرادها^{٧٨}.

اهتزاز وطرب:

ويذكر الشيخ منظر أحسن الكيلاني ما اعتراه هو والشيخ عبد الباري والشيخ عبد الماجد وغيرهم من أصحاب سفره من طرب واهتزاز وهو يقول: "إن التعمتين التين هما أعظم النعم عند بعض العلماء الحكماء فاز ياحدهما أصحابنا، وهي نعمة وجود محمد صلى الله عليه وسلم حيا بالمدينة المنورة. أما الذين يكتبون ويحجلون فلا شأن لنا بهم، وأما الذين يؤمنون فإنهم يصدقون بأن النبي صلى الله عليه وسلم حي، وقد جبلوا على الإيمان بأنه وإن كان داخلا في عموم الآية "كل نفس ذائقة الموت"، ولكن الموت لم يؤثر فيه إلا قدر ما استغنى عن الحوائج البشرية من الأكل والشرب وغير ذلك مما يحتاج إليه البشر في العالم المادي ولحق بالرفيق الأعلى: ^{٧٩} ثم يستطرد ذكر أخبار قافلته:

"كادت تفقد القافلة رسلها بعد وصولها إلى "بئر درويش"، وكانت المسافة على وشك النهاية، وتحققت أو كادت الأمانة العظمى من حياة المؤمنين، ولذا كأن كل واحد منا لا يزال يفقد نفسه في حنة من الخواطر الطيبة، وبينما كنا كذلك إذ ارتفعت صيحة السائق وهو يقول: "مدينة النبي صلى الله عليه وسلم"، فراغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتشققت

^{٧٨} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٤٣ - ٤٥.

^{٧٩} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٥٣.

الصلور عن أكبادها. لقد قدم عهدي بهذا الصوت، ومضى عليه عشرون عاماً، ولكنه رطب
وصداه لا يزال يتردد إلي رطباً يلهج به اللسان، وكأن كل واحد منا نسي غيره، ولم تكن ترى
عينه إلا مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وليس لشيء غيرها عين ولا أثر، والحافلة تنلغ نحو
المدينة بسرعة فاتمة. هنا في الظاهر. أما الباطن فلا تسأل عنه شيئاً، فقد كانت تضطرم فيه ألوان
من العواطف^{٨٠}.

في ديار الحبيب صلى الله عليه وسلم:

ولله دره من ناعت يعبر عما دار في نفسه ونفوس أصحابه من خواطر، حيث يقول:
"ولم يمض إلا أسبوع حتى صرنا أن لم يبق في نفوسنا إلا ذكرى المدينة المنورة، وخرج منها كل
شيء غيره من ذكرى الأقارب والرفقاء، وأستاذية الجامعة العثمانية.

واتفق القلب واللسان وقوة النوق على تحميم القضاء بأن الماء الذي نجده ههنا لم
ييسر^{٨١} قبل ولا يتوفر بعد في أي دولة من دول العالم، وفي أي قطر من أقطاره. هذه البيعة
الذكية الطاهرة الطيبة التي نراها، وهذه البهجة التي نشاهدها بأمر أعيننا، لا تنهياً لنا في أي مكان
غيرها، ولا يمكن أن ننام في غيرها كما ننام فيها، ولم يغمرنا موجة من الفرح والحبور قط كما
غمرتنا فيها، وتسلطت غيري فرد علي نفس الجواب، ولم يزل يثور في نفسي هذا السؤال: أينا
يسفه حتى يخرج من الجنة بعد دخولها^{٨١}.

رؤيا صادقة:

وكان كل من الشيخ مناظر أحسن الكيلاني - الذي قصد بيت الله وحده أولاً -
والشيخ عبد الماجد الدرريادي وزوجته، والشيخ عبد الباري النسوي وأبويه مغموراً بالإيمان بالله،

^{٨٠} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٥٦ - ٥٧.

^{٨١} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٦٥.

غارقا في حبه وولفه، ولم يكن ليتخلف الواحد منهم عن الآخر في الإيمان والحب لله، وإن كان يظن نفسه متخلفا عن غيره. يا لها من قافلة ميمونة. ما أسعد حظها، وما أوفر نصيبها. كل واحد منهم مرضي عند الله سبحانه، ويتحقق كل ما يتمنون ويرون في منامهم الصادقة، وقد رأَت زوجة الشيخ عبد الماجد أم الشيخ مناظر أحسن الكيلاني في منامها تحج معها - وإن لم تكن معها - فما إن سمع ذلك الشيخ مناظر أحسن الكيلاني حتى زاد حنيننا إلى حج البذل - بدل أمه التي لم تأت للحج - حتى أَرْضَى رجلا بذلك - بعد أن استشار الشيخ السيد أحمد أخ الشيخ حسين أحمد المدني رحمه الله تعالى - يقول الشيخ الكيلاني: "وأَرْضَى الشيخ أحمد رجلا لذلك، وإنه وعد بمصاحبتنا نوايا حج البذل"^{٨٢}.

كما حدث أن حالت بعض حواجز وعقبات دون الرحلة إلى مكة المكرمة من المدينة المنورة قبل الحج بأيام، فحفظنا أن تأتي أيام الحج، ولا تؤدي الحج الذي شدنا له رحالنا إلى الحجار. يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني: "اقتربت أيام الحج، وعزمنا قبل على أن قافلنا نخرج من المدينة المنورة في اليوم الأول من شهر ذي الحجة، ولكن حدثت من أصحاب الحفلات أمور جعلت بما قلوبنا تخفق، وأقضت مضاجعتنا. حينما يقولون: نذهب غدا لا اليوم، وحينما آخر: بعد الغد نذهب لا غدا، فجعلوا يماطلون وصرنا نتأخر يوما فيوما، وقد كانت فرائضنا ترتعد ونحن نفكر: ماذا يحدث؟ أليس الله كتب لنا الحج؟ أليس من حظنا أداء مناسكته؟ وكنت أشد حزنا وكآبة منهم لما اقترحت عليهم من الإتيان إلى المدينة المنورة أولا، ولم ندر شيئا ماذا نصنع مع أصحاب الحفلات حتى قرعنا باب الحكومة، ولكن من غير طائل، ولم نلق من أربابها ردا شافيا، فحف بنا القلق والضجر من كل جانب"^{٨٣}.

ولنستمع إلى الشيخ الكيلاني كيف يحكي قصة هذا القلق: "و كنت أنا والشيخ عبد

^{٨٢} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٧١.

^{٨٣} دربار نبوت كي حاضري، نفس المصدر، ص: ٧٢.

الباري وأبوه نائمين تلك الليلة في رباط نزلنا فيه، مفكرين فيما سيحدث غدا، فإن اليوم الثالث من شهر ذي الحجة كان قد مضى، وقد دخل اليوم الرابع منه، ولعل الساعة الثالثة كادت تدنو، وكانت أم الشيخ عبد الباري تستريح بعيلة عنا، إذ دوي صوتهما المخصوص المختق: "ولدي! فلذة كبدي!" ودعت الشيخ عبد الباري باسمه الذي سمته أسرته به في نعومة أظفاره، وكثيرا ما كانت تدعوه باسمه هنا، فاتبهت من النوم، وأسرع الشيخ إلى أمه وقال: "ماوقع؟ ما بالك؟ ماذا فعل الله بك أماه!" وهي تشج وتحق بالبكاء وتقول بصوت ممتزج بهذا الشيخ: "رأيت نفس الآن مناما أريت فيه رجلا أهدمت أنه سيد الكونين محمد صلى الله عليه وسلم، والحافلة قائمة أمامه، ومتاعنا مطروح غير بعيد عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم يأمر: احمل هؤلاء المسافرين إلى مكة المكرمة ليؤدوا مناسك الحج". قال هنا أو نحوه، ولعل أمه قالت أيضا: "ورأيت يحمل بنفسه متاعنا على الحافلة شيئا فشيئا" وكنت أستمع لها، فهدلت وفقدت رشدي، وخرجت من حلقومي صيحة واحدة، فأفاق والد الشيخ من نومه، ونسي كل واحد منا غيره. يقول بلسان حاله: اللهم ما هنا، ما هنا؟ وتتنا الليلة متضرعين باكين، ويصدق علينا ما عبر عنه الشاعر بقوله: "اللهم! أنت الذي ترحم وتغفر للآثم المذنب". هنا ماشاهدناه ههنا مرة بعد أخرى. أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ أين نحن مسلمي الهند أسما بلامسمى من تلك الشمس التي أشرقت على العالم كله؟ يا لحسن حظنا! دعا لنا بالسلامة والعافية، امتثالا لما أمره الله سبحانه بالدعاء للحاضرين في روضته مهد الإيمان بالسلامة، وأينا يستطيع أن يحصي النعم التي تصب على أولئك الذين يؤمنون بقلوبهم ويطبقون الإيمان ومتطلباته على حياتهم الفردية والجماعية، الذين يفعلون مايقولون، وإذا كانت علاقة الإنسان بربه صحيحة قوية مباشرة صحت علاقته بكل شيء من أشياء هذا الكون. إن هنا السر لايتوصل إلى كنهه أولئك الذين يتغنون وسائط توصلهم إلى الله سبحانه وتعالى، والذين يجعلون بشرا مثلهم أو خلقا غيره إلها يعبدونه وينلرون له انتفاعا به. أفلا يعقلون أنهم كيف يتقربون إلى خلق مثلهم إذا ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى

الذي خلقهم فأحسن خلقهم. أفلا يتدبرون أن الانصراف عن بلاط الله سبحانه لا يجعلهم يتصرفون إلى خلقه.

من روضة الرسول إلى حرم الله سبحانه:

وقد وصف الشيخ مناظر أحسن الكيلاني ختام حضورهم في الروضة النبوية بغاية من الحب والوله، وركز جهده البليغ على أداء كل ما يقع عليه من حق بصفته عضواً من أعضاء أمته صلى الله عليه وسلم، وأجداد في وصفه بارتحال قافلته إلى بلاط الله سبحانه وتعالى، وها أنا أقدم إليكم كل ما وصف: "أخيراً طلع الفجر، وبينما كنا نرجع من للمسجد النبوي بعد أداء الصلاة فيه، إذ صادفنا في الطريق أحد ممثلي الشركة، وقال: "تأهبوا للسفر. نفس الآن تنهب الحافلة إلى مكة المكرمة". وما إن سمعنا ذلك حتى جرى الفرح والسرور بجرى النداء من العروق، وبلدت ملامح البشر على وجوهنا، وتأهب كل فرد من أفراد الجماعة، ليركب الحافلة، ولم نلبث أن وصلنا مكة المكرمة. كنا في المدينة المنورة في اليوم الرابع من ذي الحجة، وصرنا نتجول في أزقة مكة في مساء اليوم الخامس من ذي الحجة، وتحولت القصة التي يوردها أحد الشعراء الفارسيين في بيته التالي: "تمنى طأؤس ليته وصل إلى باب الكعبة فضرب رجل الحمام بإحدى يديه ثم لم ينشب أن بلغ مكة" إلى حقيقة تجلت لنا، ولعلنا قطعنا للمسافة من المدينة إلى مكة في يوم ونصف، وظننا حين خروجنا من المدينة المنورة أننا لا نخرج منها، وإنما نحن فيها حتى الآن، فبحمد الله يعترينا ما كنا نخاف من النحول. وقفت الحافلة بندي الحليفة - بر علي - وأمامها مسجد يحف به غدير واسع عميق مليء بالماء الزلال السلسل، فأكثرنا فيه من الاغتسال والسياحة، ثم شدنا ملابس الإحرام في المسجد. اللهم نشكرك أجزل الشكر، وإن كنا مقصرين في شكرك. من أين تأتي بكلمات تعبر عما في نفوسنا من روح الشكر والامتنان لك:

من فضلك وكرمك وقع كل ما وقع
ومن مجرد فضلك سيحدث كل ما سيحدث

(البيت)

انتهت مراحل المدينة المنورة، وبلغ عباد الله سبحانه وتعالى في بلاطه بعد زيارة رسوله^{٨٤}.

نظرة على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم:

وكيف قضت تلك الجماعة ساعات بالمدينة المنورة لا تجد فيها إلا الهدوء والطمأنينة، والحب والوله، والإيمان وقوة اليقين، ساعات طيبة رائعة لا يشوبها القلق والضجر، ولا ينغصها التافر والتحاقد، وإليك القصة حكاية عن الشيخ الكيلاني:

"الحق أن جوها نور على نور، لا ترى فيه إلا ضوء لا تغالشاها ظلمة، ولا تمر به حلقة، يحف بها الهدوء والطمأنينة من كل جانب، ولا تجد فيها القلق والجزع، تتدفق منها ينابيع الحب صلى الله على صاحبها وعلى آله وصحبه وسلم"^{٨٥}.

آخر عهدهم بالمدينة المنورة:

وظل الشيخ عبد الباري الندوي وأبوه والشيخ مناظر أحسن الكيلاني مقيمين بمكان واحد بالمدينة المنورة، وهؤلاء الأربعة تقاسموا فيما بينهم واجبات الطعام والإقامة، وأدى هنا التقاسم إلى ازدياد توادهم وتعاطفهم وقوة علاقتهم. ولما قدر الشيخ عبد الباري المصاريف دهش هو وأصحابه لقلتها. ولنستمع القصة كما أوردها الشيخ الكيلاني بالإسهاب: "أجل! اسمع كلمة أحييرة. إن قافلنا التي احتوت على إحدى وعشرين نسمة تفرقت في شتى المخيمات والربط، وكنت أنا والشيخ عبد الباري وأبوه مقيمين بمكان واحد، فقتاسمنا واجبات الطعام والشراب فيما بيننا، وتم قبل المغادرة إلى مكة تقدير المصاريف التي كلفت في الطعام والشراب خلال شهر واحد وثلاثة أيام، والجدير بالذكر أننا كنا أطلقنا أيدينا في الطعام والشراب، وكانت

^{٨٤} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٧٥ - ٧٦.

^{٨٥} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٧٨.

المائدة تسع وقت الفطور الكبابات والبيض والحليب وألوانا من المأكولات بالإضافة إلى الشاي،
والحق أن الغلاء الذي شاهده العالم بعد الحرب العظيمة الواقعة بعد الحرب العالمية العظمى أول
من نوعه، ولعل البشر لم يمر به في أي مرحلة من مراحل التاريخ، وإن لم يعتبره العصر الحديث
غلاء بالنسبة إلى هذا العصر، وتم سفرنا هنا بعد الحرب العظيمة - إن لم نقل: الحرب العظمى
- التي ألفت أثرا بالغنا على بلاد العرب، وواجهت ثورة بعد ثورة أقامها الثوريون، وتل آنذاك
عرش السلطة العثمانية وطوي فراشها حتى لم يبق لها أي نفوذ ولا أثر في بلاد العرب. أما
الأسعار فلا تسأل عن غلائها الفاحش.

وحينما قفر الشيخ عبد الباري للمصاريف المكلفة دهش وتحيرت أيضا، حيث قال
كلفت مدة شهر وثلاثة أيام ثماني رويات على رأس واحد. ثماني رويات فقط؟ وقد اشترينا بها
الشاي ولوازم أخرى من الفطور وبعض مأكولات شهية كل يوم، فراجعنا حساب المصاريف
عدة مرات، ولكن لم يتجاوز ذلك عدد الثماني، فلم يكن لنا بد من الاعتراف بأنه قرانا الذي
قصدنا بيته طول هذه الفترة، والواقع أن عدد الثماني لم يكن إلا مجرد سر.

فدى لنفسى بالذي أسدى إلينا معروفا لم يظهر أنه معروف. اللهم صل وسلم وبارك
عليه وعلى آله وصحبه وأهل بيته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين^{٨٦}.

لبيك اللهم لبيك:

لو زرت بيت الله الحرام بمكة فزر وأنت محب عاشق، لا يستر بدنك إلا ثوبان لم
يخطا، كأنك مسجى بثياب الكفن، رأسك مفتوح، ورجلاك لا يغطهما شيء، تنادي: لبيك
اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك.
زرها، وكأنك مذهب فاقده الرشد. لمن يليق به الجزع والقلق؟ ومن يجدر به الوله؟ لله

^{٨٦} دربار نبوت كي حاضري، ص: ٧٩ - ٨٠.

رب العالمين الذي دعانا مناديا فليينا نلعه. وأين دعانا؟ إلى بيته. ومن أين؟ من بيوتنا. وإلى أين؟ إلى بيته. الله الذي خلقنا فأحسن خلقنا، وربانا فأحسن تربيتنا، هو الذي يملك ناصية كل شيء، هو القادر على كل شيء، مالك يوم الدين، كيف لا يرحمنا وكيف لا يتوب علينا وإنما نندفع إليه منقطعين عن كل شيء، ثم ابتغينا عنرا آخر حيث نحضر في بلاطه بعد زيارة حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم. جعلنا الله الرحمن الرحيم ضيوفه بعد أن قرانا حبيبه، فيا لحسن حظ هؤلاء الضيوف! لم لا يفنون بأنفسهم وهم سعدوا بهذا الحظ الكريم، وإن كانوا من قبل مكرمين من الله سبحانه إذ جعلوا الورع والتقوى شعارهم، والطهارة والعفاف دثارهم. يقول الله سبحانه: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

أما الشيخ مناظر أحسن الكيلاني فإن براعه ألقى أفاضل كبدته، وذكر قصة زيارتهم للروضة النبوية بأسلوب شيق. ولنذكر الآن قبسات من روائع أدب الشيخ عبد الماجد الديرابادي، يقرأها الإنسان فيعجب بأسلوبه الممتع، وكفى بنا شهادة واعترافاً بذلك ماكبته الشيخ أبو الحسن علي النلوي:

"أدى الشيخ عبد الماجد الحج سنة ١٩٢٩م، ونبتت من قلمه مجموعة وقائع رحلته هذه التي تمتاز عن سائر المؤلفات التي كتبت حول هذا الموضوع حتى عن كتبه نفسه^{٨٧} وكان هذا الكتاب أول نتاج صدر من قلم الشيخ عبد الماجد، فقرأته كله بغاية من الشغف والرغبة، أقرأه وأهتر طرباً وإعجاباً بفنائه وطريقته به وسحر بيانه وقوة قلمه الجامع بين روعة الأسلوب

^{٨٧} لا يزال يصدر تاريخ سفره هذا من شتى الأكاديميات والمكتبات، مسمى بـ "سفر حجاز"، وقد قام بطبعته ونشره الحاج منظور علي اللكتوي ثم اللكتوي - رحمه الله تعالى وغفر له - من "إدارة انشائي ماجدي، كلكته" والشيخ فضل ربي الندوي من "مجلس نشرات اسلام، كراتشي" بأحسن طباعة، والآن قامت بطبعه ونشره "صدق فاؤندينشن" (مؤسسة صدق)، لكتاؤ، باهتمام بالغ وطباعة حسنة، وتم تعريب بعض أجزائه، فنظر إليها الناس نظرة استحسان وتقدير، وصدر شيء منها في مجلة "الحج والعمرة" الناطقة بلسان وزارة الحج، المملكة العربية السعودية، فأعجب الناس بما قدروها حق قدرها.

وجمال التعبير، وحسن الأدب وانطباعات قلبه^{٨٨}.

من مقر مكة إلى بيت الله الحرام:

"من ثم تفرقت عنا عصابة المولانا لطف الله المكونة من خمس نسيمات، وسرنا نحن ستة عشر رجالا ونساء راكبين على ظهور أربعة أعراب، والحرم الشريف والربط الحيدرآبادية تبعد من ههنا بميل ونصف، وكنا قبل المسير قررنا بالمواضع التي نقيم بها أثناء الطريق، وأعظم من ذلك أن كانت لدينا رقعة الدعوة التي أرسلها إلينا الشيخ محمد سليم بغاية من الإخلاص والحب، يدعوننا بها إلى المدرسة الصولتية^{٨٩}، ولكن الدليل أخبرنا بأنها غير قريبة من الحرم الشريف، بينها وبينه مسافة طويلة، ولا يمكن أداء الصلوات الخمس بالجماعة في الحرم الشريف، فقررنا بأن نذهب إلى رباط حيدرآباد لتقيم به، ثم نرى ما نصلح. يقع هذا الرباط في مسفلة مكة. له بناء واسع شامخ مشتمل على أديار، وحينما وصلنا إليه رأينا كل أدياره غاصبة بالناس، ووجدنا المشرف عليه الشيخ حبيب الله نبيلاً في خلقه نشيطاً في عمله، فرحاً مطمئناً بخدمة خلق الله، ولا يعد من الحرم الشريف إلا بثلاثة أثمان ميل، حتى إن إحدى أنابيب نهر زبيدة تخرج على باب، وتلك نعمة من الله خاصة، أكرم بها أهل مكة، ولا يستطيع أن يقدر ذلك - أهمية الماء - الذين يقطنون بالهند. يقال إن الإسكندر ذا القرنين كان أحوج ما يكون إلى خضر عليه السلام ليلته على الطريق السوي، ويهديه إلى الصراط للمستقيم، وأما هذا الإسكندر - اسم المطوف الذي كان مع الشيخ عبد الماجد وأصحابه - فإنه جاء لنا دليلاً بنفسه، يدعو الله بكلمات مأثورة. رفع صوته راكباً على الحمار، يسير مع أعرابنا، وكنا نردد كلماته التي يدعو

^{٨٨} بران جراغ: ١٤٦/٢.

^{٨٩} كانت في المدرسة الصولتية ربط مختلفة، مدعوة برباط حيدرآباد، ورباط بوفال، ورباط طونك، ورباط ترابراديش، ورئيسها - آنذاك - الشيخ محمد ناظم كان في الهند، فكتب إلى ابنه الشيخ محمد سليم، يوصيه بالخفاوة بهم وإكرامهم، وليراجع: سفر حجاز للشيخ عبد الماجد.

بها، ولا نذكرها الآن إلا لأنها كانت مأثورة وردت في كتب الأحاديث والأدعية^{٩٠}.
مسجد الحرام وكعبة الله المقدسة:

"وبدأ يلوح لنا حائط المسجد ودخل الناس فيه من باب السلام مارين بعنة أبوابه - يستحب الدخول في المسجد من باب السلام - وفي أي شيء دخلوا؟ في بقعة مباركة تستوي صلاة فيها مائة ألف أو ألف صلاة في غيرها، وما إن دخلناها حتى علقنا أبصارنا بالبناء المنطى بالغلاف الأسود الذي جعله الله بيتا له، الله الذي وسع كل شيء، الذي لا يحيط به بحر ولا بر، ولا سماء ولا أرض، ولا عرض ولا كرسي، الذي لا تتركه الأبصار، وقعت على ذلك البيت المبارك أبصارنا فوقت وعلقت حيث وقعت، وليس بوسعي أن أعبر عن هذا الحال بلساني وقلمي^{٩١}.

الطواف الأول:

"هذا هو البيت الذي بدأنا نطوفه، وجاء بنا المطوف عبد القادر اسكنر، داخل المطاف، وجعل يطوف بجماعتنا، والمطاف بحمد الله واسع جدا وإن كان الزحام شديدا آنذاك، ولا تساعه لم يحدث إلا جدالات لا يؤبه بها، ولو تمالك الحجاج النجديون والأعراب أنفسهم لما رأينا حتى تلك الجدالات الضئيلة، ولا يتغلب المطوفون على أنفسهم أيضا، فيتدافعون الناس، ويجهلون ليتعلموهم. وعلى كل فإن المطاف مكان هادئ آمن، لا يزال يعجب به الناس، تجدد ثم كل لون من الناس، أطفالا وشبانا، كهولا وشيوخا، رجالا ونساء، أصحاء ومرضى، وكل في عمله دائم، ويجوز للشيخ أول المرضى الذين لا يقدر على الطواف مشيا بأرجلهم أن يطوفوا بالشرية - وهو نوع من السرير يحمله العمال الأقوياء من الشبان، ورأيت كثيرا من

^{٩٠} سفر حجاز للشيخ عبد الماجد الدرايبادي، ص: ١٩٨، طبعة "انشاء ماجدي، كلكتة" سنة الطبع:

المرضى يطوفون مضطجعين عليه - إن الحجاج الذين لا يعلمون شيئاً عن المناسك والشعائر فليس لهم بد من الاستعانة بالمطوفين، وقد رأيت بعض المتقنين يصيرون حيارى مشوهين لأول مرة، لا يعلمون ماذا يفعلون، وأين يتوجهون، ولكنهم لا يواجهون أي صعوبة بعد الاطلاع لمرة واحدة، والأحسن دراسة كتب المناسك أو دليل للحجاج قبل أداء الحج أو الرحلة له، أما نحن فكاننا تابعين لتوجيهات المطوف عبد القادر، فبدأنا نطوف من حيث أمرنا بابتدائه، ووقفنا وانتهينا من الطواف حيث أمرنا به، حتى الرمل والاضطجاع وغيرهما من مناسك الحج أدينا كل ذلك حسبما أُرشدنا إليه. واحد، اثنان، ثلاثة، حتى انتهت الأشواط ولم ينقض إلا نصف ساعة، وبعد الانتهاء منها، سرنا أقدامنا إلى مقام إبراهيم، وكنا نتلو "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" (التوبة) ٩٢.

السعي:

"وكان العصر على وشك الدخول عندما فرغنا من طواف بيت الله سبعة أشواط وأداء كل ما يتعلق به، وعجنا على السعي، والسعي لغة العدو في المشي، واصطلاحاً التردد بين الصفا والمروة سبع مرات، وكيفية أدائه: أن يقبل الحجر الأسود في الكعبة ويخرج من الحرم الشريف من باب المخروم أو غيره من أبوابه ثم يتردد وكانت الصفا والمروة في العهد القديم جبلين شاهقين، ويطلعنا التاريخ على أن هاجر لما خرجت بئنا عن الماء وهي قلقة مضطربة رقيت هذين الجبلين مرة بعد أخرى، لعلها ترى قافلة تلمح من بعيد فتجد عندها شيئاً من الماء. أما الآن فلم يبق من الجبلين إلا بعض دكات مرتفعة إلى حد ضئيل، وما إن تمت من هاجر سبعة أشواط لهما حتى رأته معين الماء ينبع من تحت عقي رضيعه الحبيب فوقف سعيها، ومن ثم سبه الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة، وتركه منسكاً للآخرين لا يزال يؤديه ويجلد ذكره

٩٢ سفر حجاز للشيخ عبد الماجد الدرابادي، ص: ٢٢٥، طبعة "اداره انشائ ماجدي" سنة الطبع:

للمؤمنون أجمعين. ما أعظم مكانة اختصاص بها الله سبحانه وتعالى ورفع بها المؤمنات من عباده. انظر كيف صار الطالب مطلوباً، والقاصد مقصوداً إليه. سعت هاجر سبعة أشواط، مرة في حياتها، فكم مليون أو بليون من الناس سعاها خلال ثلاثة عشر ونصف قرن ذكرى واتباعاً لها، وأي الرياضي يستطيع أن يقلد عدد أولئك العباد الصالحين الذين يأتون من كل فج عميق ليطوفوا البيت العتيق ويسعوا بين الصفا والمروة إلى يوم القيامة، وقد مضت أعوام وقرون، ولكن الواحد لم يستطع طول هذه الفترة أن يقطع هذه السلسلة المباركة من المؤمنين الذين يؤدونه اتباعاً لسنة هاجر^{٩٣}.

بعد السعي:

ها هو ذا قد تمت عمري و عمرة أصحابي الذين أحرموا للتمتع. لا تسأل عن فرحنا حينئذ. بلنا لنا كأننا ظفرنا بكثر مكوز تحت الأرض، وجعل بعضهم يهنئ بعضاً بوجوه ضاحكة ناضرة. فصلوا بيته من كل حلب ينسلون، ومن كل فج عميق، ولم يدخلوه حتى جعلوا يؤدون مناسك الحج من الطواف والعمرة، تعيين، أعيامهم السفر، وبلغ منهم الجهد كل مبلغ، ولكن فرحة القلب دفعته حتى لم يبق منه شيء، ودفعهم شدة الظمأ إلى تناول الشراب للمزوج بالثلج كأساً بعد كأساً، وفي نفس الساعة قصرُوا أو حلقوا رؤوسهم في صالون مزخرف ممتاز، وقد مضى من وقت المغرب نصف ساعة أو أكثر^{٩٤}.

الإهلال بالحج:

"إن الذين نواوا القرآن فكانوا محرمين من قبل، ولم يكونوا بحاجة إلى استئناف الإحرام أو الإهلال، وأما غيرهم من الحجاج فعليهم أن يجرؤوا صباح اليوم الثامن من ذي الحجة قبل

^{٩٣} سفر حجاز للشيوخ عبد الماجد الدرابادي، طبعة "اداره انشائى ماجدي" سنة الطبع: ٢٠٠٦م.

^{٩٤} المصدر السابق، ص: ٢٣٩.

الخروج إلى منى، ولكن الأفضل أن يحرموا قبل ذلك، واستحسنه الفقهاء فيما ورد عنهم، وقال الشيخ شفيع الدين^{٩٥} رحمه الله تعالى نحوه: "يحرم بين السابع والثامن من ذي الحجة بعد العشاء داخل الحرم الشريف بل في الحطيم نفسه"^{٩٦}

وعلى كل فإنه تم تطبيق شيعي مما قال الشيخ شفيع، حيث لم تتأخر في الإحرام إلى صباح اليوم الثامن من ذي الحجة وإنما أحرمتنا بعد العشاء، وإن لم نستطع الوصول إلى الحطيم، وقد رأينا أثناء الإهلال داخل الحرم الشريف عددا وجيها من المحرمين^{٩٧}.

أحو منى:

"وتأخرنا عصر الجمعة في الثامن من ذي الحجة إلى أن خرجت منه الساعة التي يستحب فيها الخروج. ألوف من القوافل تقدمتنا وتخلفت كثير منها، يسايروننا محرمين، مشاة على أرجلهم، راكبين على الإبل والخيول والبغال، ينادون من كل صوب: لبيك اللهم لبيك. ثمانية جمال تحمل ست عشرة نسمة، مردفين بعضهم بعضا، معنا ثلاثة أعراب، إذ يكفي الواحد منهم لأن يقود ثلاثة أو أربعة جمال معا، حمل لي وزوجتي، وحمل ركبته الشيخ مناظر أحسن والطبيب عبد الخالق، وهكنا اثنا عشر على جمال، وهي أول مرة ركبنا الجمال"^{٩٨}.

^{٩٥} الشيخ شفيع الدين البجنوري - رحمه الله - من اهالي بلدة نكنية، مديرية بجنور. كان شيخا مرطاضا، نزل بمكة وسكن بها حوالي نصف قرن، ولم يتزوج طول حياته، ولم يرجع من مكة بعد ان نزل بها، وكان خلف الشيخ الحاج إمداد الله المهاجر المكي.

^{٩٦} الحطيم أحد أجزاء بيت الله الحرام ذات الشمال، جدرانها تبلغ نصف قامة الإنسان، وليس عليه سقف، ولا يظل ذلك من مصلحة أودعها الله لصالح عباده، ص: ٢٤٤.

^{٩٧} سفر حجاز للشيخ عبد الماجد الدرابادي، ص: ٢٤٥، طبعة "اداره انشائى ماجدي".

^{٩٨} سفر حجاز للشيخ عبد الماجد، ص ٢٥١.

في منى:

"حينما خرجنا من مكة كان وقت الظهر على وشك النهاية، وحينما وصلنا إلى منى كاد نصف العصر يقضي، وسنخرج غدا إن شاء الله إلى عرفات، والسنة أن تؤدي خمس صلوات في منى، ابتداء من ظهر الثامن من ذي الحجة إلى فجر التاسع، ولذلك كنا في عجل منذ بكور اليوم الثامن من ذي الحجة للخروج من مكة إلى منى. رحم الله تعالى معلمنا عبد القادر إذ تأخرنا به حتى وصلنا منى وقد ودعنا أول العصر منذ قريب فضلا عن الجمعة.

أما الأخصية فكنا فقد سبقنا اليأس منها من قبل، وألقينا شغادفنا في ساحة واقعة على طرف من الشارع، وأمرنا بأن نقضي يوما ابتداء من العصر إلى صباح الغد داخل أو خارج هذه الشغادف تحت السماء^{٩٩}.

يوم عرفة:

"هذا يوم الفضائل والبركة والرحمة وإسلاء النعم فيستحب فيه الإكثار من الذكر والاستغفار، والتلبية والتكبير أثناء الطريق قدر المستطاع. هاهوذا قد ابتدأت حلود عرفة. وما هي عرفة! أرض بلقع لا ترى فيها إلا شيئا يدب ويهب، ولا تقل مساحتها عن عشرة أميال مربعة كما يقول الخبراء. وأيما تدبر حدق عينك لا ترى إلا صحاري وهضبات وجمالا لا يأتي عليها الحصر وأخصية تلبو كأنها غابة في نفسها تحيط بها من كل جانب. وأما الذين لا يستطيعون أن يكرروا الأخصية فإنهم ملوا أردية تافهة، ومن الناس من لم يتيسر لهم حتى الأردنية فقد دخلوا في الشغادف التي تقيهم الحر، ولعلها كانت الساعة الحادية عشرة حينما وصلنا عرفة^{١٠٠}.

^{٩٩} سفر حجاز للشيخ عبد الماجد الدرابادي، ص: ٢٥٣ - ٢٥٤.

^{١٠٠} المصدر السابق، ص: ٢٥٦.

وتم الحج:

"أدر كنا جماعة ولو ضئيلاً عندها في خباتنا، وظل الشيخ مناظر أحسن الكيلاني أسعد أفراد قافلتنا كالعادة إذ ذهب لأداء الصلاة إلى مسجد "نمرة" وضل الطريق أثناء رجوعه إلى الخباء، فكم من ضلالة وجدها في خلواته وابتعاده عن أصحابه، فصلقت الآية: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" تارة أخرى، وأمثال هؤلاء الضلال يهتلون بأمر ربهم: "ووجدك ضالاً فهدى". وصلنا ههنا قبل الظهر، فقبل أن يدخل وقت الظهر اغتسل من اغتسل وتوضأ من توضأ، حتى استعملوا للصلاة، وكان لست عشرة نسمة خبايان، واحد لأصحابي الثمانية، وآخر الثمانية الباقين^{١٠١}.

"وأعظم أركان الحج هو الوقوف بعرفة. حينما يفرغ الإمام من الخطبة عند نصف العصر، تغمر الناس موجة من الفرح، وتتردد أصوات الناس: "كامل الحج. تم أداء الحج"، ويهنئ بعضهم بعضاً^{١٠٢}.

"كامل بحمد الله أعظم أركان الحج، فلا تسئل عن مدى فرحنا، وليس من الممكن إدراك سره إلا إذا مررت به وأديته. وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة حتى ترى السرور يغشى الجوارح^{١٠٣}.

المزدلفة:

يقيم الحاج بالمزدلفة بعد وقوف عرفة. أما المزدلفة فهي ساحة واسعة تقع بين منى وعرفة. وهناك طريقتان للخروج من منى إلى عرفة، أحدهما مستقيم، وآخرهما معوج ملتو، وإذا أريد الخروج من منى إلى عرفة فالسنة اتخاذ الطريق الأول للخروج إليها، ولا تجزأ المزدلفة في هذا

^{١٠١} سفر حجاز للشيخ عبد الماجد، ص: ٢٧٢ - ٢٧٣.

^{١٠٢} المصدر السابق، ص: ٢٧٦.

^{١٠٣} المصدر السابق، ص: ٢٧٨.

الطريق، أما الذي فيه عوج والتواء، فذلك يمر بالزلفة، ويستحب منه الرجوع من عرفة^{١٠٤}.
 "وورد ذكرها في القرآن، حيث سماها بالمشعر الحرام، وتظهر أهمية الإقامة بها حيث
 أمر الله بذكره عند الرجوع من عرفة: "فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام".
 ولقظة "المشعر الحرام" تدخل في معناها الساحة كلها"^{١٠٥}.

وخلال ياته بالزلفة شعر الشيخ عبد الماجد بفرغ شديد لعلم وجود الشيخ مناظر
 أحسن الكيلاني الذي خرج إلى مسجد نمره، فلحق بقافته بعد أن فرغوا من أداء أعمال
 للزلفة، وأما غيره من رفقاته مثل الشيخ عبد الباري وغيره فكانوا معه. ونستمع الآن إلى ما
 لحقهم من تعب وإعياء أثناء الطريق بلسان الشيخ النريبادي:

"وبعد ما بلغ الجهد من أزواجنا كل مبلغ لما مشين طيلة اليوم، أصابنا الجوع طبعاً،
 فذهب اثنان أو ثلاثة من أفراد القافلة إلى السوق ليشترعوا الطعام، فلما أزدوا الرجوع ضلوا
 الطريق، ولا تسأل إلا أنفسهم عما جرى معهم. لا تلوح لهم إلا ألوف من الجمال لا تكاد
 تفرق بينها لاتحاد ألوانها وأبلانها، والشغادف تشابه بعضها بعضاً، وبنا لهم كأنهم يمشون
 بـ"جهول بلياً"^{١٠٦}، كلما ساروا ضلوا، وظلوا ينادون أفراد قافلته. ينادون وينادون حتى
 اختنقت حلوقهم، ولم يزالوا يكابنون مثل هذه للشاق والمصاعب حتى وصلوا إلينا"^{١٠٧}.

ودعوا الله سبحانه وتعالى بكل إلحاح وتضرع حتى ذهب التعب عنهم ووجدوا أن
 رحمة الله سبحانه وتعالى غشيتهم. يقول الشيخ عبد الماجد النريبادي وهو يعبر عن هذا الجو
 السائد:

^{١٠٤} المصدر السابق، ص: ٢٧٨.

^{١٠٥} المصدر السابق، ص: ٢٧٨.

^{١٠٦} وهي في الأصل قصر أحد أمراء مدينة لكتناو، يضل فيه السائحون غالب الأحيان.

^{١٠٧} المصدر السابق، ص: ٢٨٥.

"الله أكبر! لقد وجدنا في اللزلفة ما لم نجد في عرفة. فأينا يستطيع أن يقدر نفحات رحمته التي لا يأتي عليها الإحصاء. من ذا الذي يستطيع أن يسر غور كرمه ويكيل فضله بمكياله؟ ومن بوسعه إدراك عظمة اللزلفة؟ ومن يحيط بألطف الرجل الذي لهج لسانه بمثل هذه الأدعية في اللزلفة؟ وأعظم من كل ذلك هو الذي تقبلها. ليس بوسعنا أن نأتي ولو بكلمة أو جملة واحلة تعبر عن سعة رحمته ورافته^{١٠٨}.

وقد واصل الشيخ عبد الماجد ذكر وقائع رحلته هو وأصحابه إلى الحجاز، ورد خلالها ذكر إقامتهم بمحبي، ورمي الجمار، والتضحية، والحلق، والرجوع إلى مكة. أورد كل ذلك بغاية من الحب والوله.

الرجوع:

ولم تيسر لهم الإقامة بالحجاز لمدة طويلة بعد الحج. أما زيارة المدينة المنورة فقد تمت مسبقا. بدأوا رحلتهم بالسفينة التي سميت بـ"أكبر"، وتقرر رجوعهم من سفينة مدعوة بـ"رحماني". الله أكبر! جلت قدرته وعظمت رحمته. استغرقت رحلتهم هذه ثلاثة شهور إذ ركبوا السفينة في الثامن عشر من ذي الحجة المصادف ٢٧ من مايو، ووصلوا شاطئ ممبائ في ٦ من يونيو، ونزلوا بلكناؤ بعد ثلاثة أيام وذلك في ١٩ من يونيو. جعل الله حجهم مبرورا وسعيهم مشكورا وذنبهم مغفورا.

الباب الرابع

السلوك والعرفان

وأما السلوك والعرفان أو التركية والإحسان - بلفظ آخر - فلم يكن الشيخ عبد الباري بمنجى منه، فدخل واديه وبرز فيه تبرزاً دفع معاصريه إلى الاعتراف بفضله واختصاصه في مجال السلوك والعرفان، ولسنا نذهب لنبحث في الممارج التي قطعها أثناء سلوكه وعرفانه، ولكن لا بد لنا من أن نسلط الضوء على الجاهدات والرياضات التي قام بها في سبيل الانتفاع ومساعدته البليغة الجبارة التي بنحها ليفيد الناس وإلّكم ما قال الشيخ المفتي محمد شفيع الديوبندي - الملقب بالمفتي الأعظم بباكستان - الذي امتاز باختصاصه في مجال التفسير وجمعه بين العلم والدين في صدد انطباعه وتأثره بوفاة الشيخ عبد الباري النوي وكان معاصراً له:

"تلقينا نبأ وفاة الشيخ عبد الباري النوي بقلب حزين وعين مبتلة. إنا لله وإنا إليه راجعون. إن وجود مثل هذه الشخصيات في هذا العهد العصيب الذي يعاني من قحط الرجال مبعث بركة لصالح البلاد والأمة، وللمؤسف أن سائر رفاقي يفارقوني واحداً فواحداً، ومن سوء حظي أنني لا أزال أعيش في الدنيا لأفاسم همومهم وآلامهم، وكان الشيخ عبد الباري خليفة لشيخ المرشد التهانوي رحمه الله تعالى استجازه وباعه وكان يقف منه موقف رضاه وجهه، يتصل به اتصالاً قويا، حتى خلج به عن ربقته زينة الدنيا وبهجتها، ونبد ترفها وزخرفها وراعه ظهرها، ووقف عقاره لخدمة الدين، وخسر في سبيل ذلك إمكانياته ووسائل عيشه، وعرف

الجيل الحديث بعلوم الشيخ التهانوي وبصرهم بمعارفه، كما مثل دورا بارزا في نشر العديد من مؤلفاته الشيخ التهانوي. أجد نفسي عاجزة عن القراءة و الكتابة. وعلى كل فإن كارثة وفاته وقعت علي مثل صاعقة وتأتت بها كثيرا. أدخله الله سبحانه وتعالى فسيح جناته وكتب له رفيع درجاته، وتغمده برحمته. آمين".

اتصل بالشيخ التهانوي وكان في ريعان شبابه. كان ذلك سنة ١٩٢٨م عندما خرج مع رفيقه الشيخ عبد الماجد الدرايادي بحثا عن شيخ مرشد، فصارا تلميذا لشيخ الإسلام حسين أحمد المدني بينما كان الشيخ التهانوي مرشدا لهما، يقوم بتريتهما وإصلاحهما، وبزكتهما، فانتفعا بهما لما كان فيهما من طلب صادق، ونية خالصة، فأحكم ذلك الشيخان لئلا يبقى تحت الرماد شيء. أما التلميذان فإكهما شاهدا شيخيهما عن قريب، ونظرا في كل ما يفعلان ويقولان، فلم يتردد كلاهما في ملازمتها وبيعتهما، كما أن الشيخين لم يدخرا أي وسع في توطيد هذه الصلة، ودهش الناس بسلوك الشيخ عبد الباري وجرههم معاملته وأعجبهم موقفه من شيخيه موقفا مترنا عادلا، وعدم مغالته في الميل إلى الواحد منهما دون الآخر، ولا يقدر ذلك كل من هب ودب. كيف وإنه لا يمكن الوصول إلى ضفة النهر راكبا على سفيتين؟ ولكنه بفضل الله وقدرته حقق بعمله مالا يمكن تحقيقه، وأثبت أن الإسلام أو الاستسلام عبارة عن أن يقضي الإنسان حياته عملا بسنة الله التي سنها، خالصا كاملا في عبوديته مخلصا في عبادته، وينطبق هذا المقياس على حياة الشيخ عبد الباري، وكان بيته الذي بناه في لكتاؤ مجتمع العلماء والمثقفين من كلتا الطبقتين الدينية والعصرية، وأعظم من ذلك أن الشيخ التهانوي نفسه أقام به ولو لمدة غير طويلة، وكلما زار الشيخ حسين أحمد المدني لكتاؤ، أقام عند مضيفه الشيخ الدكتور السيد عبد العلي الحسيني - رئيس ندوة العلماء سابقا - وأخرج شيئا من ساعاته الثمينة لصالح تلميذه الشيخ عبد الباري، وطالما أقام بمزله أيضا.

في حضرة الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله:

كان الشيخ السيد حسين أحمد المدني شيخ الطريقة في عصره، ومجاهدا عظيما، ومحدثا كبيرا، وقائلا مخلصا لبلاده وأمته، وامتاز بجمعه بين البصيرة في السياسة، والنبوغ في العلم، والرسوخ في الدين، وينظر الناس إليه نظرة إجلال وتقدير، وألقيت مودته في قلوبهم لتضحياته ومجاهلاته وبذل النفس والنفس في سبيل الحق.

ورغم هذا القبول والحظوة لدى الناس دفع إلى مقاومة أوضاع عسوية ومعاناة الآم وشدائد لعلم اتفاق طائفة من الناس على بعض وجهات نظره إلى السياسة، ولكن لسانه لم ينطق بكلمة واحدة تعبر عن شكواه وغضبه، وهذه هي خصيسته الممتازة التي تبدي ملكته ورسوخه في العلم والعرفان واتصاله القوي بالله سبحانه. واتصاله بالله آية استقامته في سبيل الله الذي هدى إليه النبي صلى الله عليه وسلم، والعوامل التي دفعت الشيخ عبد الباري النلوي والشيخ عبد الماجد الدرايادي إلى مبايعة الشيخ حسين أحمد المدني، وليست البيعة شيئا عاديا أو تقليدا، وإنما هي عبارة عن الاستسلام لصاحبها، والخضوع لطاعته والاعتراف بإمامته وتقديمه في الورع والتقوى والزهد والعبادة، ولكن الشيخ المدني سألهما الذهاب إلى الشيخ التهانوي نظرا إلى طبعهما، ولم يكتف بذلك فحسب بل ذهب نفسه بما إلى الشيخ التهانوي بتنهانه بهون، وأخبره بما جرى، وسأله البيعة، فقال الشيخ التهانوي ختما على الرسالة: "بايع أنت. أنت على سبيل النبوة، ونحن على طريق الولاية"^{١٠٩}. فرضي بذلك الشيخ المدني قائلا: "أبايع أنا، وتركي

^{١٠٩} لم ترد هذه الجملة فيما ذكر الشيخ الدرايادي من قصة، وقد اطلعنا على ذلك بوسائط أخرى، أخبرنا بذلك جدنا السيد محمد مسلم الحسيني - صهر الدكتور السيد عبد العلي الحسيني - رولية عن المولانا محمد مرتضى البستوي - أمين مكتبة العلامة شبلي النعماني العامة، ندوة العلماء، لكتاؤ، سابقا - : "صراط النبوة وولاية الأنبياء كلاهما شيء واحد". ونحو هذه الجملة قالها الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي للسيد الشهيد: "لقد أكرمك الله بولاية الأنبياء بمجرد فضله وكرمه". ولما سئل - أي سأله

أنت". ثم رجعا من تهانه بحون إلى ديوبند مع الشيخ المدني، وانخرطا في هذا السلك النهبي، وأدام كلاهما صلتها به ما بقي حيا، ولم يحل اختلاف الطبيعة دون هذه الصلة، حتى قال الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى: "ولم يصرف الواحد منهما وجهه عن الشيخ المدني، إدامة لحبه وصلته به رغم الانسجام الطبيعي مع الشيخ التهانوي"^{١١٠}.

ولمجرد اتصال الشيخ عبد الباري بشيخه المدني وحبه إياه يحضر لديه للاستفادة منه مسافرا إلى مقره - بديوبند - تارة حيث يواصل نشاطاته العملية، وإلى وطنه تانده - بمدينة فيض آباد - تارة أخرى، وكان يقص على أصحابه قصة في هذا الصدد أنه لما حضر لديه للمرة الأولى حضور صادق في نيته، مخلص عمله، متواضع لشيخه، إقطاعي النوق، كهانوي الطبيعة،

السيد أحمد الشهيد - عن معناها عرف بالولاية المطلقة أي ولاية الأولياء ثم قال عن ولاية الأنبياء، "وهي - ولاية الأنبياء - أن يمثل الخلق النبوي من الإيثار والزهد وغير ذلك من شمائلهم في ظاهر الإنسان ويتحسد في باطنه، وتفني تلك الشمائل النبوية الحسنة من نفسه شوائبها من الرياء والمعاصي، كما تنفي النار الخبث من الحديد، ويكون دائما في إرشاد خلق الله وهدايته، وتلقين الفساق الجنة والنصح لهم، وعاكفا على أداء واجبات وفرائض كتبها الله عليه، وإحياء سنن الأنبياء، وجهاد الكفار، وتأديب الأشرار، وتعزيز المذنبين، ويذهب بنفسه إلى محافل المسلمين ونواديهم ومجالسهم يعظهم ويلقنهم فيها، ولو لم يصغوا إليه أذاهم: "ويسمى هذا المشرب "قرب الفرائض" في مصطلح الصوفية، ويعمل أهل هذا المذهب في ضوء آيات القرآن الكريم وعبارة النص، وليعلم أن هذه الدرجة من أعلى مراتب الولاية عند الصوفية. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم". (لراجع: سيرة سيد أحمد شهيد: ١٢٣) وما قاله الشيخ عبد العزيز الدهلوي الملقب بسراج الهند - خلف الشاه ولي الله الدهلوي - لأمر المؤمنين السيد أحمد الشهيد، أعاده الشيخ التهانوي أمام الشيخ حسين أحمد المدني رحمهم الله تعالى، وأتذكر بالمناسبة منام الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى الذي رأى فيه أنه زار السيد أحمد الشهيد فرأى الشيخ حسين أحمد المدني جالسا معه على سرير واحد، وذلك يدل على اتحادهما في العمل والطبيعة رغم ما يوجد بينهما من التفاوت الزمني. والغيب لا يعلمه الله.

بينما كانت حياة الشيخ المدني تختلف عن ذلك. لديه كأس واحدة، وقشاشية واحدة، منها يشرب كل من حضر، ومعه خادم يحمل معه قشاشية ومدرجها كعادة أبناء الأسر الثرية، فلما رأى الشيخ عبد الباري ذلك أمر خادمه بأن يطرح القشاشية ومدرجها بعيداً وصيغ نفسه بهذه الصبغة، والسيد محمد مسلم الحسيني - صهر الشيخ الدكتور عبد العلي الحسيني رحمه الله تعالى - الذي سمع هذه القصة بلسان الشيخ عبد الماجد الدرايبادي يضيف قائلاً: "ثم جاءت مرحلة أخرى عند تناول الطعام، وأي امتحان أعظم من أن الشيخ المدني سأله: أين خادملك؟ فقال: سيتناول عن قريب. فأوماً قائلاً: لا، ادعه. يتناول معنا. فحضر الخادم بعد لأي كبير، ثم أكل كلهم معاً، كلهم على مائدة واحدة، شيخاً كان أو تلميذاً، خادماً كان أو سيداً، لا بل في صحيفة واحدة، فقد كانت عادة الشيخ المدني وضع صحيفة على مائدة، فلم يلبث أن زال كل نوع من التمييز العنصري والطبيعي، وزالت سائر الشكوك وهذا نوع من الترية.

وهنا قصة أخرى تتعلق به، رواها بنفسه وهي كما تلي: كان الشيخ حسين أحمد المدني يزور لكتاؤ مرة بعد أخرى، لأجل نشاطاته الدينية، والدعوية، والمالية، والسياسية، وبدأ يقيم بمترل الدكتور السيد عبد العلي الحسيني بين الفترة التي تناهر: ١٩٣٠ - ١٩٣١م. كان الشيخ عبد الباري حينئذ أستاذاً بمجملر آباد، ويقضي إجازاته في لكتاؤ، فخلال هذه الفترة يأتي إلى مترل الدكتور السيد عبد العلي رحمه الله تعالى ليستفيد من الشيخ حسين أحمد المدني، ثم لما دامت إقامته بلكتاؤ، زاد استفادة واهتماماً^{١١١}، ويسأله أن يشرف بيته بقدمه للميمون، فكان أغلب

^{١١١} وعن عهده هنا يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى: "وخلال هذه الفترة اتصل الشيخ عبد الماجد بالشيخ حسين أحمد المدني ببيعة واسترشادا كما اتصل به أخي الكبير الدكتور السيد عبد العلي الحسيني بعد برهة من الرهن. وجعل الشيخ المدني بيته مقراً له، فوجد كل من الشيخين عبد الماجد وعبد الباري الندوي فرصة سانحة لزيارة شيخهما المدني مرة بعد أخرى" براني جراغ: ٢:١٤٦.

الأحيان يقبل، ويقضي شيئاً من دفعته أو ليلة في منزله المسمى بـ "شبهستان سعادت"، ويمد مائدته بكل اهتمام، فوقع ذلك الأمر الذي ذكره جدي السيد محمد مسلم الحسيني: سمعته أذني هاتان يقول: كان الشيخ أحمد المدني والدكتور السيد عبد العلي الحسيني معي جالسين حول المائدة بينما كنت أتناول اللحم، أخذت عظماً فيه قطعة من اللحم، فمصصته وألقيته على المائدة، فلما رأى ذلك الشيخ المدني، بدا له أن قد بقي عليه شيء من اللحم، فأخذه وتناوله بنفسه.

ووقع هذا الخلق العظيم من قلبه موقعه الذي مثله الشيخ حسين أحمد المدني بإثارته وتواضعه، وتقانيه في الله، واتباع سنة نبيه، ولو كانت السنة عادية أو غير مؤكدة، ولذلك يحكي أحاديثه بغاية من الحب والاهتمام، والولوع والشغف، ويصغي أذنيه إلى كل مايقول، ويطبقة على حياته. يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندي رحمه الله عن إقامة الشيخ المدني بمنزل الشيخ عبد الباري الندوي: "أحياناً يقضي الشيخ المدني ليله في منزله ويرتاح لذلك قلبه، وقد وقفت إلى زيارته أيضاً مرة أو مرتين. مأدبة الأنبج صباحاً، وجلسة على دكة في الفناء، وحضور شيخ عهده وحشد عظيم من المشايخ وخيرة الناس، وأحاديث تلور في المجلس، كل ذلك لن أنساه"^{١١٢}. وأشاد الشيخ المدني مرة بالشيخ عبد الباري بأسلوب بليغ قائلاً: "يريد الشيخ عبد الباري أن يموت الشيطان، ولن يكون ذلك"^{١١٣}، كما ذكر أن قد جرت بين الشيخ حسين أحمد المدني والشيخ عبد الباري مكاتبات، وقد رد الشيخ المدني على بعض رسائله التي تحتوي على أي نوع من الإيراد أو السؤال أو الشبهة أو الاستفسار، اكتفاءً بجملة واحدة حيناً، وبيت واحد حيناً آخر بالإحالة إلى رسالة وجهها إليه الشيخ المدني عن إصلاح نفسه. يكتب صاحب "سوانح شيخ الإسلام حضرت مولانا حسين أحمد مدني" (سيرة الشيخ حسين أحمد المدني): "كتب الشيخ المدني البيت التالي إلى الشيخ عبد الباري الندوي:

^{١١٢} بران جراغ، ١٢٢٢/٢-١٢٢٣.

^{١١٣} بران جراغ، ١٢٧/٢.

والنفس كالطفل أن تمهله شب علي
حب الرضا وأن تفظمه ينفطم^{١١٤}.

ماهو العامل الأساسي الذي أدى إلى حب الشيخين - عبد الباري وعبد الماجد -
إياه والانسجام الفكري بينه وبينهما الذي دفعهما إلى مبايعته دون الشيخ التهانوي، رغم جبهما
إياه، واحتلاله المرجعية في مجال الإصلاح والتركية؟ يقول الشيخ الدريبادي: "وقد كتبت من
قبل في مجلة "الصدق" بعنوان "البحث عن مرشد" بشيء من التفصيل وكتبت مضطربا، أفكر في
البحث عنه سعيا بقلمي دون قلمي، وإن كنت سعيد، ولكن ببطء، فاندفعت إلى
تصعيده^{١١٥}.

وأخيرا استشار الشيخ الدريبادي الشيخ محمد علي جوهر رائد حركة الخلافة
وأحب الزعماء إليه، فأشار عليه بملازمة المرشد الذي كان متفقا معه طبيعة وفكرا وحركة.
يقول الشيخ الدريبادي: "فأقيمت صوتي لصالح الشيخ حسين أحمد دون أي توقف^{١١٦}
ثم بلغ ذلك أصحابا له من مقدمهم الشيخ عبد الباري
الندوي الذي سبقه حركة ونشاطا في هذا المجال، ثم عزم كلاهما على
اختيار مرشد. ولم اختارا الواحد؟ ولأي سبب آثرا الشيخ المدني على
الشيخ التهانوي؟ يقول الشيخ الدريبادي نفسه مجيبا عن هذا السؤال:
"وكنت أتحدث مع أصدقائي في هذا الأمر حتى لعدة ساعات وخاصة
مع تري (وشيوخ الساعة) عبد الباري الندوي - ولا يشتهب الأمر حتى

^{١١٤} سوانح شيخ الإسلام حضرت مولانا حسين أحمد مدني للشيخ عبد القيوم الحقاني، ص: ٢١٥ (طبعة
سهارنبور).

^{١١٥} حكيم الأمة، نقوش وتأثرات، ص: ١١.

^{١١٦} المصدر السابق.

يظن أنه عبد الباري الفرنكي محلي، العالم الشهير، والزعيم الممتاز - وكان ذلك شغلنا الشاغل، فلا نتكلم إلا في هذا الموضوع، وكان حبنا للشيخ التهانوي أكثر منه لغيره. بمجده نغني، وبعظمته نعترف، والقلب يميل إليه أكثر منه إلى غيره. هذا وفي جانب كانت بيننا وبينه خلافات قامت سدا متينا، وأكبرها الخلاف السياسي، فلم يتحفظ قلبي لمبايعته دون تفكير في أي شيء. وأما الشيخ حسين أحمد فلم يكن حبنا إياه مثل الذي كان مع الشيخ التهانوي، ولكن لم يكن بيننا وبينه أي خلاف شديد، وكان بيننا انسجام سياسي، ثم حدثني نفسي - ولا بأس إذا سمعت قصة تحليل المريض نفسه تحليلا نفسيا مع ما تجد من حكايات حدق الطبيب، فإليكم القصة بلسان المريض نفسه - أن التهانوي ولو كان طبيبا أحذق، وعلاجه أعظم تأثيرا ونجاحا، ولكن لا يمكن التقييد بالاحتياطات الدائمة والعلاج المستقل الذي يقول به والذي لا يستطيع تحمله، وأعظم من ذلك همة المريض وقوة تحمله بغض النظر عن الطبيب. حينما نظرت إلى تواضع الشيخ الديوبندي (المدني) وسداجة طبعه وبساطته ظننت أنه لا يأمر بأي تقييد فالأحسن أن نبايعه عسى أن ننتفع به بعد لأي أو شيئا فشيئا، ولكنني أتخلص من مرارة الدواء. وأي شيء أعظم منه تسويلا لنفس المريض^{١١٧} إلى متى يفكر هذان المفكران الفلسفيان؟ وإلى متى يخاطبان الحابل بالنابل؟ عزما الآن على أن يفعلوا شيئا وتوجهها إلى ديوبند ليعرض القضية بين يدي الشيخ حسين أحمد المدني. يقول

^{١١٧} حكيم الأمت نقوش وتأثرات، ص: ١١-١٢.

الشيخ عبد الماجد الدرايبادي وهو يكشف عن بعض أسباب لحسن اختيار المرشد: "وتقرر عزمي لأن أذهب مع تربي المولوي عبد الباري الندوي إلى ديوبند، وفي أواخر شهر يونيو سنة ١٩٢٨ وصلنا في الصباح من لكتناؤ إلى محطة ديوبند، وهي أول مرة أزوره، ورأيت فإذا الشيخ (المدني) جاء بنفسه على المحطة، يرحب بنا، فاعترفنا بمجده. لا أعلم لم يحبه غيرنا من أصحاب العقائد السليمة الصحيحة. أما أنا فأعد إثارة وتواضعه وإخلاصه أعظم متاعه^{١١٨}.

وبغض النظر عن علمه وتقشفه انظر إلى تواضعه الذي قال عنه الشاعر: "رب أشعث أغبر رفعناه بهذا التواضع الذي كثيرا مايعمل عمله وينفع صاحبه"، فقد رأيتُه فذا فريدا في تواضعه منذ سنة ١٩٢٨م إلى سنة ١٩٤٣م بل إلى العام الجاري ١٩٤٨م، ويصدق عليه البيت الآتي الذي قاله الشيخ محمد علي جوهر عن شيخه عبد الباري الفرنكي محلي:

"ليس ذلك إلا من تواضعه وكرمه، فإن الشيخ لا يخدم تلميذه" ولعل الناس لا يفرحون باستخدام غيرهم. وإن رافقته في السفر جاء لك بالتذكرة قبل أن تصل مكتب التذاكر، ودفع أجرة

^{١١٨} وقد تأثر بصفاته هذه منذ أول عهد به إذ كان يحضر كلاهما (المدني والدرايبادي) في حفلات حركة الخلافة. يرى مثل هذه الأمور وتأثر به الشيخ محمد جوهر علي لذلك، فأشار على الدرايبادي ملازمته، ولهذا الأسباب ولبايعته الدكتور عبد العلي كان الشيخ عبد الباري الندوي معتقدا له ولكن ميلهما (الدرايبادي وعبد الباري الندوي) إلى التهانوي أثر في نفس الشيخ المدني، حتى أشار عليهما بأن يتصلا بالشيخ التهانوي.

عربة الخيل، ويدك لا تزال تجول في جييك تتصفح الرويات، وبسط لك الفراش بيده في القطار، وأحضر الماء في إبريقك، وحمل بيده متاعك ١١٩.

وخلال إقامتنا بلوبند ثلاثة أيام تحولت سائر الرويات مشاهدات. كل يوم قرى لنا، طعام بعد طعام، وشأي بعد شأي. وسألناه البيعة فقال: ليس ههنا شئ، نذهب إلى كهانه بهون، وكنا قد نوينا ذلك من قبل، فقصدنا يوما كهانه بهون، وكنا كما قال الشاعر: "سار مؤمن مع ورع إلى الكعبة" إلا أن معنا ورعين^{١٢٠}.

وليست رحلتنا إلى الكعبة، وإنما هي إلى الكعبة المقصودة المطلوبة، ومن يكون خيرا منه دليلا في مثل هذا السفر. سبحان الله! كأن لم يكن كتب لنا مثل هذا السفر للميمون. ولثل هذا يقول الشاعر: "أمنيتنا الوحيدة أن نرى شعرها الموفور المتلف. ما أسفها! أين نحن من مثل هذه العزيمة والهمة."

وصل هؤلاء الشيوخ إلى حضرة التهانوي بتهان بهون، فسر بقدمهم، وأخرج لهم شيئا من وقته، وسمع مآلديهم، واستمع إلى المدني وإلى كليهما، وانتهى الأمر إلى أن الشيخ المدني

^{١١٩} عد الشيخ الدر يابادي أوصافه التي أرادها، وقد بقي شئ كبير منها: فهو الذي يصدق عليه المثل: حدث عن البحر ولا حرج. وكان جد كاتب البطور السيد محمد مسلم الحسيني مابعا للشيخ الديوبندي الذي يعرف بالمولانا المدني. يقول: لا يمكن أن يسبقه الناس حتى في التسليم، وكم مرة ذهبتنا إليه باستعداد تام من قبل ولكن حاز قصب السبق. ويقول السيد مسلم الحسيني: قلت له مرة: أنا مذنب، كم ذنبا اقترفته، فادع الله أن يغفر لي، فقال "ذلك أقول في نفسي". ثم سألته أن يفرغ لي شيئا من الوقت، لأعرض بين يديه ما قد طرأني، فحدد ساعة، فلم نستطع أن نقدرها بطريق صحيح، فحاء الشيخ على الميعاد، وبحث عنا فلم يجدنا فلما التقيناه بعد ذلك لم يكن منه إلا أن قال: حضرت على الميعاد. ثم عين لي وقتا آخر. سبحان الله! الله دره من رجل وهب مثل هذا التواضع الذي يخجل تلاميذه.

^{١٢٠} الورع الثاني الشيخ عبد الباري الندوي الذي كان أبوه أيضا شيخا صالحا ورعا.

هو الذي يباعه، الاتزان الذي حققه كل من الشيخ عبد الباري الندوي والشيخ عبد الماجد الديرابادي لكلا الشيخين وإدامة الحب والصلة بهما، صدق في ذلك الشيخ أبو الحسن علي الندوي إذ يقول: "وتمت بيعتهما أصلاً بيد الشيخ المدني"^{١٢١}.

والشيخ عبد الباري يمتاز عن زميله الخاص الشيخ عبد الماجد الديرابادي الذي يتفق معه ذوقاً بأنه أدام اتصاله بكل من الشيخين شيخه للدين وشيخ تربته التهانوي بغاية من الاتزان، ولم يقل توقيره وحبه معه رغم اتساعه الفكري مع الشيخ التهانوي وحبه إياه، ويصدق عليه شطر من بيت شاعر يقول فيه:

"من الذي وفر كلا من الخمر والسندان؟"

واتصالهما بالشيخ التهانوي إصلاحاً وتربية وبالمدني ببيعة أدهش الناس، وذلك لأن شيعي الطريقة التهانوي والمدني كان بينهما خلاف نظري في بعض المسائل منذ أيام فأصيب الناس بسوء التفاهم، وظنوا أن قد نشأ بينهما التوتر، فظهر بهذا الحادث نموذج رائع من توادهما واتصال الواحد منهما بالآخر فلهشوا وعضوا على الأنامل. وحكى هذا الحديث الذي يمتلى تأثيراً وروعة الشيخ عبد الماجد الديرابادي في كتابه "حكيم الأمت: نقوش وتأثرات" بأسلوب رائع ممتع، وبناءً به كتابه هنا فمن شاء أن يقرأه فليراجع الكتاب المذكور أعلاه.

بين يدي عارف حيدر آبادي:

كان الشيخ الشاه حسين ولياً من أولياء الله وشيخاً قوي النسبة. عرف بصفته ترجمانا

^{١٢١} وكلا الشيخين لما وصل إلى الشيخ المدني بدوبند، لبياعه. وكان الشيخ الشاه السيد منت الله الرحمان في دار العلوم، دوبند حينئذ يطلب فيها العلم. الشيخ الرحمان نفسه يكتب في ذلك في هامش "مكاتيب كيلاني": "وكانت ببيعة الشيخ عبد الباري بيد شيخ الإسلام حسين أحمد المدني، وكنت طالباً في دار العلوم، دوبند حينما زار الشيخ عبد الباري وعبد الماجد الديرابادي دوبند للبيعة" (مكاتيب كيلاني، ص ٢٦٠).

وشارحا لعلوم الشيخ أكبر ابن العربي، بالإضافة إلى إشداته بعلومه ومعارفه كان الشيخ مناظر أحسن الكيلاني يحافظ على مجالسه وصار يتزلف إليه حتى صار تلميذا له خاصا، وحصلت له إجازته. وأما غيره من العلماء الذين يحضرون في مجالسه فمنهم الشيخ عبد الباري الندوي والشيخ لطف الله بن الشيخ محمد علي المونكري والشيخ فضل الله حفيد الشيخ محمد علي المونكري، ومن المثقفين بالتقافة العصرية البروفيسور إلياس البرني والدكتور مير ولي الدين، أولهما ترجمانا له وثانيهما لسانا له. والشيخ فضل الله الذي عرف بشرحه "فضل الله الصمد" لأحاديث "الأدب للفرد" (الذي صنفه الإمام البخاري، وليست فيه إلا الأحاديث التي تتعلق بخلق الإنسان) نال إجازته. الشيخ عبد الباري وإن لم يتصل به روحيا وإصلاحيا ولكنه استفاد منه كثيرا بالملزمة على حضور مجالسه. ويذكر الشيخ الشاه السيد منت الله الرحمانى ملون "مكاتب كيلاني" اتصاله بالشاه حسين أحمد بأسلوب بليغ رائع:

"وكان الشيخ عبد الباري الندوي يدعوه بابن العربي لهذا العصر، حتى يرى أن أسلوبه الكتابي عليه ومضة من كتاب ابن العربي "الفتوحات" ١٢٢.

ويذكر نشاطاته في مجال التدريس والتصنيف والمطالعة، يحضر مجالسه مع الشيخ مناظر أحسن الكيلاني. كان الشيخ حسين يشغل منصب القضاء في دكن كما كان خلفا جازا للشيخ مجلى الشاه أحد المشايخ والصوفية من السلسلة الجشئية. كان التوحيد غالبا عليه، ولم يكن يخلو أي مجلس من مجالسه أو ملفوظ من ملفوظاته من ذكر الله تعالى. وليس صاحب قال فحسب وإنما هو صاحب حال. والتقى توحيده بالتوحيد الوجودي. يعرف أصحاب العلم أن هذا المشرب (التوحيد الوجودي) يؤدي إلى راحة وهنوء الأذكياء من طلبة الفلسفة وللتخصصين فيها، وأنحص منهم الذين مروا بمرحلة الجحود أو الارتياب (ومنهم الشيخ عبد الباري)، وكلما جاء الشيخ عبد الباري إلى لكناؤ، أشاد ونوه بذكره، وحكى أحاديث غلبة

التوحيد عليه، ويجرد ترغيب أخيه الكبير إليه زاره عند رحلته إلى حيدرآباد لعيادة مريض. وحمل أخيه على أن يرسلني إليه للاستفادة منه، ولكنني لم أسعد بذلك. وكان الكيلاني متأثراً به أشد التأثر، بل امتزج لونه الذي اصطبغ به الشيخ عبد الباري بلون الشيخ التهانوي، فخف الأول، ونشأ بذلك لون جديد. وبفضل توفيقه بين اللونين لم يظهر بينهما أي صراع أو اختلاف. ومن المستفيدين من الشيخ حسين وبجازه البروفيسور محمد إلياس البريني الذي قام بتكوين ملفوظاته وإفاداته^{١٢٣}.

وزاره الأديب الضليح، الناقد البصير، الأديب الإسلامي الشهير ماهر القادري. والشيخان مناظر أحسن الكيلاني وعبد الباري النلوي هما اللذان عملا في ذلك ورغباه إلى زيارته. يقول ماهر القادري:

"زارني مرة الشيخ مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الباري النلوي، وذهبا بي إلى مجلس العارف الشهير للمولوي محمد حسين ولم يزل يشرح العارف الصوفي معنى كلمة "لا إله إلا الله" منذ أكثر من ساعة. وعظه لا يوجد حتى في كتب الأخلاق والتصوف كما يقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني"^{١٢٤}.

زيارته للشيخ التهانوي مرة بعد أخرى وإجازته:

لم تكن بيعة الشيخ عبد الباري إياه عفواً أو ظاهراً، لا انقياد فيها ولا اطلاع على حاله، ولا يكون فيها أي كد وجهد، بل أسلم نفسه إلى المرشد كلमित في يد الغسال. وكثيراً ما يسافر إلى كهانه بكون وقيم بما أياماً طويلاً. يقول الشيخ السيد سليمان النلوي وهو يكتب رسالة إلى الشيخ عبد الماجد الدرابادي في النصف من شهر مايو سنة ١٩٤٢م: "المولوي مسعود علي مقيم مع المولوي عبد الباري بتهانه بكون منذ ١ من يناير". ويتضح من خلال هذه

^{١٢٣} بران جراغ، ١٢٠/٢.

^{١٢٤} ياد رفتكان (ذكر الناهيين) ١٦/٢.

الرسالة أن قد مضى أكثر من أسبوعين منذ أن أقام بتهانه هون، وكان غامفا على خدمته عندما أراد الشيخ التهانوي أن يسافر إلى لكتاؤ فسافر معه واعتاد ههنا أيضا أن ينام على زيارته فتأثر بذلك الشيخ التهانوي وسر حتى لما سأله أن يقضي ليلة في منزله المدعو بـ "شبهستان سعادت" الواقعة بشارع سيتافور، لكتاؤ أجاب دعوته وقضى ليلته فيه مع أهله وبعض خدمه، والواقع أن الشيخ عبد الباري صار أقرب وأخص الناس به، وحصلت له به صلة جعلته مجاز طريقته - مع اختصاصه بإجازة البيعة - بالإضافة إلى ما نال من ثقته، ولا يعلم أنه بعد كم مدة حظي بهذه السعادة منذ أن اتصل به لإصلاح نفسه إلا أن شيخه وثق به منذ أول يومه، ولم تزل تقوى صلته به منذ أن زاره وعرفه، وخلال حياة الشيخ التهانوي نال تلك المكانة التي يعتبط بها الشيخ منظر أحسن الكيلاني - الذي عاصره وعاش معه إلى مدة طويلة - في رسالته التي يكتبها من دكن، حيدرآباد إلى العلامة السيد سليمان النلوي في ٣ من شهر مارس سنة ١٩٤٣م المصادف ١٤ من صفر للظفر سنة ١٣٦٢هـ، ونذكر منها الجزء الذي يتعلق بالموضوع:

سيدي الكريم زادكم الله عرفانا وقربا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حقا، صرتم أعظم منا بكثير، ولو كنتم عظماء من قبل، فسعدتم الآن بخلافة الشيخ التهانوي المعروف بحكيم الأمة، كما تشرفتم بخلافة العلامة شبلي إلى أربعين عاما، وها أنتم تحظون بعد الأربعين من عمركم بخلافة الشيخ التهانوي، فيصدق عليكم قول الشاعر: "مازلنا ملعين للخمر، ومع ذلك لم تفتنا الجنة"

ويضيف قائلا: "ماذا أقول؟ أعيش كما يعيش الناس، وعندما أراك أنت والشيخ عبد الباري أتذكر البيت: "إن أصحابي الذين أسرعوا في السير سبقوني ولحقوا بالحمل^{١٢٥} وأما أنا

^{١٢٥} والمراد بالحمل في البيت راحلة ليلى، ولعل المراد بذلك أنهم وصلوا إلى غايتهم المنشودة.

فظللت طربا بلقات جرس القافلة". وماذا أقول سوى أن الشيخ عبد الباري أرباً من أن يعتبط به، وإنه الآن عندي ولي عارف بالله. كثر الله أمثاله" ^{١٢٦}.

ويقول في رسالة وجهها إلى العلامة السيد سليمان النلوي بعد وفاة الشيخ التهانوي:
"لا ينقضي يوم إلا يزداد فيه شأن الشيخ عبد الباري النلوي غبطة. الحق أنه عارف أكرمه الله
بصلاح الباطن والخشية له" ^{١٢٧}.

ولما نشأ اتصاله بالشيخ التهانوي وتوثق ليصلح نفسه ويتفتح به لم ينظر إلى الوراء بعد
ولم يكسل وانقطع إليه بعد ماضي الشيخ للمدني باتصاله به. ولم يرض فحسب بل هو الذي
أشار عليه بأن يفعل ذلك فيسافر إلى تمانه بجون من لكاناؤ إذا كان فيها، ومن حيدرآباد إذا كان
فيها، يقيم بها لمدد طويلة، وقد رأينا الشيخ مناظر أحسن الكيلاني يثير شوقه ويحثه على زيارته،
ويغبط بجهده وشلة طلبه. وقد مرت بكتاب هذه السطور رسالة ذات أهمية بالغة وجهها إلى
زميله الشيخ عبد الباري النلوي من وطنه كيلان حيث كان يقضي إجازته الصيفية. بينما كان
الشيخ عبد الباري يستقي من منهل العرفان ويرتوي من ينابيعه الثرة الفياضة في مركز العرفان
والسلوك بتهانه بجون، وهو يهتر طربا، والرسالة مؤرخة بـ ١٩ من مايو سنة ١٩٣١م
المصادف ١ من محرم الحرام سنة ١٣٥٠هـ، ومن أجزاء الرسالة مايلي:

"تلقيت رسالتك ولكن بعد انتظار شديد، وليس ذلك أول خير أسلته عارف
فلسفي من ندوة العلماء" ^{١٢٨} إلى مولوي شقي من ديوبند ^{١٢٩}. جزاكم الله خير الجزاء.

^{١٢٦} مكاتيب كيلاني: ١/٢٢٥-٢٣٠، دونها الشيخ منت الله الرحمان ١٧ من أغسطس عام ١٩٤٤م.
^{١٢٧} مكاتيب كيلاني، ص: ٣٥٢ (المؤرخ في: ٢٧ من شعبان سنة ١٣٦٣هـ، المصادف ١٧ من
أغسطس سنة ١٩٤٤م).

^{١٢٨} المراد به الشيخ عبد الباري

^{١٢٩} يريد به كاتب الرسالة نفسه

وكيف لا تحب نفحات الرحمة الإلهية، وكيف لا تفوح رائحة المدينة الطيبة في مكان يتمثل فيه تمثال حي من الحب النبوي أمام العيون. إنك من السعداء فانتفع به وانتهر صحبة الأولياء. وأما هنا العبد المتواضع فقد كتب له الاعتزال بكيلان^{١٣٠}

قصة السلوك والعرفان يحكيها الشيخ عبد الباري الندوي:

ونقدم إليكم قصة استفادته من الشيخ التهانوي واتصاله بالشيخ المدني في مجال السلوك والعرفان بلسانه، فإذا كانت ممتعة فإنها تتضمن في ثناياها دروسا وعبرا، فليحتر بها من شاء أن يعتبر، وهي منار هدى لأولئك الذين يسرون في دياجير الظلام، ويتيهون في ظلمات بعضها فوق بعض، والقصة مقتبسة من كتاب "بزم أشرف كي جراغ": "لقد مرت ستون سنة منذ أن نشأت بيني وبين الشيخ عبد الماجد الدرايادي صلوات الود والصدقة، وكان حينئذ طالب الفلسفة في البكارلوريوس وكنت طالبا في التوسطات، وقد ابتلي حينئذ بالعقيلة والارتياب ثم الإلحاد. سمعت أن والده حينما سافر إلى الحجاز للحج لم يزل يدعو له باكيا متضرعا، فتقبله الله نفسه كما تقبل دعائه، حيث لم يؤذن بالرجوع منها إلى وطنه إلى أن لفظ فيها أنفاسه الأخيرة ليدخل جناته التي أعدت لأمثاله. وإليك - أيها القاري - قصة أخرى، وهي أنه قد تغلغل في قلبه حب الشيخ محمد علي جوهر بالإضافة إلى ما كان يكنه له من قبل، وذلك خلال الحركات التي كان يديرها، ولجحد حبه دخل في مجال السياسة ولو لأيام قلائل، ولعله شغل منصب رئاسة لجنة الخلافة، أترابرايش، كما كان مشرفا ومسئولا عن صحيفة "هملرد" التي كانت تصدر من دلهي تحت إدارة الشيخ محمد علي جوهر إذ فوجئت يوما بأنه يريد أن يبيع أحلنا وسمه - إن شئت - برد فعل ضد الإلحاد، وإن شئت ظننته دليلا على قبول دعاء أبيه، وكانت صليتي به أقوى وأوثق إلى حد أنه أراد أن يجعلني رقيقا في هذا السفر أيضا، وقد مال

^{١٣٠} مكاتيب كيلان دونها الشيخ منت الله الرحمان.

إلى الشيخ المدني، وعزمتنا على مبايعته، فلما وصلنا إلى محطة ديوبند، رأينا أن الشيخ المدني جاء بنفسه، وماكاد يفتح باب عربة القطار حتى اندفع نفسه دون الحمال إلى متاعنا ليحمله على ظهره، وكان معه بعض الطلاب، فأخذوا منه المتاع ووضعوه على عربة الخيل، وأجلسونا معه، وكان في تلك الأيام مقيما في منزل الشيخ محمود الحسن الديوبندي، فأوينا فيه ثم قال في الأمر الذي حضرنا له: "لست بذلك أهلا، والأحسن أن تبايعا الشيخ التهانوي". فقال الشيخ عبد الماجد الدرابادي معتمدا على فطنته: "حضرة الشيخ! سمعت أن أولى خطوات هذا الطريق إخراج نفسه من الاعتداد والاستبداد بالرأي، فلو عصيناك عند أولى خطواته فكيف نرفع خطانا لتقدم إلى الأمام" فسكت الشيخ كأنه سمع ما قيل، وذهب بنا غدا إلى الشيخ التهانوي بأول قطار من ذلك اليوم، وما كاد الشيخ التهانوي فرغ من صلاته حتى وقع نظره على الشيخ المدني، فجاء به معه إلى مجلسه من أحد مناخله الثلاثة وسرعان ما أمرنا بالحضور بين يديه، فعندئذ رأينا أن كل واحد منهما يقول لآخر مؤكنا: "لست بذلك أهلا. يابح أنت". ثم خلا الشيخان للقاتق، ثم رأينا أن الشيخ المدني يلح على طلبه، فانتهى الحديث إلى قولة الشيخ التهانوي الجميلة المليئة بالحكمة: "مأنا ولا أنت بمنيد أو شبلي. وإن كان كلانا جلدوا بالبيعة والإصلاح ولكن اذهب بما معك لما يوجد بينك وبينهما من انسجام فكري واتفاق حركي." واستببط الشيخ التهانوي هذا الانسجام من الزبي الذي كان الشيخ الدرابادي مرتديا به حينئذ، وهو اللباس الكتاني الذي كان مغطيا له من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، وذلك زي الشيخ محمد علي جوهر أحب الزعماء إليه، ولعلني كنت مغطيا رأسي بقلنسوة كنانية حينئذ - كما أذكر - ثم داومنا على زيارتهما وحضور مجالسهما كل سنة، ولكنني كنت أقيم في زاوية قمانه بهون لأسبوع أو أسبوعين على الأكثر، والشيخ عبد الماجد مع أهله لشهر أو شهرين على الأقل كل سنة، ومن سوء حظي وللتقيد بقيد الوظيفة في حيدرآباد لم أكن أستطيع أن أقضي فيها أكثر من أسبوعين في الإجازات الصيفية، وأزور الشيخ المدني ليوم أو يومين ذهابا وإيابا،

وفاتني أن أخبركم بأننا بايعنا الشيخ المدني عندما رجعنا من "تهانه هون" إلى "ديوبند". بايعنا عندما رجعنا "من تهانه هون" إلى "ديوبند". وأخيرا اقتضت نفسي أن أدم إقامتي بتهانه هون، ولكن لم يكن ذلك عملا يسيرا لاشتغالي بالتدريس في "حيدرآباد"، فكتب للشيخ التهانوي رسالة توصية إلى النواب جهتاري، الصابر الأعظم لحيدرآباد، وأسلمها إلى النواب باغيت أخ زوجته أو زوج أخته، ليوصلها إلى النواب جهتاري، فلما وصلت إلى النواب جهتاري سألتني أن أتناول معه الشاي عصر اليوم وأرسل لي سيارة، وقال: أشفع لك أن تمنح راتب التقاعد قبل لليعاد، ولكن القدر المبرم لا يتغير فقال مجلس الجامعة ردا على شفاعته: لقد بقيت من مدة وظيفته خمس سنوات، وليس عندنا رجل غيره نعيه مكانه، فيعذر إليكم المجلس لما لا يمكن امتثال أمركم. وكان الشيخ التهانوي يريد أن أقيم معه دائما، حتى لما زرته للمرة الأخيرة وذلك في مرض وفاته سألتني: ماذا صنع جهتاري، فأردت أولا أن لا يلتفت إلى ذلك ولكنه لما سألتني مرة أخرى، دفعت إلى أن أقول: لو كان الرئيس الأعظم أشد قوة ومهابة مما هو فيه لنفذ أمره في لحظة واحدة، ولكن المجلس كتب ردا على شفاعته الرئيس - لضعفه - أن قد بقيت من مدة عمله خمس سنوات، وليس عندنا رجال أكفاء يتولون هذه الوظيفة فمعذرة إليكم لما لا يمكن تنفيذ أمركم. ولم أكن أريد أن أحكي بين يديه القصة بنصها وفضها، ولكن تعبيره عن أسفه وتحسره على الأمر دفعني إلى ذكرها فقال: "أسفا! لم يستطع جهتاري أن يصنع مثل هذا الأمر التافه". أما النواب جهتاري فقد شاهدت بأعين حبه وحفاوته بالشيخ التهانوي وذلك عندما قدم الشيخ لكانا للعلاج كان النواب حاكم ولاية آراباديش، وحينما جاء يوما يعوده جلس في طرف من الأرض حيث توضع الأحذية. وعلى كل حال فإن سوء حظي هو الذي أدى إلى ذلك، وقد أردت أنني إن منحت راتب التقاعد بتوفيق من الله وفضله أكرت دارا في تهانه هون واستوطنتها ما دام الشيخ حيا، كما فعل السيد خواجه ولكن لم أكن لأحظى بهذه السعادة.

وأذكر مما من الشيخ التهانوي علي ولم يمن مثله على أحد غيري أني كنت أزوره مع سائر أهلي في ثمانه جون ثلاث مرات كل سنة إلا أنني ما كنت أقضي عنده أسبوعاً أو أسبوعين خلال الإجازات الصيفية وذلك ذهاباً وإياباً من حيدرآباد، وذات مرة قال لي الشيخ: لم لا تكون ضيفاً لي إذا زرت لمثل هذه المدة القليلة. فذلك من فضل الله وتوفيقه إلى ملازمة الشيخ التهانوي أن خرج من لساني: على الرأس والعين، كيف لأسعد بضيافتك فقال: فلا بد لك من أن تذكر مواعيد الطعام، وماهي أشواقك؟ وما هو أحب الطعام إليك؟ فقلت: لا أكل إلا ماتاكل، من الخبز والعدس واللحم، وشيئا من الحلاوى أتناوله كل صباح ومساء، فإن لم يتيسر فالجليبي ممزوجاً باللبن، وهي عادي حتى اليوم، وأما الجانب الذي تأثرت به أكثر مني بجوابه الأخرى فهو جانب التقوى وهي الركيزة الأولى للاهتمام بكتاب الله حيث اشترط بما الله سبحانه بقوله: "هدى للمتقين" بعدما عرفه بـ "ذلك الكتاب".

و كنت مصاباً بفساد مضغعة من جسدي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا فسدت فسد الجسد كله" وأهككت قلبي ودينني أدواء معضلة فتاة قبل زيارته ومنذ أن زرته وحضرت في مجالسه أصلح الله قلبي وأزال منه ما أصابه من داء وفساد بمجرد فضله وكرمه وتوفيقه، ثم لملازمته ومعالجاته الحكيمة.

لست علماً بالشريعة ولا بالطريقة (علم التصوف)، ولكن أقول بفضل ما تطلعت من موائد أمثاله من المشايخ والأولياء: من شاء أن يرى جمعا مترنا صحيحا بين الشريعة والطريقة دون تمييز أحدهما من الآخر فليذهب إلى الزاوية الأشرفية - زاوية الشيخ التهانوي - ولا يسع لأحد حتى لعالم متصلب ناقد أو باحث في السلوك والطريقة أن يأخذ عليه شيئا، وإذا رأيت فيها كتاب "السنة الجليلة في جستية العلية" يدرس وتلقن منه كيفية استحضار "الله أكبر" فإنك تجد أيضا كتاب "التبئية الطربي في تزيه ابن العربي" لتعليم الطريقة والسلوك.

أما التعليم والتربية فإن الله سبحانه خلقه لذلك وحول هذا الهدف الأساسي تنور

رحى حياته، وكان يهتم في ذلك بأكثر مما يهتم به الطالب، بل الطالب لا يكاد يصل إلى حيث ينتهي، وكان مما يرعى جانب إصلاح الطالب ونفعه من خلال مكاتباته ومجالساته ومكالماته ومن كل شيء، تافها كان أو عظيما، حتى لم يكن له من المشروط أو اللازم للاستفادة منه أن يكون تلميذا له، وأذكر أن الشيخ التهانوي نفسه حدثني يوما أنه إذا لم يكن الواحد تلميذا له استطاع أن يلقيه كيفما شاء بكل انشراح وسهولة.

كثيرا ما رعى الأطباء الأمراض لا المريض، وقليل ما يلتفت الإنسان إلى الأوضاع الشخصية أو اختلاف الأزمنة والأمكنة، فكان الشيخ يرعى كلا الجانبين وقت المعالجة الروحية، من الأكل قليلا أو النوم قليلا وما إليهما من رياضات ومجاهدات شاقة، فرك إصلاحها للمتعايشين في العصر الراهن، ويرعى قوة تحمل الرجل وملازمة طبعه وذوقه عند تلقين الأذكار والأشغال وغيرها من الأمور الدينية والأحكام الشرعية التي كانت موضع رعايته، وكان يوليها بالغ عنايته. وكانت بصيرته في تشخيص أي داء أو معرفة نفس صالحة من أخرى طالحة أدق وأدهش للغاية، ولا ينتهي خبير بعلم النفس إلى حيث ينتهي شيخنا، ولا يستطيع أن يدرك ما يتركه هو.

إن الواحد يرى في نفسه صفة يظنها تواضعا، بينما يسميها الشيخ بالكبر، ولا يكاد يلبث الرجل حتى يتيقن أنها الكبر لا التواضع، وطلما يحكي بعض الناس بين يديه من أمره ما عسى أن يظنه غيره من المرشدين أو المشايخ آية ولايته، ويتيقن أنه أحد أولياء الله، ولكن الشيخ يأمره بأن يراجع طبيبا ليعالج ما أصابه من يوسة وجفاف في دماغه، وكذلك يعتقد الإنسان بعض الأحيان أن قد أصبح كافرا أو منافقا ولكن الشيخ التهانوي يرى أن عمله ذلك لا ينافي الإيمان الصحيح الخالص. إنه يشجع الإنسان مهما كان فاطر الهمة ضعيفها، مشط العزيمة مهزومها، ويجعله دائم الاتصال بالله سبحانه مادامت همته تحالفه، وذلك معنى الدين اليسير. ومن أبرز أخلاقه ونبل عاداته البساطة، وقلة التكلف، والنظامية، ومراعاة المواعيد، والاهتمام، والمجرد

التكلف أو اتباعاً للأعراف والتقاليد لم يكن يجب أن يختار أمراً أثقل عليه وعلى غيره أو شيئاً لم يكن فيه أي طائل، ولما أن أهل زماننا قد اعتادوا التكلف والتصنع وجعلوا يكثر من فتوغلت في مجالس الشيخ التهانوي من ذلك أشياء لا يألّفها السمع، وتؤدي إلى انتشار سوء الفهم بين جموع الناس. انظر على سبيل المثال:

إن عدداً لا بأس به من الناس يكثر من حضور مجالسه، فكان شيخنا لا يتولى إضافتهم بنفسه، وإن كان قد اهتم بذلك في بادئ أمره، ثم ترك ذلك وفوضه إلى خدامه، فإن الذين يعرفون طبيعته ومنهجه يعلمون حقاً بأنه كلما تولى شيئاً تافهاً كان أو عظيماً أراد أن يؤدي حق أدائه وأولاه القسط الأوفر من اهتمامه، فيؤدي ذلك طبعاً إلى التقليل من تركيزه واهتمامه بالإفادة والإرشاد اللذين هما الهدف الأساسي من حضورهم في مجالسه، وكما أذكر أن الشيخ نفسه ذكر مثل هذا السبب.

وكما رأيت أن بعض الناس كانوا متورطين في ألوان من التوهّمات والافتراضات دون اطلاع على أحوالهم وآرائهم، وعندما حضروا بين يديه جعلوا يوجهون إليه أسئلة واهية لا أصل لها بكل جرأة وشجاعة فكان الشيخ يسوعه ذلك، وخاصة لما يهمنه من شأن غيره، ولأنه لو لم يجدوا جواباً عن أسئلتهم عسى أن يعودوا متحسرين متلهفين على ما كابدوا من مشاق السفر. وأما الراحة والسهولة، والمساواة والمواساة، والنصح والرعاية فإن غيره حتى أولئك أنفسهم لا يستطيعون أن يقوموا بكل من ذلك كما يقوم به الشيخ وإيكم بعض ما حدثت معي ليسهل لكم إدراك الواقع: مرة زرته مع سائر أهله، فأردت أن أكرمي مترلاً غير بعيد من زاوية الشيخ التهانوي، وكان كراؤه روية لشهر واحد فقال الشيخ: لا، بل نصف روية. فقلت: ولا غلاء فيه ولو كان بروية واحدة، فواحدة ليست بكثير. فقال: كم من مساكين يظنونها كثيرة وغالية، وهناك أمر آخر أن أصحاب المنازل يتوقعون الثمن الذي يحدد للمرة الأولى ثم قال لي: قد نظرت في المنزل بأمر عينك؟ صحيح أم لا؟ قلت: نعم، فجاءت معي ليعاينه بنفسه، فشرح عليه

نظرة ثم قصد الكيف الذي لم يكن دار بخليدي، فإذا هو ضيق جدا، ولعله لم يكن يتسع أكثر من قدم واحدة فقال: لعله يسبب للنساء ضيقا ومشقة، واتفق أن خلت عنتيه من سكانها بعد أربعة أيام منذ سفرنا، فأذن لنا بالإقامة بها، وكانت مريحة للغاية.

وأقمت مرة عند زيارته في منزل بعيد عن زاويته بقليل، فكان الشيخ يطلعني أولا على المجلس الذي ينعقد صباحا ثم سائر أهل الزاوية، لئلا أتخلف عنه لابتعادي عنه، ويقول: لا أريد من الاطلاع إلا تبيهك على أنني الآن فارغ، فأت إن شئت.

وكلما زرته شرفني بإضافته مرات، وسعدت بعض الأحيان بمؤاكلته ولكن إذا كان هناك ضيوف لم يأكل معنا، لئلا يتقل مؤاكلته على الضيوف الأكثرين تكلفا، ولم أكن أعرف سبب هذا الأمر، فقال مرة: إذا كان المضيف جالسا على المائدة ازداد الضيف تكلفا واستحياء. إذا كان الشيخ يراعي هذه الأمور في مثل هذا الأشياء التافهة فما ظنك به فيما هو أجل منها وأهم وهذا شأنه في الالتزام بالأوقات، فكان لكل عمل وقت.

ولا شك في أن الالتزام بالأوقات معقود بناصيته خير كثير ومنافع جزيلة لا تحصى فمؤلفاته هذه التي تراها يتجاوز عندها مآت، وإفادة الحاضرين في مجالسه الفجرية والعصرية من الوافدين والمقيمين، وذلك أكثر من أربع أو خمس ساعات، ورده على جميع الرسائل التي يراوح عندها بين خمس عشرة وعشرين، كل ذلك رهين الالتزام بالأوقات والنظامية، ولا يعني ذلك أنه لا يستثنى منه شيئا. القواعد موضوعة للإنسان، وليس الإنسان مخلوقا لها، حتى لا يدخلها أي استثناء ولا محاشاة. ليس ما بين المغرب والعشاء موعد الزيارة، فكانت عادته عدم اجتماعه بأحد بعده، ولكنني كلما سألته أن يخلو بي لأتكلّم معه، منحني نصف ساعة أو أكثر منها بعد المغرب، ولم يزل يستمع إلي مادمت أتكلّم حتى أقبل وقت العشاء مرة بينما كنا نتكلّم، ويكتب التعاويذ والرقى بين الظهر والعصر، ولكنه كتب مرة تعويذا لخادمي بعد العشاء بغاية من الشفقة دون التماس أو طلب مني. إن معارفي يعرفون أنني أشد ابتعادا عن الاعتقاد العاجل والتقليد

الأعمى، وأكثر تمحيصا وتقدا لشيء قبل اتخاذه، وبالرغم من ذلك لم أستطع أن أرى في شخصية الشيخ التهانوي إلا الحب والشفقة بكاملها، هذا شأن قصير نظر مثلي، فما ظنك بنافذ البصر دقيق النظر ولا غرو فيما إذا لم يستطع للتعردون على الشكليات والتصنعات والمظاهر الجوفاء أن يدركوا غاية الطافه وأعطافه ويسيروا غور شفقته وكرمه، ولا عجب إذا حرم متسع جودة الألفاظ وزخرفة الكلمات دقة المعاني وعمقها، وحسن الأفكار وطيبها فيما ألف الشيخ من كتب وكتيبات، وأمثال هؤلاء الناس لا يعملون بمبدأ: "دع اللفظ وخذ المعنى". ولا تنظر إلى طنين الكلمات ورنينها وانظر إلى دقة المعاني وطيبها". ألا إن آفة اليوم حب الظاهر والنظائر بمظاهر جوفاء، وهي آفة شاملة وكل متورط في وحلها إلا من رحم الله، حتى إنهم قد اعتادوا هذا التمويه، والزخرفة، واستخدام الكلمات الرنانة الطنانة، ولغة الشعر الجميلة الخلابة حتى لم يكذب يفيد أي كتاب أو مقال معنى لطيفا أو علما نافعا مهما كان زائرا بدرر ما لم تكن فيه زخرفة الألفاظ، وقد سمعت علما متدينا يقول عن مؤلفات الشيخ التهانوي: "أردت أن أقرأها ولكن لاتسيغها نفسي". وكنت مصابا بمثل هذا الداء فكان أبي يكثر من شراء كتبه وطلبها، ويأمرني بدراستها، ولكن كيف يعيل إليها من أولع بزخرفة الألفاظ وطنينها، وكيف يرغب للمتفاني على حلاوة الشيء ونضارته الظاهرة إلى الشيء المغذي ولو كان مرا.

وبعد أن زرت الشيخ التهانوي وحضرت مجالسه عرفت مدى علومه وأدركت كنه معانيه حتى لم أعد ألتفت إلى غيره بعد ولا ألوي على شيء غير مايقول ويكتب ولا أجد أكثر علما، وأدق معنى، وأعمق فكرا، وأصح طبعاً، وأشد تأثيراً من مؤلفات الشيخ التهانوي. ولا أزال أبحر كيف يجمع أسلوبه بين قلة المياني وكثرة المعاني على كثرة مؤلفاته، وغالبا ما أرى أن لفظة أو جملة استخدمها الشيخ لأداء معنى لاتليق بها كلمة أو جملة أخرى، حتى إذا استبدلت بما ووضعت مكانها لبا بها السمع، واستوحشتها النفس، وفقدت صحتها، وانعدمت جامعيتها،

وتلاشت جودتها، والحق أن هذا هو الفن المطلوب من الأدب^{١٣١}.
اتصاله الإصلاحى بالعالم الربانى الشاه وصى الله:

كان الشيخ عبد البارى الندوى شيخنا مجازاً من الشيخ التهانوى، عاقلاً حازماً نافذ البصيرة، يطب الأدوية الروحية، فما هو العامل الذى حمّله على الحضور بين يدي الشيخ الشاه وصى الله - أحد خلفاء الشيخ التهانوى المصلحين فى عصره - كأنه مصاب بأدواء روحية؟
الواقع أن هنا هو ميزته، وهذا ما يعبر عنه بالتواضع تارة، وبالتفانى فى سبيل الله تارة أخرى. إنه عبارة عن الاعتقاد بأن الإنسان مهما عظمت مكانته فى مجال العلم والعمل فإنه محفوف بمجائيل الشيطان، محاط بوساوسه وهمزاته ووخزاته، ولا يعنى زوال مخاوف إصابته بأدواء نفسية أن لم تبق أى حاجة إلى طبيب روحى شأن المريض اللنف المختضر الذى لا يرى نفسه متحرراً غير محتاج إلى طبيه الذى يعالج مرضه.

وما هو سبب اختياره الشيخ الشاه وصى الله على غيره رغم أن شيخ بيعته حسين أحمد المدنى كان على قيد الحياة^{١٣٢}؟

كان كثير من أبرز خلفاء الشيخ التهانوى أحياء كتب الشيخ التهانوى أسماء أحد عشر منهم فى فهرسه الخاص وكان منهم الشيخ وصى الله وقدم أسماء بعضهم على الشيخ

^{١٣١} بزم أشرف كى چراغ للبروفيسور سعيد أحمد، ص: ٢٧٦-٢٨٣.

^{١٣٢} كانت وفاة الشيخ التهانوى مبعث حزن وكآبة لكل واحد، ولم يزل الشيخ عبد البارى يحبه ويعشقه طول حياته ويزوره ويقوم عنده طويلاً لىتمتع بالحب الخالص والثروة الروحية، وظل بعد وفاته هائماً، قلق النفس، مضطرب الباطن، يبحث عن مرشد، يصلحه ويفيده، فلم يعلق بصره بأى واحد. أما الشيخ حسين أحمد المدنى فإنه كان شيخ بيعته ولكن لم يستطع أن يستفيد منه لآزدحام الناس عليه وحمافتهم عليه تمّات الفرش على الشمع، ولكثرة أسفاره، وحبسه فى السجن مرة بعد أخرى، وبذله قدراً لا بأس به من أوقاته فى كفاح تحرير وطنه، وما إليها من أعمال التدريس والتأليف فالتقت إلى خلفاء الشيخ التهانوى، فعلق بصره بالشيخ وصى الله وقصدته لزيارته.

وصي الله، وذلك ليستفيد منهم من شاء من المسترشدين وقد توفي منهم الشيخ خواجه عزيز الحسن المجنوب، والشاه محمد عيسى الإله آبادي عاجلا بعد وفاة الشيخ التهانوي، وأما الباقون فعاشوا طويلا وظلوا دائبين في إفادة الخلق، فما كان سبب اتصاله به؟ إن من أعظم أسباب اتصاله بالشيخ واختياره دونهم روح تفانيه في سبيل الله، والدعوة إلى إزالة النفاق وإصلاح الأخلاق الذي قال عنه الشيخ أبو الحسن علي النلوي بكل جامعية: "تدور حوله كافة جهوده الدعوية والإصلاحية"^{١٣٣}.

وإيضاحا لهذه الجملة الوجيزة تقدم إليكم مقتبسا من مقال الشيخ أبي الحسن علي الحسيني النلوي الذي كتبه مقدمة لكتاب "حياة مصلح الأمة": "إصلاح الأخلاق والمعاملات، والثقاليد والأعراف، وإسعاد المجتمع، مضمار بطله الإمام المجدد الشيخ أشرف علي التهانوي، المعروف بـ "حكيم الأمة"، ومن اتبعه شيرا بشير وذراعا بذراع، وحنا حنوه كما يحنو الفتى حنو والده دون أن يلوي على الوراء، مغمضا عينيه من كل جانب من بين سائر خلفائه ونظر إلى كل واحد منهم نظرة الإجلال والتقدير - الشيخ الشاه وصي الله الفتحجوري"^{١٣٤}

"وميزة حياة الشيخ وصي الله أنه لم يزل دائما شأن شيخه في إصلاح النفوس وتمهينها وتركيبتها بكل نشاط وفعالية بغض النظر عن مظاهر التصوف ومستغنيا عن نشر سلسلته؛ وظل متابعا عمله، عاكفا عليه، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان الباطن موضع عنايته دون الظاهر، واللب دون القشر، والجوهر دون الجسم، دقيق النظر في حياة للمسلمين وأدوائهم الخلقية والروحية، نافذ البصر في مساوئ المجتمع ومفاسدها، وهي التي يدعوها الشاه ولي الله الدهلوي بـ "غوائل الرسوم" في مصطلحه الخاص، ولم يكن الحاضرون في مجالسه يتنوقون حلاوة العبادة وبشاشة الإيمان والتدبير في اليوم الآجل، وإنما كانوا يشعرون بأدوائهم التي أصيبوا بها،

^{١٣٣} نقلا عن مقدمة: "حياة مصلح الأمة" للشيخ إعجاز أحمد الأعظمي.

^{١٣٤} حياة مصلح الأمة للشيخ إعجاز أحمد، ص: ٥.

العادية منها والخاصة، ولم يكونوا يرجعون منها هادئين مطمئنين، يتمنون على الأمان، وإنما يرجعون نادمين على ما كسبته أيديهم وحتته جوارحهم من ذنوب فيما سلف من أيام حياتهم، متبئين لسلوئهم وعبوئهم، عازمين على إصلاح نفوسهم، وتلك هي حصيلة الحضور في مجالس المصلحين من الأمة وثمرة زيارة المشايخ والأولياء^{١٣٥}.

أربعة أسابيع في الكهف:

هذا هو المقال الأهم الذي كتبه الشيخ عبد الباري الندوي بعد وصوله إلى الشيخ وصي الله، بعدما ظل هائما يبحث عن شيخ مرشد، وأرسله إلى زميله الشيخ الدرايادي، مدير مجلة "الصدق" فنشر فيها معنوناً بـ "أربعة أسابيع في الكهف" وقد نقل كله بعض المؤلفين في كتبهم، واقتبس بعضهم منه شيئاً. إن هذا المقال يحتل أهمية بالغة، خصوصاً للسائرين في سبيل السلوك.

يقول الشيخ عبد الباري الندوي في رسالة له: "ومنذ أن أقفرت زاوية الشيخ الشهانوي — بعدما توفي — لم أجد لي مأوى آوى إليه، ومددت بصري إلى الأوساط الأخرى تارة هائم النفس، قلق الخاطر، ولكن بدقة وإمعان، بما أن صحبة الشيخ جعلتني لأرى الشيء إلا بالتأمل، وكما تعلمون أن بعض الأسباب دفعتني إلى أن آوى إلى مرشد، ولعل ذلك هو المعنى المطلوب من آية: "المضطر إذا دعاه".

"وما دام الصبي لا يبكي، لا يتدفق ثديا الأم لبناً".

وبينما كنت أفكر في هذا الأمر إذ مر بخاطري اسم الشيخ وصي الله الفتجوري، ولكن لم أتذكر وجهه فضلاً عن لقائه أو مكاتبته، ومهما تذكرت اسمه، ازدادت حيناً إلى زيارته، فكاتبته أولاً ووجهت إليه رسالة ذكرت فيها بعض الأحوال الدنيوية التي تؤدي إلى هنا

^{١٣٥} حياة مصلح الأمة للشيخ إعجاز أحمد الأعظمي، ص: ٦.

الجوء والاضطرار، ولم ألبث أن وصل إلي جوابه، وكان كأنما ألقيت ماء على نار، والجواب كما يأتي:

"الغاية القصوى والأساسية من حياة الإنسان في الدنيا ابتغاء وجه الله سبحانه ولا يقتضي رضا الله سبحانه ملاحظة الدنيا، أو عدم ملاحظتها. عسى أن تكون الدنيا مستتبة والله راض، وأما نحن فإننا ضعاف الهمة، فادعوا الله سبحانه أن يكتب لنا ولكم الفلاح في الدارين، وأنا أدعو أيضاً". مثل هذا الكلام وإن سمعته كل واحد منا، ولكن الخاصة من أهل العلم والصلاح قليلا ما يستحضرونه فضلا عن العامة، ولكن الشيخ التهانوي كان يعيد لتلاميذه هذا الدرس بعنوانين حكيمة شتى إعادة لا ينساها حتى غيبي مثلي، ولم يزل يوفر له راحة وهلواء كما يظن هو له ونفسه. ولكن الرسالة المذكورة أعلاه جلدت ذكرى رسائل الشيخ التهانوي تأثيرا وشفاء للقلب، وطمأنة للنفس.

ويدولي أن سلسلة إجازة الأوراد والوظائف التي امتدت عبر قرون، أساسها وجود التأثير والبركة في مكانة المتعلم والمعلم من التعلم والتعليم والإجازة، وليلاحظ ما تمثل شخصية لمربي المعلم من دور رائد مؤثر في بناء شخصية المتعلم.

إن الآباء يعرفون عربة أولادهم، وهنا شأن أولادي وإن لم أدخر أي وسع في إصلاحهم وتربيتهم، وإن بعض المدرسين والمربين قنابوني الفكر وغيرهم أحاطوا بالطفاهم، وأدوا حق تربيتهم شهورا أو سنوات - جزاهم الله عني وعنهم - ولكنني لم أشعر بأن كل تريقا يزيد من السم تأثيرا، فأيقنت أن جميع الحيل والأسباب قد انقطعت والطرق مسلوذة، ولكنني لم أياس من رحمة الله، ودار بخلدي أن لا غرو إذا جعل الله وصية الشيخ وصي الله "أوصيكم بتقوى الله" وسيلة لإصلاح هؤلاء الأولاد المعربدين الأشرار، فكبت إليه كل ما يصنعون من عربة ومشغبة لا يتساعها حتى الأقارب، فكنت خائفا - وكان الخوف حقا - أن الشيخ وصي الله عسى أن لا يأذهم بالالتحاق بمدرسته أو الدخول في زاويته لئلا يعكر ذلك

صفوها، وكتت مدفوعا إلى ذكر عربيتهم لئلا يتخذ عجم، فكان جوابه وجزا جامعا، يترشح من كل سطر من سطوره التوكل على الله، أمرا بأن أرسل أولادي إليه بدون أي تأخير فبدأت أولا بإرسال واحد منهم لأربعين يوما، فلما رجع جاءت نوبة ابني الذي بعدما حفظ القرآن وقرأه كله على الناس في الحراب صار شريرا للغاية، حتى لم يكن يمكث في أي مدرسة، ففر أولا من مدرسة ابتدائية لي بمديرها وأساتذتها صلوات ودية فأرسلته إليها للعديد من المرات ففر كل مرة، من أثناء الطريق تارة، وبعد الوصول إليها تارة أخرى، ولم يزل هائما سنة كاملة، غير مبال للدراسة، فأرسلته إلى الشيخ وصي الله، وكتت خائفا أن يرجع من أثناء الطريق، أو يتخذ طريقا آخر حتى وصلت رسالة الشيخ وصي الله تخبر بوصوله إلى فتحبور، ورأيت أن يلزمه لشهرين على الأقل، فقد كنت أرجو نظرا إلى أخيه الأول أنه يتأثر أيضا، ولم يمض إلا شهر واحد حتى ود بنفسه لو أذن له بالإقامة لسنة كاملة، ويبدو أن كليهما قد انحراف عن جادته السابقة، وحاد عنها إلى الطريق السوي، وإن كان سيرهما بطيئا، ولساني يلهج بالدعاء الذي لفته شيخنا قبل سنوات: "ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما".

وهذا الحادث الذي لم أكن أتوخاه زادني شوقا إلى زيارته وزرته راجيا:

"وبما أن الزهرة قد ذبلت، والروضة قد خربت فالآن لا أزال هائما، أبحث عن راحة الزهرة، فإنها جزء من الزهرة".

أقمت عنده شهرا واحدا، وإن رائحة الورد من روضة تخانه يكون الخراب الياب، لم تزل تفوح حتى شفيت بما نفسي، كان ذلك شهر رمضان المبارك ولعلكم تعلمون بل عسى أن شاهدتم ومررتم بأحان وتسرعات جلوية أو خفية، عمدا كانت أو سهوا، في الصلوات الفردية والجماعية لا تشار الجهل في عامة أئمة المساجد ومصليها، وأما هنا العبد الجاني فكأنه لا ينهب إلى المسجد إلا إسقاطا للفريضة التي كانت عليه، وأما صلاة التراويح في شهر رمضان، فلا تسئل عنها شيئا، كيف ينتهك حقها، وغير مرة اضطرت بذلك إلى تركها، وتارة أؤدي

التراويح داخل بيتي وأما زاوية فتح بور فلا أذكر أنني رأيت قط مكانا غيره نزل فيه من البركات والفيوض الحسية منها والمعنوية مثل ما يترل فيها.

يغص المسجد بالمصلين في الصلوات والتراويح. منهم مائة أو مئتان من العلماء والصلحاء، والناكرين والقانتين، والعامّة أضعافهم، ولله دره من إمام - وهو صهر الشيخ وصي الله القارئ محمد ميين - أكرمه الله بكل خير وسعادة، ظاهرة وباطنة. سيماه في وجهه من أثر السجود. متواضع لله قولا وعملا. تلاوته للقرآن تعبير عن مشاعر القلب. إني وإن لم أكن أسمع كلماته ولكن نفس التكبير الذي كان يردده حيناً بعد حين، منحني لذة وحلاوة لا أزال أتذوقها وأسمعها حتى اليوم. إنه يعطي كل ترويجة حقها، ويستريح قدر ما يقوم في الصلاة، ولا يتسرع حتى لا يفهم منه إلا فواصل الآيات كما يصنع الحفاظ المستأجرون الذين يتسرعون في التراويح، إسقاطاً لأعبائهم وتخفيفاً لأثقالهم التي تتقلهم، ويتسلمون أجورهم من مسجد فيسرعون إلى آخر، والمصلون لا يتخلفون عنهم تسرعاً فلا يكاد يحتم الإمام بالقرآن حتى يفروا بعد توزيع الحلاوى وإشعال السروج^{١٣٦}.

صلى الإمام ميين في زاوية الشيخ وصي الله جزء واحداً من القرآن كل يوم، حتى انتهى منه في الثامن والعشرين من شهر رمضان، دون توزيع الحلاوى وإشعال السرج، ودون عقد أي حفل، ودون إنحلال بالصلاة من الداخل أو الخارج، ولا مشاغبة الأطفال والنساء داخل المسجد وخارجه. ليس ههنا إلا عبودية خالصة. مد الإمام يديه بعد الصلاة فبكى، ولم يزل يبكي حتى جعل المصلون يبكون من هنا الصف إلى ذلك الصف، واختفقوا بالبكاء والتضرع لله حتى دوي المسجد كله: "وكان الحراب يتضرع ويبكي". وبقي هذا الحال إلى

^{١٣٦} حلف القارئ ميين الشيخ وصي الله بعد وفاته، ومن أصهاره الشيخ محمد قمر الزمان الإله آبادي. وهو دائب في إحياء تراث شيخه وصي الله وعاكف على نشر علومه ومعارفه، وله شهرة فائقة في تربية وتركية التلميذ (مريد) بن. أطال الله بقاءهما.

عشر دقائق أو أكثر منها بل ازداد تضرعا وبكاء، فلما جاوز الحد قال الشيخ وصي الله نفسه بأسلوب جامع بين الأمر والحكمة: "حسبك يامين! حسبك".

ما أعجب الأمر! ليست ههنا بيعة ولا إجازة على طريقة التجارة، ولا معهد عصري، أو مدرسة، ولا حفلة، ولا مؤتمر، ولا خطابة ولا كتابة، ولا فصاحة ولا دعوة تشهيرية، ولا جذب الناس بالإكراه. ليس ههنا إلا نداء "أوصيكم بتقوى الله"، ومؤاخذاة بمساوي دينية وأدواء خلقية ونقائص ظاهرة وباطنة، وزجر وتبشيه. المكان ليس بلدة ولا مدينة يزدحم فيها الناس، وإنما هي قرية لا ينهب إليها قطار ولا سيارة، وليس فيها شارع ولا مكتب بريد، ولو لم نجيء بصحيفتنا لما عرف أهلها حتى اسمها، فكأنها كانت كهف القرن العشرين، وأما الخلق الوافلون عليه فلا تسئل عنهم شيئا. يندفعون إليه زرافات ووحلانا، مشاة على أرجلهم، ومعظمهم ركاب الدراجات. إنهم من كل حذب ينسلون ومن كل فج عميق يأتون. يندفعون إلى هذا الكهف من قرى وأرياف، وبلدات ومدن قرية وشاسعة، صائمين متحملين حر الشمس وسمومها وهم في كل يوم من أيام رمضان وافنون عليه، عامتهم وخاصتهم، أغنياؤهم وفقراؤهم، شبانهم وشيوخهم، الجدد منهم والقلمى، الأطباء منهم والمتخصصون، حتى العلماء البالغ عددهم عشرا أو خمسة عشر كل يوم. وما هو السبب الذي يؤدي إلى انجذاب الناس واندفاعهم إلى هذا المكان القفر الشاسع؟ ليس سببه إلا ما عبر عنه الشاعر بقوله: "ويأتي من كل ناحية من نواحيه رائحة من الله فينجذب إليها الخلق ليشموها".

"إن رائحة الله" - الشاه وصي الله - هذه تجمع بين الجذب والجلال في الظاهر، وبين العقل والكمال في الباطن، سالك عارف بالله. مجنوب تنجذب إليه القلوب، جامع بين الكمالات والفضائل، خرج من داره في طلب العلم والتركية وأخذهما من الشيخ التهانوي ولكن الله وهبه قسطا أوفر من علوم شيخه ومعارفه، ويشهد بذلك الشيخ أبو الحسن علي النلوي - فضلا عن أقاربه وأحبابه - الذي اتصل واستفاد من شيخه يختلف عن شيخه التهانوي

ذوقا وطبيعة، وفكرا ومشربا. وقد بلغت الشيخ وصي الله رسالة من الشيخ أبي الحسن خلال إقامتي بزوايته، سأل فيها أن يدعو الله له خاصة في شهر رمضان المبارك، كما تضمنت ذكر استفادته وانسجام طبعه مع علوم الشيخ التهانوي وإفادته وأعجبي اتصاله بشيخ تمانوي الفكر لاختلاف طريقته مع كونه جامعا للكمالات والفضائل. وأبدى ذلك في رسالته التي وجهها إلي من فتحبور. وعند الرجوع إلى لكاناؤ قال مرة ثانية مؤكلا بأنني زرته مرتين، وشعرت بانسجام مع علومه وإفادته، كما استفدت منه أحاديث الإخلاص والحكمة، أطل الله عمره ويقاعه. وهناك جانب تقدم فيه الشيخ الفتحجوري شيخه ومرشده الشيخ التهانوي، وهو سعة الاطلاع على الكتب. فكانت تتعقد مجالس اللرس والتدريس فضلا عن بعض كتب التفسير والحديث والفقہ للمتأولة نحو أخلاق محسني وسكنر نامہ، كل يوم ستة دروس. ولم تكن جارية آنذاك لعلوم شهر رمضان ولو كانت جارية لسعدت بحضورها. ولكن طبيعة الشيخ تدل على أنه لم يكن مقتنعا بتدريس الكتب وتفهيمها الرد والقدر على شروحها وحواشيها كما نرى في المنارس. إنه لا بد من أن يركز مع ذلك على إصلاح الظاهر والباطن، وتوطيد الاتصال بالله تعالى، ويلفت الانتباه إلى روح التعليم الديني، نظرا إلى ما يدخل من مادية في التعليم الديني المزعوم. وتكون حوالب الكتب أمامه فكلما عرضت قضية احتاج فيها إلى استدلال أو استشهاد أخرج منها كتابا أو أمر بإخراجه على الفور. كتيه بمجموعة بعلامات ودلالات وضعها فيها لتكون على ذكر منه. فكان لا يشعر بأي صعوبة في البحث عن الشيء المطلوب. فكما كانت مجالسه زاخرة بأحاديث العرفان والسلوك كذلك كانت حافلة بأحاديث فيها حكمة وشيئ كثير مما لا تجده في غير مجالسه. ويستدل على كلامه بأقوال السلف الصالح ويحيل إلى الكتب إرشادا للطالبيين والسالكين. فأين الطالح من الصالح وأنى يترك الضالعات شأوا الضاليع.

إنني فاسد السيرة والصورة، طالح النفس والظاهر، إلا أنني سعدت بصحبة بعض الصالحين من أولياء الله مصداقا للبيت: "أحب الصالحين ولست منهم". يصيبي شيء من الحزن

والكتابة لما لم أكن من الصالحين، ولكن الحزن على الفاتت لا يردده، وليس فيه شفاء ولا فائدة، ولكن التحسر على الشئ والحزن عليه نعمة من الله عظيمة. ولو لم يكن ذلك لكانت البلية، وإيكم مثالا من أحاديث مجالسه. انظر كيف يهديء ويشفي قلوب الطالبين والسالكين عن طريق التحسر والحزن. إنه طلب مرة كتاب "مكتوبات رشيدية" (وهو مجموعة رسائل الشيخ رشيد أحمد اللكنوي) وقرأ منه عليهم جزء مطربا من إحدى رسائله: يقول شيخ الشيوخ القطب العالم عبد القنوس الكنكوهي: لو نال أحد بعد المجاهدة والرياضة إلى ألف سنين درجة لم تتشأ في نفسي كيفية التحسر والاكتاب على عدم وجدان شئ. وتبه لذلك فكأنه وجد ضالته وحصل على كل شئ عوقال: أسفا كل الأسف! لا أستطيع أن أدرك هذه الدرجة وأن أكتع بكيفية التحسر والاكتاب فلما سمعته يقول مثل هذا القول، فكأنني عثرت على كثر من كنوز الأرض و أن ضالتي وقعت في يدي، دون أن أكون مترقبا له، متوخيا إياه، وجعل لساني يكرر ويلهج بشطر من بيت الشاعر عطار: اللهم! لست أهلا للظفر بشئ، فهبني ولوذرة من لذة التحسر والاكتاب.

فجملة القول أن هذا مثال واحد من أحاديث الشيخ وصي الله المليئة بحكمة وقيمة، تذكرته فحكيت له ليتفع به من شاء من الطالبين. وتجمع شخصية الشيخ الفتحجوري فضائل وكمالات تجلده ذكرى الشيخ التهانوي وتمثل عبقريته أمام العيون حتى تظهر فيهما مماثلة تامة:

١. من أهمها وأعظمها تراث الأنبياء "لا أسئلكم عليه من أجر" و "إن أجزى إلا على الله" أعني الاستغناء التام والتوكل على الله والاتصال به في سبيل خدمة الدين والخلق، حتى لم أستطع أن أرى عليه أثرا بل شائبة من الخضوع لصاحب جاه ومال في خلواته أو اجتماعاته طوال شهر أقمت عنده.

٢. وميزته الثانية - وهي من لوازم الأمر الأول - صراحته وصدعه بالحق عملا بالآية الكريمة "فاصدع بما تؤمر" أينما كان وأيا كان. ومواقفه العجيبة من عملية نشر الدين وتبليغه وتعليمه لا يكاد يخلو منها أي مجلس من مجالسه، ولم يعمل في ذلك بالمداهنة أو المجاملة، ولا تكاد ترى أحدا تسوءه صراحته، عالما كان أو غير عالم، غنيا كان أو فقيرا، ومن الخاصة كان أو العامة الوافدين عليه كل يوم، البالغ عددهم إلى مآت أو أكثر.

٣. وميزته الثالثة تركيزه البالغ على العمل - وأعمال القلب منه خاصة - أكثر من العلم. إنه جعل الإخلاص جوهر الأعمال الباطنة وأساسها، فإن جوهر الإخلاص هو الضامن الوحيد لصحة الأعمال - الظاهرة والباطنة - وصلاحها وسلامتها، وهو ابتغاء وجه الله والتحذر من غضبه والنظر إلى جزاء الآخرة. والواقع أن ضعف هذا الجانب هو الذي أدى إلى نشوء أدواء خلقية وروحية من النفاق والرياء والكبر والحرص والطمع والمادية، فيركز الشيخ وصي الله على معالجة هذه الرذائل والأدواء، وخاصة الرياء والنفاق.

إن كليهما - الرياء والنفاق - عدو لنود للإخلاص، وتفسد بهما الأعمال الصالحة الخالصة الدينية من الصلاة والصوم، والزكاة والحج، وإذا أعننا النظر وجدنا أنهما أصل كل فتنة فردية وجماعية، وأساس فساد سياسي واجتماعي، وأخص من ذلك سياسة وحكومة اليوم فإن صرح كليهما مبني على أساس الرياء والنفاق والمكر والخداع. ونظرا إلى مصداقية "الناس على دين ملوكهم" بدأ ينتشر هذا الوباء في بيوت الرعية فهو عام في كل طبقة من طبقات أهل البلد، حتى لم يعد يعتبر عيبا أو سيئة بين أفراد المجتمع ثم إن جرائم هذه الأدواء تكون دقيقة وخفية للغاية، حتى لا يشعر الإنسان بديسها وجرياتها من عروقه مجرى الدم، ولذلك كان أصحاب

النبي صلى الله عليه وسلم لم يزالوا خائفين من النفاق، حتى الأطباء الروحون الحناق والمشايخ الأجلاء والمتربون بأيديهم ينخلعون وأي طيب أو مرب أحذق من الشيخ التهانوي. وأتذكر قصة تلميذ له يبلده باني بت قدم شيئا من المال للمدرسة الزاوية الأشرفية - زاوية الشيخ التهانوي - وكان تلميذا له قديما، فقبل الشيخ التهانوي ثم دار بخلده أن مثل هذه المدراس موجودة في باني بت، وهذه أحق من تلك، فلم يختار التلميذ للمدرسة الأشرفية دوها، هل فعل ذلك إرضاء لشيخه بدلا من ابتغاء وجه الله طانا أنه يظفر بشيئين؟ هل يظن أنه يستحق الأجر والثواب من الله ورضا شيخه، فدعاها الشيخ التهانوي وسأله، وأي واحد يستطيع أن ينجو بنفسه إذا سئل ونوقش بين يديه فنفت عما في صدره، فرد عليه ما أخذ منه. هذه قصة تلميذ، وكثير من الشيوخ المزعومين يتوخون التملق والرضا من قبل تلامذتهم، وأولئك الشيوخ المزعومون هم الذين يمثلون دورا أساسيا في إفساد تلامذتهم، ولكنك تجد الأمر على العكس عند هذا الشيخ الفتحجوري الذي رباه الشيخ التهانوي وذلك أنه كلما ارتاب في أمر وتبه للتملق منهم، بدأ يقول زجرا وتبها لهم: أنتم عاكفون على إرضائي دون ابتغاء وجه الله؟ حتى إذا ارتاب في الهدايا من المأكولات والمشروبات لم يقبلها قط، وأنا يستطيع أن يقلد ذلك أكثر من صاحب "حكيم الأمت، نقوش وتأثرات"^{١٣٧}. عن الشيخ الفتحجوري، تهانوي الفكر والنوق بحيث يقول: ولا تعرف الزاوية أو المدرسة الفتحجورية تبرعات تروج في هذا العصر لتحمل مصاريفها وقد رأيت بأمر عيني أن مبنى ذا طابقين يحتوي على ٢٦ أو ٢٧ حجرة، مبنطة ومفروشة بالإسمنت تم بناؤه في ثمانية وعشرين يوما، وسمعت أن مبنى مستقلا للمدرسة سيتم بناؤه عما قريب. هنا وانظر إلى غيرها من المدارس الدينية، كبيرة كانت أو صغيرة، إذا أرادت أن تبني حجرات لا يتجاوز عددها رؤوس الأصابع أو أن تحمل مصاريف ليس قدرها أكثر من أربعة أو خمسة آلاف

^{١٣٧} المراد به الشيخ عبد الماجد الدرايبادي، صاحب كتاب "حكيم الأمت، نقوش وتأثرات" وجه إليه الشيخ عبد الباري هذا المقال.

روية، بذلت أقصى ما في وسعها في التشهير بها ولم تأل أي جهد في الإعلان عنها، ويشد المسؤولون عن المدرسة وأساتذتها ومديرها الرجال إلى مدن شاسعة لتسلم التبرعات، وغاية قولي أنني رأيت بأمر عيني أن الشيخ الفتحجوري يركز عنايته على الأدواء الروحية وخاصة الرياء والنفاق فحاسبت نفسي وعرضت أعمالي على هذا الميزان فإذا هي تخف إلى أبشع حد - ولا أعلم شيئاً عن غيري - ومن شأن المسلم أن يظن أن الدنيا مزرعة الآخرة فعرضت نفسي وعملي على هذا المقياس فإذا النفس الأمانة بالسوء ترصد تلك الأعمال التي تؤدي خالصاً لوجه الله، وإذا هي تنقص من الإخلاص وصدق النية الذي لا غنى عنه في أي مجال من مجالات الحياة، وفي أي شأن من شؤونها، غفر الله لنا ذنوبنا وسيئاتنا. وقال شاعر أردني ما معناه:

"ولما خررت على الأرض ساجداً لله صاححت الأرض.

أفسدتني بهذه السجدة التي لم تسجدها إلا رياء"

ولم أتأخر قط في داء النفاق والرياء - اعتقادياً كان أو عملياً - مثلما تدير في بعد تبييه الشيخ الفتحجوري، ولأمر ما كان أجلة الصحابة يخافون على أنفسهم النفاق، وأين أنا منهم "وأنا أرذل الخلاق".

٤. ومن صفاته التي تماثل خصال الشيخ التهانوي البديعة الفذة جمعه بين المصارحة بالنهي عن المنكر وبين الرأفة والرحمة، فكما أنه ينبه ويشدد القول إذا رأى ضعفاً في العمل أو نقصاً في الخلق، كذلك يعمل بأسوء النبي صلى الله عليه وسلم "بالمؤمنين رؤوف رحيم"، فكانت الرأفة ممتزجة بدمه ولحمه، حتى رأته يضطرب إذا رأى مصيبة تصيب غيره، يتعهد المريض بكل من الدعاء والدواء تعهداً لا يتوخى إلا من الأقارب والأخلاء، وشاهدت ذلك حينما أصبت بأمراض تافهة من الحمى والتلات أو كابدت مصاعب شاقة، وشعرت في نفسه بقلق شديد عندما

أقام عنده أحد علماء الدين للإصلاح - وكان من أسرة ثرية - مع سائر أهله وأمه وأخيه، وكان شابا وهبه الله من الإصلاح والسعادة حظا عظيما، وكان يجلس عندي تارة، وكان مصابا باختلال في دماغه، فكانت التوبة تشتد عليه، ولا يبعد وطنه من زاوية الشيخ وصي الله إلا خمسة أو ستة أميال، فلما أصيب بنوبة ذات مرة، فر من بيته تاركا أهله صائما راجلا، عند اشتداد الحر في الظهيرة، فجزع أهل بيته طبعاً، ورأيت الشيخ وصي الله جزعا قلقا بذلك حتى لم يجلس مطمئنا هادئ البال مالم يرجع، ونهاه عن الصوم، وأشار على أهله بأن يذهبوا به إلى طبيب حاذق ليم علاجه كاملا ويتعهدوا به، وكان يهتم بالدعاء له بكرة وأصيلا، وكتب إليه بعض العلماء رسائل يسألونه فيها الدعاء لهم - وذلك أثناء إقامتي بزوايته - فرد عليهم الشيخ بأنه لا يزال يدعو لهم في أفضل ساعات الصباح والمساء، وتدل التجارب والمشاهدات على كونه مستجاب الدعوات. وبعض الأحداث مدهشة للغاية بل كشف بنفسها. وأيها أذكر. إنها أكثر من أن تذكر، ولا تتسع لها مجلة "الصدق" ^{١٣٨} قليلة الصفحات قصيرة الحجم. وكنت أذكر ميزته الرابعة التي تشبهه صفة الشيخ التهانوي فكما أن الشيخ التهانوي يحاسب الناس ويزجرهم وينبهم على ما صدر منهم من نقيصة أو خطيئة صغيرة كانت أو كبيرة، وهذا شأن شيخنا هذا، وكل من زاره وحضر في مجالسه ولو مرة أو مرتين يتنبه، ويخذ لخصلته هذه مثالا من سيرته كيف بلغ من الشفقة والرأفة مبلغه لإزالة ما اعتراني من صعوبة مؤقتة بصديق له قدم مصاب باختلال

^{١٣٨} كتب الشيخ هذا المقال لمجلة "الصدق"

في دماغه: وكان صديقي ذلك تلميذاً بجازا للشيخ التهانوي، فلما جاء الشيخ إلى لكتاؤ لعلاجه للمرة الأولى كان صديقي مقيماً بجانب من بيتي، وشرف الشيخ بيتي بقدمونه الميمون مرات كل يوم وذلك لغاية شفافته وفضله علي، ولما حانت ساعة رجوعه إلى وطنه سألته أن يبيت ليلة في بيتي، فاتفق من سوء حظي أنه متى قدم الشيخ بيتنا مع سائر أهله، وقت العصر كانت نوبته قد اشتدت عليه منذ قليل، ولم تزل تزداد شدة حتى لما أقبل الليل أقض مضاجعنا. لا أعلم ماذا فعل غيري، أما أنا فلم أستطع أن أرفع رأسي ندما ونحجلاً لما أصاب الشيخ مني من أذى شديد، وما إن برئ من مرضه حتى أصيب بأذى شديد فلم يكتحل بنوم طول الليل، وكلما ذكرت هذا الأمر غرقت ندما، فلما أسفر الصبح وكنت أفكر فيما كيف أستقبله اجتهد أن يعالج همي هذا بأساليب لطيفة وطرق حكيمة، وأمر بمغادرته إلى وطنه على الفور، نظراً إلى نوبته الدماغية وامتداد مدتها، وما يكابد أهل البيت من مصاعب، وجلس على باب بيته، وأنه لما وصلت الدراجة أمر بحمله حيث كان يريد، ثم لما رجعت ركبها بنفسه، وظن الحاضرون ذلك تشديداً منه، وكنت مشدوها أيضاً فلما ركب الشيخ الدراجة قال بلهجة المتناجي: "لو لبث ههنا لأقض مضاجع سائر أهل البيت، ولم يبرح من مكانه هذا ولو أمر بذلك، فتخلصتم بحمد الله من المصاعب، وستزول بذلك كلفيته هذه إن شاء الله فوق عمشية الله مثل ذلك، ورأيت حاضراً على المحطة ليودع الشيخ، وعندئذ أدركت سر هذا اللين من خلال الشدة.

وشاهدت مثل هذه الأمور من قبل الشيخ التهانوي لمعالجة مصاعب عائلية

ومشكلات دنيوية عانتها أنا في فترات مختلفة من حياتي، فأزالها بإذن الله ومشيتته، وكم من مشكلات أعانيها فأذكرها بين يدي الشيخ التهانوي، وأفكر لو كان اليوم حيا لعالجها، وأما اليوم أي بعد عشر سنوات أو أكثر منذ وفاته فقد وجدت من يكف دموعي ويمسحها بيده في بلدة فتحبور، وفي هذا الموقف أظل في صراع شديد، وأرى تناقضا أي تناقض، فقد رأيت بعض كبار الشيوخ والعلماء الصالحاء الذين - ولا أعالي إذا قلت - وقفوا حياتهم لخدمة الإسلام والمسلمين ولكن إذا نظرت إلى سلوكهم الفردي بنا لك كأهم ليسوا بأفراد أمة ينلون في سبيلها النفس والنفيس ويتحملون في سبيل إصلاحها وفلاحها من مصاعب تشق معانيلها، ولا يهتمون بالأمر المعروف والنهي عن المنكر ولا يراعون دينهم وحلقهم، ولا يلتفتون إلى إصلاح ذات البين، ولا هم لهم بمواساة الناس والنصح لهم فيما ينوبهم من مشاكل وقضايا فردية واجتماعية، ودنيوية ودينية حتى إن بعضهم ليهملون حقوق أهلهم لاشتغالهم بالشؤون الاجتماعية رغم أنها حق واجب على الإنسان، والثانية ليست إلا فرض كفاية أو مستحبا، ومن المؤسف أن العاملين الاجتماعيين أو المصلحين المخلصين والعلماء النابغين تصدر من ألسنتهم وأقلامهم كلمات تشيد بهم بأن فلانا - فردا أو جماعة - لا يهمه شأن من شؤون أهله ولا يبالي بهم لانشغاله بخدمة الدين والملة، وأظن أن مثل هذه المغالاة - التي تجعل الإنسان لا يهمه أي شأن من شؤون أهله، ولا يهتم بهم شيئا - في الخدمات الاجتماعية دبت بتأثير المجتمع الغربي أو المجتمع اللتقف بالثقافة الغربية، وأما ما يقوم به الشيخان التهانوي والفتحجوري من تأكيد وتركيز على إصلاح الأدواء الروحية وإزالة الأمراض النفسية والردائل الخلقية الفردية، فلم أر مثله بل جزء منه في أي حركة دينية أو منظمة إصلاحية، بل ربما ترى المسؤولين عن هذه الحركات الدينية والإصلاحية يقعون في غفلات تبدي أن هذا الطريق للخدمات الإصلاحية والاجتماعية ليس صحيحا، وإنما هو طريق معكوس، وبعض الطلبة من دراس اللغة العربية والعلوم الدينية يأتون إلي لتلقي درس القرآن الكريم، فأغتنم هذه الفرصة وألفت اتباهم إلى

إصلاح جانبهم الخلقى والسلوك الداخلى والخارجى وأركز عنايتي على الإيمان الفردي والعمل بمتنصياته وتطبيقه على حياته وذلك خلال درس القرآن الكريم حينما يوجه إلى الناس خطاب عام , وخلال اجتماعي بهم في الخلوات والاجتماعات فبتأثير ذلك يتبهون شيئا ويخافون ويحاسبون أنفسهم, ويطلعونني على أدوائهم الخلقية والروحية بتوجيه رسالة أو اجتماعهم بي. إن هؤلاء الطلبة الذين يدرسون القرآن والسنة والعلوم الشرعية, ويسهمون في الحركات والبرامج الإصلاحية, تجد العديد منهم مصابين بأدواء روحية وخلقية فتاكة بالإيمان من الكبر والحسد والنفاق, إلى أشبع حد, قلما نجد مثلها في العامة والجهلاء من الناس, ومن أعظم أسبابه عندي أن هذه المدارس والمعاهد الإصلاحية لا تزال تزداد يوما فيوما تركيزا على الجوانب الاجتماعية والنظرية أكثر منها على الأعمال الفردية والعملية, فلا يخطر بياهم إصلاح الظاهر والباطن, وأظن أن أساتذة المدارس لا يركزون خلال تفسير القرآن الكريم إلا على المعارف والحقائق القرآنية, أو بكلمة أخرى على الفلسفة القرآنية التي عبر عنها الشيخ العارف أكبر الإله آبادي بـ"البلاء الحسن في مجال تفسير القرآن".

وهي معنى لطيف, ولفظ جامع بديع توصل به إلى كنه الحقيقة وأدرك السر حيث يقول:

"لا حاجة إلى البلاء الحسن في تفسير القرآن ولكن جل همك العمل بما جاء فيه, فإن الله سبحانه لا يحتاج إلى أي بلاء أو ثناء, ولا ينفع عنده استبطاط الدقائق والكشف عن الحقائق".

ومن سوء تأثير هذا البلاء الحسن في مجال التفسير أنني مادمت أكشف عن الحقائق وأدرك الرموز والدقائق أرى في وجوه الطلبة نضرة وانبساطا, وكلما قلت لهم: اعملوا بقوله هذه, لم يلبث أن يغشى وجوههم الذبول والتكاسل, وإن كنت لا أهمل جانب البلاء الحسن, فلا أزال أكشف

عن الحقائق من ثنانيا الدرس، ولكن لا يفوتني بذلك لفت الانتباه إلى إصلاح الظاهر والباطن، ف يتم ذلك بتوفيق الله وحمله، ولو بقدر قليل.

وجملة القول أنه إذا كانت الغاية القصوى من الإصلاح والتعليم الديني إيقاظ الوعي الديني في نفوس الأمة أفراداً وجماعات، فالسبيل الوحيد له إصلاح الأعمال وإحداث الثورة فيها في ضوء التعاليم الدينية أكثر منه على الكشف عن المعارف الفلسفية أو البلاء الحسن في مجال الخطابة أو الإنشاء، وتعبير أوسع توحيد المدارس والزوايا، والجمع بين فكرتها ومزج إحداها بالأخرى. ولا بد من أن يكون في كل مدرسة أو زاوية شيخ مرب أو طيب يعالج الأدواء الروحية والخلقية إذا لم يكن كل مسؤل عنها شيخاً وسالكا ولا تقل - بل ترداد - مجالسته عن حضور الدروس ومجالس الوعظ والخطب لزوماً، وأما المدارس الدينية الكبرى فلا تمنح أي طالب من طلبتها شهادة التخرج ما لم تتأكد من رسوخه في العمل مع نبوغه في مجال العلم. حتى إن الشيخ التهانوي لا يقول عالم الدين إلا للعامل به. ومن الحيانة والغدر لصالح الأمة أن تمنح شهادة بلون التأكد من رسوخه في العمل. وحاجة الساعة إنشاء مدارس ومعاهد تعليمية جامعة بين العلم والعمل تنجب العلماء العاملين، ومن نماذجها مدرسة وزاوية الشاه وصي الله، وهي نموذج ضعيف لم يشهر به وأعظم مدرسيها لعلوم القرآن والحديث هو شيخها ومربيها الجليل، كما أن غيره من أساتذتها من السالكين الطالين العارفين بالله، ولو دخل في مثل هذه البيئة أحد طلبة العلوم الدينية أو الدنيوية لم يهمل جانب عمله وإيمانه، ولم يغفل عن إصلاح ظاهره وباطنه قط. إن الميزة العظمى من ميزات النبي صلى الله عليه وسلم التركية أو بكلمة أخرى تركية الإيمان والعمل وتركية الظاهر والباطن مع تعليم الكتاب والحكمة بل الأولى تتقدم الثانية كما تشير الآية الشريفة: "يزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة".

مكاتبته الشيخ زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى واستفادته منه:

توفي الشيخ الشاه وصي الله الإله آبادي في شهر نوفمبر سنة ١٩٦٧م وعامله الشيخ

عبد الباري الندوي معاملة تلميذ نائب عن شيخه متواضعا له، وخداما إياه، بمشاورته وإرشاده يقوم بكل شأن من شؤونه الشخصية والعائلية، ولم تقتر صلته بالشيخ لزياراته ومكاتباته حيناً لاخر فهزته وفاته المفاجئة هذا عنيفاً، فأخذ يبحث عن شيخ مرشد مرة أخرى، بمد بصره في كل جانب، فصادف الشيخ التهانوي في داخل شخصية الشيخ زكريا الكاندهلوي، ولم يمنعه عن الانتفاع به أي شيء من تقدمه عليه سناً، وتقوقه علماً وفضلاً، ونبوغه فيه واشتهاره به بين الأوساط العلمية، وكيف يمنعه ذلك عنه فإن الطريق الذي سلكه بنية الإخلاص والصدق والتواضع لا يلقن الإنسان إلا أن يعيش متواضعا صغيراً، ومن كان صغيراً في عينه كان كبيراً في أعين الناس، وكيف لا يتحقق ذلك وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً.

كان الشيخ زكريا الكاندهلوي أصغر مشايخ عصره سناً، ولكنه يمتاز عنهم مع صغر سنه بمخائص شتى. يقول الشيخ عبد الماجد الدرايادي وهو يصف أحد مجالس الشيخ التهانوي: "وما يجدر بالذكر أن ورد في أحد مجالسه ذكر شيوخ أحق بالبيعة. قلت له: من هم أحق بالبيعة عنك؟ قال: سأكتب لك أسماءهم فأعطيني ذلك اليوم رقعة صغيرة مكتوبة فيها الأسماء الآتية بنفس الترتيب الذي أذكره: "(١) الشيخ عبد القادر الرائي بوري (٢) الشيخ الله بخش، بماول نغر، ولاية بماول بور (٣) الشيخ محمد إلياس، نظام الدين، دلهي الجديدة (٤) الشيخ محمد زكريا، شيخ الحديث، بمدرسة سهارنبور (٥) الحافظ فخر الدين، مدير مكتب البريد (٦) الشيخ عاشق الهبي، ميرت، كمبوه درواز (٧) الشيخ أنور شاه، دلكيل، سورت (٨) الشيخ حسن أحمد، شيخ الحديث، بنار العلوم ديوبند (٩) الشيخ أصغر حسين، الأستاذ بنار العلوم ديوبند ١٣٩".

أسند هنا للفهرس الوجيز إلى الشيخ عبد الماجد في شهر نوفمبر سنة ١٩٣٢م، ولم

يكن الشيخ زكريا الكاندهلوي حينئذ إلا في السنة الخامسة أو السادسة والثلاثين من عمره، ومع ذلك نال هذه الخطوة لديه حتى أنه وضعه في زمرة الأربعة الأول من شيوخ البيعة. ياله من حسن حظها! ولم تزل ترداد مكاتبه رفعة ومرجعية كلما توفي منهم شيخ، حتى نال درجة شيخ المشايخ بعد وفاة الشيخ عبد القادر الرائي بوري سنة ١٩٦٢م، ويمكننا أن نقلر مدى حبه واتصاله بالشيخ التهانوي وسعة اطلاعه على مجالسه وتأثير صحبته برسالة كتبها إلى الشيخ عبد الماجد الدرريبادي سنة ١٩٤١م، حينما قدم الشيخ التهانوي بكنّاؤ لعلاجه للمرة الثانية، وهي الفترة التي بايعه فيها الشيخ السيد سليمان النوي ونشرها الشيخ الدرريبادي في مجلة "الصدق"، معنوناً "صحبة شيخ" مع تعليقه، نقلمها إليكم مقتبسة من كتابه "حكيم الأمت، نقوش وتأثرات": "ظل الشيخ أشرف علي التهانوي مقيماً بكنّاؤ لأيام عديدة في شهر سبتمبر أو أكتوبر، ووقفت حيناً لآخر لزيارته مسافراً من وطني درياباد إلى لکنّاؤ، ولقت أحد الشيوخ العارفين بالله والعلماء المصنفين - الخاملين - وهو الشيخ الحاج زكريا الكاندهلوي شيخ الحديث بمدرسة مظاهر علوم، سهارنبور انتباهي بغاية من الشفقة إلى زيارته والإكثار من حضور مجالسه، فاعتذرت إليه وأخبرته بما أصابني من أعذار وأضرار للإقامة بكنّاؤ. فقال لي كلمة تستحق أن تصدر في مجلة "صدق" حتى يستمع إليها قراؤها وهي إليكم:

"ليس الغرض مما أقول أنكم لا تقضون ساعاتكم الميمونة في عمل نافع، ولم يرغب هذا الجانب عن بالي قط وإنما كان غرضي أن ألفت انتباهكم إلى الاستفادة من الشيخ التهانوي لننو مقره من وطنكم وأن رحلته هذه - كما أظن - لا تخلو عن غرض تربوي مهم، فاجترأت على إطلاعكم على هذا الأمر صادق النية خالص النفس، وكان من المظنون بي أن لا يلفعكم سفركم من درياباد إلى لکنّاؤ إلى أي حرج ولا يسبب أي صعوبة، ولكن ماذكرتم من أعذار وحواجز دون إقامتكم في لکنّاؤ من كثرة أقرباتكم وأصدقائكم فيها، فلا يمنعكم كل ذلك عن القصد إليه والاستفادة منه، وأما ما قلت من أنه يمكن الاستفادة من دراسة ملفوظاته

الضخمة أيضا فلم أفهم ماهو المراد به، وأظن أن كلا من الزيارة والمفوضات ليس مقصودا إليه بالذات، وإنما المقصود بالذات المصاحبة، مصاحبة أهل القلوب، وقضاء ساعات مع العارفين، ودعم صرح الإيمان، والرسوخ في العمل والدين، ولكل من ذلك أهمية بالغة كما نجد لذلك مثالا في العهد النبوي حيث كان الصحابة يحضرون لدى النبي صلى الله عليه وسلم ويلازمون صحبته، وشتان ما بيننا وبينهم، ولا تمنكم في هذا الصدد المفوضات أو الخلو، ولست على ذلك بملح: "استفت قلبك ولو أفثاك الفتون"، وما ذكرتم من ميزات تفسير "بيان القرآن" كله صحيح، وطالما أطلعته لاستفادة شيء ولكنه في الأصل عبارة عن الاستفادة من علوم الشيخ، لا من نفسه، ولأمر ما قيل: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم" إرشادا إلى الملازمة وحضور المجالس، ثم قول النبي بعد نزول الآية المذكورة أعلاه: "الحمد لله الذي جعل في أمي من أمري أن أصبر معهم"، فإذا كانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم مع أبناء أمته - الذين هم أدنى منه - هكذا فما ظنكم بالعكس. يعلق الشيخ عبد الماجد على هذه الرسالة قائلا:

"ومن أعظم فتن العصر اليوم الاستغناء عن الصلحاء والعارفين، ولا شك في أن الكتب تكون زاحرة بالمعلومات، ولكن الشخصيات الحية، لها تأثير آخر، فإذا كان الابتعاد عن تقليد الشيخ والاعتقاد به اعتقادا يؤدي إلى السجود وتقدم النور له واجبا أضر على الإنسان فإن الاستغناء عن مصاحبته أضر عليه، وبدونها لا يمكن التجنب من النخوة والعجب، والكبر والخيلاء، والاستبداد بالرأي والإعجاب بالنفس^{١٤٠}.

والأمر الذي لفت الشيخ زكريا رحمه الله تعالى إليه الانتباه وأكد الشيخ الديبادي على أهميته وصحته بتعليقه، كان الشيخ عبد الباري قد أدرك حقيقته وفهمه كل الفهم من قبل فاهتم بحضور مجالسه وزيارته حين قنومه لكتاؤ، وقلمنا ما أورد السيد وصل البلكرامي من قصة قنوم

^{١٤٠} حكيم الأمت، نقوش وتأثرات، ص: ٥٨١-٥٨٢، نقلا عن مجلة "صدق" الصادرة في ٢٦ من يناير

التهانوي في منزله بالتفصيل، ووصف حاله وذكر استفادته منه وتقديره حق قدره، حيث كان يصاحبه في حاله وترحاله، وبالرغم من كل ذلك لم يترك نفسه وحيدا في أي مرحلة من مراحل عمره وإنما واصل سفر حياته خاضعا للليل يرشده إلى الطريق السوي، فكان آخر من أرشده وطله على الطريق الصحيح هو الشيخ زكريا الكاندهلوي - نزيل للمدينة المنورة -.

وقد رأى الشيخ عبد الباري شخصية شيخ الحديث زكريا الكاندهلوي - رحمه الله تعالى - جامعة بين شخصيتين، شخصية شيخه ومريه التهانوي وشخصية شيخ يعنه السيد حسين أحمد اللبني، وخير شاهد على ذلك رسائله وانطباعاته عن مجالسه، ورأى بعد وفاته أن الشيخ الكاندهلوي هي الشخصية الوحيدة التي تجمع بين العلم والفكر، والحب والوله، وتقدم ههما نموذجين من رسائله التي وجهها إلى شيخ الحديث الكاندهلوي:

الرسالة رقم (٩)

سعادة سيدي الكريم، أدام الله فيضكم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقيت جوابكم الكريم البارحة على رسالتي التي وجهتها إليكم، والآن أكتب في حضرتكم رسالة طويلة وذلك لأن المكاتبة نصف اللقاء. كان أبي رحمه الله تعالى تلميذا مجازا للشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي، واتصل بعد وفاته بالشيخ التهانوي عن طريق المكاتبات التي استمرت منذ ذلك اليوم إلى آخر يوم من أيام حياته، وأظن أنني وصلت إليه بفضل دعاء والدي الكريم، فرأيت عنده ماجعلي أتيقن أنه فذ فريد ليس له مثل في هذه الدنيا ثم صدق بذلك "نحوان الخليل" (المراد به الشيخ وصي الله) أن ههنا ثاني اثنين غير بعيد عنكم فضلا عن الأصقاع الشاسعة من العالم، وإنما كل واحد منهما قسيم لصاحبه، وأصدق إذا قلت أنني أستقل لفظه "القسيم" أيضا فإنني وجدت عنده مثل تلك العلوم والمعارف التي لم أزل أستفيدها وأتطفلها من مائدة الشيخ التهانوي منذ سنوات ولم أزل أشعر بأني حاضر في مجالس التهانوي

أستمع إلى ملفوظاته وأقرؤها، ولحقني أني لأأكاد أفرق بينهما، وليت حظي حالقني حتى أكون موقفا إلى المزيد من الاستفادة من مجالسه وملفوظاته لأستدرك ما فاتني، وأكثر عما صدر مني من غفلة وتكاسل، وقد تم تنوين ونشر ملفوظات الشيخ التهانوي وأخبار مجالسه، فهل من واحد ينشر ملفوظات خليله - الشاه وصبي الله - حتى أستفيد منها شيئا وقد تمت البارحة - بحمد الله وفضله - ملاحظتي هادئ البال، مطمئن النفس، واطمأن قلبي بذكر الله في صلاة الفجر، ولما رأيت ابنتي أن قد ورد في رسالتكم الكريمة ذكر "سويا" (إحدى الحضريات الهندية) وضعت في جنب رأسي، فتمت طول الليل بغاية من الهدوء والطمأنينة.

وبأي لسان أشكر ما أسديتم إلي من معروف، وأوليتم من عنايات وألطف، ولأغالي إذا قلت: إن ألطفكم الكريمة وقعت مني موقع الترياق من الرجل المتسمم. أحسن الله جزاءكم وبارك فيكم.

الملتصم من حضرتمكم الدعاء والعناية

أخو العباد
عبد الباري

❖ الغلاف مرفق بالرسالة لإرسال ردكم الميمون

الرسالة رقم (٢)

حضرة شيخ الحديث بمظاهر العلوم بآرك الله في بركاتكم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقيت تبركات فطور مدينة النبي صلى الله عليه وسلم التي ازدادت بركة
بعد بركة بوصولها من قبلكم عن طريق الشيخ النعماني حفظكم الله. وفوق هذا
كله عناياتكم الكريمة التي ستكون لي ذخرا للأخرة إن شاء الله. أحسن الله
جزاءكم. وقاسمت هذه التبركات أهل بيتي وحيروني، وإن كان نصيبي منها
النصف. وأسألكم المزيد من عناياتكم وألطفكم بالدعاء والإرشاد. عشرة المغفرة
على وشك التمام، والعشرة الأخيرة "عشرة عتق من النار" ستبدأ بكافة فضائلها.
أسألكم أن تدعوا الله لي المغفرة والعتق التام من النار مع سلامة الإيمان. وقال الشيخ
التهانوي رحمه الله: "حسبنا دخول الجنة ولو لم نجد فيها مكانا إلا قدر ما يسع نعال
أهل الجنة إذ يمكن إطلاق الدخول عليه ولو ظاهرا. والجدير بالذكر أنني مذ قدمت
لكناؤ وأقمت بما لا يزال يرسل إلي هذا الفطور المدني من قبل الشيخ حسين المدني
رحمه الله ثم من خلفه الصالح أسعد^{١٤١} - سلمه الله - في أواخر شعبان كل سنة
ولو لم أتلق منكم ماتلقيت هذه السنة من الفطور المدني، لحرمت هذه السعادة للمرة
الأولى بعد عشرين سنة. تقبلوا مني أطيب الشكر وأجزله. والسلام مع الإكرام.

الداعي وطالب الدعاء

أحقر العباد

عبد الباري

٢٤ من يناير سنة ١٩٤٥م

شبيستان قدم رسول، شارع هاردنك، لكناؤ

^{١٤١} النجل الأكبر للشيخ حسين أحمد المدني رحمهما الله. انتقل إلى رحمة الله في ٧ من شهر محرم الحرام

سنة ١٤٢٦هـ في دهي الجديدة وصلى على جنازته الشيخ محمد طلحة الكاندهلوي بن الشيخ زكريا

الكاندهلوي ودفن بجانب أبيه في مقبرة "قاسمي" بديوبند.

❖ أنا الآن عاجز عن كل من الكتابة والقراءة، فلم أستطع أن أتشرف بهذه السعادة.

المسترشدون والرفاق:

بعد ذكر مشايخه يحلو بنا أن نذكر المسترشدين الذين استفادوا منه، ولم يزالوا متصلين به مستفيدين منه حتى نالوا منه شهادة الثقة والتميز، ومن طليعتهم الشيخ الدكتور غلام محمد الحيلرآبادي (كراتشي) الذي تلمذ عليه في الجامعة العثمانية، حيدرآباد، ثم اتصل بالشيخ السيد سليمان الندوي عن طريق الاسترشاد، وصار تلميذاً مجازاً وخليفة له، ولم يزل يستفيد من أستاذه الشيخ عبد الباري الندوي بعد وفاة شيخه السيد سليمان الندوي سنة ١٩٥٣م، وتوطدت صلته به حتى نال منه الإجازة والخلافة أيضاً، وذكر غلام محمد ذلك في مقاله التحقيقي الذي كتبه حول أعماله في مجال الفلسفة والتصوف، وسنورد قتراً كبيراً من أجزائه في هذا الكتاب إن شاء الله، ومنهم الفاضلي الكشميري^{١٤٢} يقول الحافظ أحمد الباري:

"وهناك شخص معروف بالفاضلي عزم على ألا يقصد أي مكان غيره، فاضطر الشيخ عبد الباري إلى أن يبايعه ويخبره".

^{١٤٢} المراد به أفضل الفاضلي والد الشيخ محمد معروف الفاضلي، الذي قدم ندوة العلماء لقيادة ابنه معروف الفاضلي الندوي الطالب بما، وليت ههنا مدة، وخلال إقامته نال فائدتين عظيمتين أولاًها قراءة ناظرة القرآن المجيد وتصحيحها حرفاً حرفاً لدى الشيخ الحافظ حشمت الله، وأخراها اتصاله بالشيخ عبد الباري الندوي اتصالاً روحياً، حتى تحسنت حالته الروحية، وأخذ عنه الإجازة والخلافة. كان كرم الخلق، طيب النفس، ذاكرة لله، قانتاً له، جميل الصورة، مشرق الوجه، أشبه ما يكون بالشيخ جلال الدين الرومي خلقاً وخلقاً. توطن قرية كامره، مديرية باندي بوره، كشمير. ونيف عمره مائة سنة، وفوجئ بوفاة ابنه الوحيد الذي استأثرت به ذمة الله ولم ينيف على ٤٥ سنة من عمره، فحزن به حزناً شديداً، وكان محمد معروف الفاضلي متصلاً بالشيخ عبد الباري اقتداءً بأبيه، وكان الشيخ يحيطه بعناياته وألطافه، رواية عن الشيخ السيد غفران الندوي حفظه الله.

إن الشيخ عبد الباري وإن كان يفيد الناس ويرشد الطالبين والسالكين ولكنه يجترز من مبايعة الناس وإدخالهم في السلسلة، ولم يظفر بذلك إلا قليل. يقول الحافظ أحمد الباري:

"كان الشيخ أعظم الناس تواضعا حتى لم يكن يأخذ البيعة رغم أنه من أجل حلفاء الشيخ أشرف علي التهانوي، ولم يزل يأمر الباكستانيين بمبايعة الشيخ محمد حسن اللاهوري رحمه الله، والهنديين بمبايعة الشيخ الشاه وصي الله رحمه الله مادام حيا، ولما توفي جعل يشير عليهم أن يبايعوا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي والشيخ أبرار الحقني رحمهما الله.

وبالإضافة إلى الذين يبايعوه هناك عدد وجيه من الذين كانوا يحضرون لديه ويستقبلون، ويلتزمون صحبته وخدمته، ومن أجدرهم بالذكر الحافظ محمد إقبال الكوندي، والشيخ بزبان الدين السنهلي، والشيخ المفاتي محمد ظهور الندوي، والشيخ إسحاق جليس الندوي - رحمه الله - مدير مجلة "تعمير حيات" سابقا، والشيخ محمد غزالي البهتكلي، مركز الدعوة والتبليغ، نظام الدين، دلي الجديدة والشيخ محمد غفران الندوي، للشرف الأسبق على اجمع الإسلامي العلمي، لكذاؤ.

ومن اتصفوا به علما وروحا الدكتور علي ملبا من بهتكل الذي اتصل بالشيخ أبرار الحق الحقني رحمه الله بمشاورته، ومن الذين استفادوا منه خلال طلب علمهم الشيخ ميين الندوي، وهناك عدد لا بأس به قسروه حق قدره واستفادوا منه، من أبرزهم الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي - نزيل مكة المكرمة، ورئيس الشؤون التعليمية لندوة العلماء سابقا -، والشيخ إسحاق السنديلوي الذي كان يزوره فينته بعد أخرى ليستفيد من علمه، وكان الشيخ عزيز عالم الندوي الجور كهوري^{١٤٣} - إحدى الشخصيات البارزة في مجال الدعوة والتبليغ^{١٤٤} - يحضر

^{١٤٣} ابن أخت الشيخ عبيد الله البلياوي. أكرمه الله بمواهب شتى. توفي في دلي ولم ينف عمره على ٤١

سنة.

^{١٤٤} رواية عن الشيخ رئيس الشاكري الندوي.

لديه خلال طلب العلم في دار العلوم لنوة العلماء.

ومن المستفيدين منه علما الشيخ اشتياق أحمد الظلي، ملون مجلة "معارف" الصادرة من المصنفين، أعظم كره، والدكتور مسعود الحسن العثماني، الأمين العام للمجلس الديني التعليمي، كما تتلمذ عليه مير مقصود علي خان مدير صحيفة "سالار" خلال تدريسه بالجامعة العثمانية، ونال منه الاستفادة الدينية، ومن المتصلين به اتصالا خاصا البروفيسور وصي الله الصديقي، معتمد المال ونائب رئيس نوة العلماء والبروفيسور عبد الصمد من سري نكر، كشمير كما استفاد منه الشيخ السيد محمد الرابع الحسيني النوي والشيخ السيد محمد واضح رشيد الحسيني النوي حفظهم الله تعالى ورعاهم، قام كل واحد منهما بتعريب بعض كتبه، فأحاطهما الشيخ عبد الباري بالطافه ودعائه. عرب الشيخ السيد محمد الرابع الحسيني النوي كتابه "تجليد تصوف وسلوك" وأسماه "بين التصوف والحياة" ونال الكتاب شهرة فائقة في أقطار العالم العربي وقد عرب الشيخ محمد واضح رشيد الحسيني النوي كتابه "مذهب وعقليات" وانتشر في البلدان العربية باسم "الدين والعلوم العقلية" وكان الشيخ عبد الباري يعامل الشيخ السيد الحسيني النوي ابن الدكتور السيد عبد العلي الحسيني معاملة أب شفوق كريم ابنه.

الباب الخامس

مرضه ووفاته

اعتلال صحته:

عمر الشيخ الباري النوي طويلا وناهر التسعين من عمره وظفر بحظ وافر من الصحة والعافية، واهتم بها اهتماما بالغاً، وكانت عادته المشي على رجله كلو مترات كل يوم، وكان يكثر من الذهاب إلى الشيخ السيد عبد العلي الحسيني - صديقه الحبيب المخلص ورئيس ندوة العلماء سابقاً - مادام صحيحاً معافى وذلك مشياً على رجله، رغم أن المسافة كانت أكثر من بضع كلو مترات، وساعده عقله ورشده إلى آخر يوم من أيام حياته، وإن كان مرضه امتد إلى سنوات طوال. قال الشيخ عبد الماجد الدرابادي سنة ١٩٧٢م: "ظل مصاباً بقل الأذنين طيلة حياته. لعل أحد أسبابه الطبيعية الإكثار من تناول الليمون، وازداد ثقله هنا شدة منذ سنوات، كما أن صحته لا يزال يزداد اعتلالها منذ أعوام، وكأنه لم يعد الآن قابلاً للتحرك والمشى"^{١٤٥}

ولكن رشده - كما قلت - ظل صحيحاً باقياً، وقلبه مصوناً من كل داء إلى آخر نفس من أنفاس حياته، وخير دليل على ذلك مقال الشيخ الدرابادي:
"ومع اعتلال صحته يحسن ويكثر الكتابة، ومن المؤسف أنه لم يعتن بما في عصر

الشيخ التهانوي، ولو كتب في عصره لأعانه، وفارق الشيخ التهانوي الفانية مصحوبا بهذه الأمنية، ولكنه بعد وفاته تلمارك مافاته إلى حد كبير، وبارك الله تعالى في حياته ليقوم بخدمة دينه ١٤٦١

مرض وفاته:

خلال مرض وفاته ازداد شعورا بأنه لم يستطع أن يخدم الدين حق خدمته ولم يؤد حق العلم كما كان حقه، ويصف أحد أبنائه الحافظ أحمد الباري حاله هنا في ضوء قصة له: "ولم يزل يعتبر عمله ناقصا خائبًا، وظل يشعر بأنه لم يعمل شيئًا في الدنيا، فقد سمعته يذكره لكل من يجيء عائلًا أنه لم يخدم الدين شيئًا، وعاده ذات مرة الشيخ منظور النعماني فعانقه وجعل يقول له باكية بكاء طفل: سيدي! ضاعت حياتي كلها، وذهبت سدى، وحبطت أعمالي. قد أقبل وقت الرحيل، وليس عندي شيء من الزاد، وأنا مفتقر إليه أشد ما أكون فادع الله لي أن يرحم عبده هنا الحقير، ولا يؤاخذني بذنوبي، ولا يحاسبني، فجعل يبكي الشيخ النعماني فطال بكأوه واستمر.

وجاء الشيخ النعماني بعد وفاته لتعزية أهله عنه فقال: "كل ما قرأته من أحوال الربانيين والعارفين بالله رأيتهم يصدق على الشيخ عبد الباري النلوي رحمه الله". ويقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي رحمه الله:

"أصيب الشيخ بمجمات متعاقبة من الأمراض الشديدة، وأجريت العملية الجراحية عدة مرات، ولكنه صار طريح الفراش منذ سنة ١٩٧١م وأصيب جسمه بالشلل وجملت قدراته الذهنية، وكانت هذه المدة مملوغة بالتحلي لجميع أبنائه السعداء وممرضيه، فصارت ذريعة إلى رفع درجاتهم والتكفير عن سيئاتهم، والجليل بالذكر أن أهل بيته لم يشعروا بأي ضجر نظرا

إلى عجزه ومرضه، وظلوا يدعون له عمراً طويلاً، وقاموا بخدمته وتمريضه بغاية من النشاط باعتباره حقاً واجبا عليهم، ولم يكن الشيخ عبد الباري غافلاً عن ذكر الله والاهتمام بأمور الآخرة والالتزام بأحكام الدين، وكلما عاده أساتذة دار العلوم لندوة العلماء، وخاصة الشيخ المفتي ظهور الندوي، والشيخ برهان الدين السنهلي حفظهم الله ورعاهم، وغيرهم من الشيخ منظور النعماني رحمه الله سألهم واستفتاهم عن مسائل مختلفة من الدين، وكان يألف إلى الحافظ محمد إقبال الأستاذ بدار العلوم لندوة العلماء، وكلما جاءه هش للقائه وبش وتحدث معه عن الأمور الدينية^{١٤٧}

وصيته:

الوصية^{١٤٨} سنة من أهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم فكيف يتغافل عنها الصالحون من عباد الله، فلم يزل الشيخ عبد الباري يوصي أهل بيته وأقاربه والمتصلين به بالالتزام بأحكام الدين والشريعة وابتغاء مرضاة الله من خلال لممارسونه من أعمال ونشاطات، يوصيهم بلسانه تارة، ومن خلال كتاباته تارة أخرى بالحكمة والتأكيد البالغين وبأسلوب مؤثر قوي، وقد مرت بعيني إحدى رسائله المهمة التي أوصى فيها بالدراسة والتعليم وجزء منها فيما يلي:

يقول الحافظ أحمد الباري: "طليعة من تأثر وهش له أبي دائماً الحافظ إقبال^{١٤٩} وقد أذن بلقائه وبإتيان منزله متى شاء، وكتب في وصيته أن يقوم بغسل جسده الحافظ إقبال والشيخ برهان الدين السنهلي ويصلي على جنازته الشيخ أبو الحسن علي الندوي فتم ما أراد."

^{١٤٧} براف جراج ١٤٩/٢.

^{١٤٨} لتراجع رسالة وصيته هذه في آخر الكتاب إذ تتعلق بأرائه ووجهات نظره تجاه التعليم.

^{١٤٩} الحافظ المذكور انتقل إلى جوار ربه في ٢٧ من رجب المرجب سنة ١٤٢٩هـ، في بلدة مكونده، وصلى على جنازته حسب وصيته الشيخ محمد الرابع الحسيني، رئيس ندوة العلماء، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وفاته:

توفي أكبر شيوخ لكتاؤ، عبقرية الإسلام، ومفخرة دار العلوم لنووة العلماء، وآخر تلامذة العلامة شبلي النعماني، وأحب خلفاء الشيخ التهانوي إليه، والمسترشد الصادق للشيخ السيد حسين أحمد المنيني العلامة عبد الباري النوي صباح يوم الجمعة في ٢٧ من محرم الحرام سنة ١٣٩٦هـ المصادف ٣٠ من يناير سنة ١٩٧٦م، وكان عمره نيفا على ٨٩ سنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وصلى على جنازته الشيخ العلامة أبو الحسن علي الحسيني النوي خارج مسجد دار العلوم لنووة العلماء بعدد وجيه من طلبتها وأساتنتها والمتصلين به من أهل البلد وكلهم شيوعا جنازته وودعوه بعيون دامعة وقلوب مكتبة، ودفن في مدفن دالي كنج^{١٥٠} وكتب الشيخ إسحاق جليس النوي بعد وفاته في مجلة "تعمير حيات" أنه كان آخر الممثلين عن الجيل الذي لن يزال تدينه وورعه وإخلاصه في العمل وصدقه في النية وأعماله العلمية منار هدى تهنئي به الأجيال القادمة. صب الله عليه شآبيب رحمته وتغمده فسيح حنته وعوضه عن مجهوداته الجبارة بخير بدل وأجر جزيل بفضله وكرمه. ويكتب الشيخ إسحاق جليس النوي أيضا:

"قبل اليوم بعشرين سنة سأل الشيخ عبد الباري النوي قبل استهلال درسه كل واحد منا نحن معشر الطلاب الذين لم يكن يتجاوز عددهم ثلاثة أو أربعة: ما هو غرض الدراسة في هذه الدار؟ ولم يكن السؤال غامضا أو صعبا غاية الصعوبة ولكنه لم يستطع أي واحد منا أن يقنعه بجوابه. أجاب الواحد منا أن غرضه النبوغ في اللغة العربية وآدابها بينما قال الآخر: حلمة الدين، فقال أستاذنا الشيخ عبد الباري النوي: ابتغاء مرضاة الله هو الغرض

^{١٥٠} قبر الشيخ عبد الباري واقع بمقبرة الباب الرئيسي من مدفن دالي كنج، متصل بالمسجد، محفوف بمخاط، بسيط غير ناضج.

الوحيد الذي ينبغي أن يتوخاه المؤمن من خلال كل ما يمارسه من أعمال ونشاطات، وما يلفظ من أقوال ويجعله نصب عينه طيلة الحياة كلها"^{١٥١}

ولو استعرضنا حياته الطيبة أدركنا أن هذه الجملة المليئة بالإيمان واليقين هي المحور الوحيد الذي تدور حوله رحي حياته كلها، وهكذا حاز درجة "النفس المطمئنة" "يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".
صفاته:

يقول الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي وهو يصفه:

"ولقد وهبه الله سبحانه من وسامة الجسم ما وهبه مع بسطة في العلم والروح، معتدل القامة، حسن الهندام، أسمر اللون، وسيم الوجه، وجيها، صالحا البنية، صحيح الجسم، واسع العينين، موافق اللباس، سنازج للملبس منسقه، يسلك مسلك الأثرياء الوجهاء المتدينين من "أوده"، مرتديا بـ"الشيرواني" مشدودا بأزراره، أبيض اللحية، غير ملتفة أو كتة، مشرعا، مقتصدنا في المشي والصوت، عاملا بالوسطية في كل شأن من شؤون حياته وكان يترشح الاثران والقصد من خلال جميع أعماله وأقواله"^{١٥٢}

وقد وصفه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي بكل ما شاهد بأمر عينه: "نموذج من الأثرياء والوجهاء المتدينين من أهل "أوده" ومن أبناء ندوة العلماء الظرفاء القدماء"^{١٥٣}
يومياته:

يقول الحافظ أحمد الباري:

"كان يقوم وقت التهجد، ويشغل بالذكر بعد فراغه من صلاة التهجد، وحينما

^{١٥١} مجلة "تعمير حيات" العدد الصادر في ١٠-٢٥ من فبراير سنة ١٩٧٦ م.

^{١٥٢} سوانحي نقوش للدكتور عبد الله عباس الندوي.

^{١٥٣} بران جراغ ١١٥/٢.

يؤذن لصلاة الفجر لا يلبث أن يذهب إلى المسجد، ويتلو القرآن فيه نصف ساعة بعد صلاة الفجر، وإذا كانت أيام الصيف صلبى الإشراق وخرج للتجول بعدها، وكانت عادته للمشي لسبع أو ثماني كيلو مترات كل يوم، وإذا رجع من التجول جلس للمطالعة والكتابة ويشغل بالتأليف، ويتناول الغداء في الساعة العاشرة تماما، ويتناول الفطور أيضا ولكن بدون الشاي وبعد ما فرغ من تناول الغداء تمدد على الفراش وقرأ الصحيفة اليومية مضطجعا، ثم يقبل ويقوم وقت الظهر، وبعد أداء الظهر يسرح نظرة على الرسائل، ويكتب ردودا عليها حتى يأتي وقت العصر، فيصليها ويتقابل مع الناس من الزائرين والحليين وتتعقد مجالس الوعظ والإرشاد بعد العصر إلى أن يؤذن للمغرب فيؤدي صلاة المغرب ويشغل بصلاة الأوابين والأذكار والأوراد وما إن فرغ منها تناول العشاء، ثم يتجول حتى يؤذن العشاء فيصليها ويضطجع بعدها على القور آخذا بيده السبحة، وكانت أمي تلهن رأسه بالزيت حتى ينام، وهو يصرف حبات السبحة، وأما أيام الشتاء فقد كان يتجول فيها بعد العصر بدلا من الصباح".

أخلاقه:

خلف وراءه أسرة كبيرة معمورة تحتوي على زوجته وأبنائه وبناته وأحفاده وأسباطه.

يقول الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي:

"خلف وراءه ابنتين ولكلتيهما أولاد، وخلف أربعة أبناء أكبرهم شمس الباري، الذي توطن مدينة لاهور (باكستان)، وبعلمه الحاج المولوي فضل الباري الذي يتولى واجبات أسرته، وتشرف بالحج، وبنى على نفقته مسجدا جميلا تذكارا لأبيه وإحياء للسنة واقتداء بطريقته، وأنشأ مدرسة باسم "تحفيظ القرآن" بجانب للمسجد، ويتكفل نفسه سائر مصاريفها، وله إسهامات جبارة في الأعمال الخيرية، واتصال وطيد بنوة العلماء شخصيا ووراثيا، فإنه يسهم في أهم أعمالها وحملاتها، وقبل اليوم بسنوات صنع فيها صهريجًا وقناة للماء لا يزال يرتوي بها

أكثر من نصف وألقي نسمة من طلاب ندوة العلماء وأساتنتها وعملتها. جزاه الله وأحسن جزاه. وثالث أبنائه الحاج أحمد الباري مساعد أخيه ورفيقه في عمله. سعد بالحج والعمرة لمرات عديدة، وأخوهم الرابع عبيد الباري الذي يشغل منصبا ممتازا في ولاية آسام^{١٥٤}.

زوجته:

ومن خلف الشيخ عبد الباري الندوي وراعه زوجته عظمت النساء بنت الحاج عبد الغفار، الساكنة بقرية "اجهاكاؤن"، مديرية باره بنكي.

ولدت سنة ١٩١٥م، وكان بينها وبين الشيخ عبد الباري تفاوت عظيم في العمر، فكانت أصغر منه بخمسة وخمسين عاما، وهي زوجته الثانية، وقد تم زواجه قبلها من إحدى نساء الأسرة العلوية من بلدة كاكوري، وولد له منها ولدان، ولكن لم تعيش هي ولا أولادها، ثم جرت المفاوضات حول زواجه الثاني، وتمت خطبته في مدينة "كانبور" ولكنهم تقاضوا القدر الكثير من المهر حتى قالوا: أعط قصر ك مهورا، فكتب الشيخ الأمر كله إلى الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله وسأله أن يلقى خطبة النكاح فأجاب الشيخ قائلا: "لا أخطب إلا إذا كان المهر فاطميا" فأرسل الشيخ عبد الباري إليهم أن شينجي - حسين أحمد المدني - لا يخطب فلا أنكح فلم تتم خطبته هذه، ثم تم زواجه من عظمت النساء، من بلدة باره بنكي، وهي أم شمس الباري وفضل الباري والحافظ أحمد الباري وعبيد الباري، وسائر أحوالهم.

عمرت عظمت النساء طويلا، ووهبها الله ألوانا من الشمائل والفضائل، ولها صلة بيعة وإرادة مع الشيخ التهانوي ورحمه الله تعالى، وكانت تشغل بتلك الأذكار والأوراد التي لقنها إياها الشيخ التهانوي، ولم أقام بمنزل الشيخ عبد الباري اجتهدت في إراحته مراعية طبيعته وذوقه، وذهبت مع زوجها إلى قبانم بمون عدة مرات، وتعلمت فيها شيئا كثيرا من الدين في

^{١٥٤} سوانحي نفوش للدكتور عبد الله عباس الندوي.

عدة أيام، وكانت تؤدي الصلاة في أول وقتها، وتنتظر صلاة بعد صلاة، حتى إذا أقبل وقت الصلاة اضطربت وقلقت، وجلست على المصلى انتظارا لها. كانت طيبة المعاشرة، مراعية لأقاربها، حسنة السلوك مع أصهارها وأقارب زوجها وتجنب عن الإيذاء قولاً وعملاً أشد التجنب، متجانسة الرأي، منسجمة الطبع مع الشيخ التهانوي في تربية أولادها، متشددة في الأمور الدينية، واتفق أن سب ابنها الأكبر خادمهم أو زجره فأدبته حتى ألقت في فيه الفلفل المسحوق، وأدت حقوق زوجها حتى آذائها حتى لما أصابه مرض أعجزه عن كل شيء لم تزل تخلمه ولم تكن تنهب إلى أي مكان خارج البيت خلال أربع سنين. يقول حفيده حامد أحمد: "كان كل من جدي وجدتي يعاملنا معاملة شفقة وعطف، ولكن إذا عرض أمر من أمور الدين أو انتهكت حرمة من حرم الله لم يكن أي واحد أشد منهما، وكانت جدتي تحيط أحفادها وأسطحها بالشفقة والعناية، واللطف والعطف. كانت عطوفا رقيقة القلب حتى إذا رأت أحداً أصابته مصيبة تألمت، وواسته حق اللواصاة، ولم تكن تغتاب ولا تصغي إلى أحد يغتاب. توفيت في ٢٨ من يناير سنة ١٩٩٩م بلكناؤ، وصلى على جنازتها سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الجسني الندي، ولما جاءت جارحاً ونساء الحي بعد الوفاة ليرينها جعلت كل واحدة تقول: ما أنور وجهها. أي عمل كانت تعمل؟ رحمها الله تعالى رحمة واسعة.

أولاده:

ولد له أربعة أبناء وبتان وكلهم من بطن زوجته الثانية، وأكبر أولاده صبيحة الباري التي تزوجها الشيخ محمد أيوب الهاشمي بن الصوفي محمد أفضل علي التهلواروي خليفة الشيخ أشرف علي التهانوي. تتصل بشيخ الحديث محمد زكريا الكاندلوي إصلاحاً واستفادة. ولهما أربعة أبناء، أكبرهم محمد صالح الهاشمي، وبعده الدكتور معراج الهاشمي، وثالثهم محمد أفضل الهاشمي، ورابعهم محمد حارث الهاشمي الذي توفي في حادثة شارع سنة ١٩٨٦م، وابنته الثانية أمة الباري المعروفة بـ"عائشة الباري" تم زواجها من السيد رياض حسين، الساكن بقرية "ميرك

نفر" الواقعة على مقربة "نغرام" (لكنائ)، وتقاعد عن منصب "الضابط" في مصلحة الصحة، وولد لهما ابن وابنة، وهما سيد حسن وعظمى رياض زوجة السيد خالد الرضوي (انائ). هاتان ابنتان له. أما أولاده الذكور فذكرهم كما يلي:

١. شمس الباري، وولد له ابنان فؤاد شمس ونويد شمس. التحق بمدرسة أشرف المدارس (هردوئي) وتعلم وترى فيها تحت إشراف الشيخ أبرار الحق الحقي ثم التحق بدار العلوم لندوة العلماء، ولكن بعض الموانع حالت دون إنهاء دراسته بها، وانتقل إلى باكستان حيث توطن مدينة "كراتشي" وبها توفي في ١٤ من أبريل سنة ٢٠٠٥م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له مغفرة تامة.

٢. فضل الباري. لم يتزوج. التحق مثل أخيه بمدرسة أشرف المدارس ودار العلوم لندوة العلماء ولكن بعض الأسباب عرقلت في سبيله ومنعته عن إنهاء التعليم بها، فتدارك مافاته من ذلك بمواصلة أعماله الدينية ودعم الشؤون التعليمية بالنفس والنفائس، وقد أسلفنا ذكر شئ من خدماته وإسهاماته في شؤون دار العلوم لندوة العلماء، وبالإضافة إلى ذلك إنه يتقلد منصب عضوية جمعيات وكليات وأكاديميات شتى منها: جمعية "أنجمن إصلاح المسلمين" لكنائ، وكلية "ممتاز دكري كالج" لكنائ (كلية ممتاز لنيل الشهادة)، وكلية "ممتاز انتر كالج" لكنائ (كلية ممتاز للدراسات الثانوية العالية)، و "مولانا آزاد ميموريل اكيديمي" لكنائ (أكاديمية مولانا آزاد التذكارية) و "أكاديمية فخر الدين علي أحمد"، أترابراديش.

٣. أحمد الباري، وولد له ثلاثة بنين وخمس بنات. أما البنات الخمس فأسمائهن كما تلي: حاملة أحمد الباري زوجة محمد أحمد المهندس

(لكناؤ)، وعاصمة أحمد الباري زوجة أحمد سعيد القدوائي (جدة)،
 وفاطمة أحمد الباري زوجة الدكتور معراج الهاشمي (سبط الشيخ عبد
 الباري الندوي)، وعارفة أحمد الباري زوجة صبور محتشم (نزىل جده)،
 ورافعة أحمد الباري زوجة حبيب نصار رفيع (جدة).

وأما البنون الثلاثة فأسماءهم:

حامد أحمد الباري، ومحمود الباري، وحيد أحمد الباري، أولهم نال من جلده وجدته
 جده العناية والشفقة، والعطف والحنان.

٤. عبيد الباري، وله ثلاثة أبناء، مطيع الباري وحامد الباري وسجاد الباري،
 وبنت واحدة وهي مؤمنة غزالة. عمل الحاج عبيد الباري موظفاً في "او-
 اين-سي" في ولايتي كجرات وآسام ثم نزل لكناؤ وأقام بها بعد التقاعد
 عن عمله في آسام.

تشبع جميع أبنائه بالتعليم في مدرسة أشرف المدارس ودار العلوم لنوة العلماء. بدأوا
 التعليم في مدرسة أشرف المدارس وكانت للمدرسة تمر حيث بدأوا في مراحلها كما تعلموا في
 مدرسة الشاه وصبي الله الفتجوري في وطنه "فتجور تال نرجا" ويمتاز الحافظ أحمد الباري عن
 سائر إخوته في مجال التعليم حيث تعلم في المدرسة الفرقانية، كونه حيث قرأ على الحافظ محمد
 إقبال الكوندوي وأخذ العلم من الشيخ الشاه أربار الحق الحقي والشيخ القارئ أمير حسن في
 مدرسة أشرف المدارس كما تعلم في دار العلوم لنوة العلماء على الشيخ معين الله الندوي،
 والشيخ عبد الله عباس الندوي، رئيس الشؤون التعليمية لنوة العلماء الأسبق، وسماحة الشيخ
 السيد محمد الرابع الحسيني الندوي، رئيس نوة العلماء، وسعادة الشيخ السيد محمد واضح رشيد
 الحسيني الندوي، رئيس الشؤون التعليمية لنوة العلماء، اجتمعت فيه مزايا شتى. ولقوة ميوله
 الدينية ورغبته إلى الدين سعد بالحج وغيره من أعمال السعادة مرات عديدة فأدى الحج سنة

١٩٧٦م لأول مرة بعد عشرة شهور من وفاة أبيه الشيخ عبد الباري الندوي وصحب معه أمه، ثم توالى رحلاته إلى الحرمين الشريفين لأداء الحج والعمرة، و عادته حتى اليوم قضاء شهر رمضان فيهما، وكانت له صلة وطيدة بالشيخ زكريا الكاندهلوي، ويشهد بذلك رسالة وجهها ابوهما الشيخ عبد الباري الندوي إلى الشيخ زكريا الكاندهلوي:

"سيزوركم ابني أحمد الباري مع أخته الكبيرة صبيحة عن قريب إن شاء الله وذلك للبيعة. المرجو من حضرتكم أن تتقبلوا طلبتي هذه عن طيب نفس وادعوا الله لها ولزوجها محمد أيوب الهاشمي أن يجعل في دينهم خيرا وصلاحا وأن يرشدهم إلى الصواب"^{١٥٥}.

صهره:

من أختائه الشيخ محمد أيوب الهاشمي الندوي الذي كان رجلا صالحا داعيا إلى الله. اتصل بدار العلوم لننوة العلماء في آخر عمره، حيث فوض إليه الإشراف على قسم الإنجليزية بمكتبة دار العلوم لننوة العلماء (العامة). توفي يوم الجمعة في ٢٦ من شهر أكتوبر سنة ٢٠٠١م، وفيما يلي المقترح التأييني الذي قدمته إدارة ننوة العلماء إثر وفاته:

" كان الفقيه المولانا محمد الهاشمي الندوي بن الصوفي أفضل علي^{١٥٦} خليفته الشيخ

^{١٥٥} مؤرخة بـ ٣ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٨٧هـ المصادف ٣ من يناير سنة ١٩٦٨م.

^{١٥٦} كان الصوفي أفضل علي متوطن مديرية باره بنكي. اتصل بالشيخ أشرف علي التهانوي. بايعه فنال إجازته وخلافته. يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي في كتابه "براق جراج" ١/١٠٩: كان المولوي أفضل علي التهانوي الذي كنا نسميه "صوفي صاحب" وندعوه به. وكان من أحب تلامذة والدي الكريم (العلامة السيد عبد الحي الحسيني)، وكان تلميذا للشيخ التهانوي ثم فاز بالإجازة والخلافة بيده، وكان طليعة المعدودين الذين بايعوه ويذكر التهانوي دائما.

ويقول المحافظ أحمد الباري: "طرائه أحوال وكيفيات عجيبة عند وفاته. بينما كانت زوجته جالسة عنده قبيل وفاته إذ قال لها: تنحني شيئا فإن النبي صلى الله عليه وسلم على وشك القدوم".

أشرف علي التهانوي. توطن قرية "تھلوارہ" مديرية باره بنكي، وبعد التخرج من دار العلوم لندوة العلماء، حيث حصل على درجة الفضية نال القبول بجامعة لکناؤ، وحاز منها شهادات "البكالوريوس في الآداب" و "الماجستير في الآداب"^{١٥٧}.

وعمل محاضرا في إحدى كليات ولاية آسام لثلاثين سنة، وبعد التقاعد عنها سنة ١٩٩٨م تولى الإشراف علي قسم الإنجليزية في مكتبة العلامة شبلي العامة لندوة العلماء، واستأثرت به رحمة الله في ٢٦ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م، وصلى على جنازته الشيخ محمد الرابع الحسيني الندوي بعدد وجيه من أساتذة دار العلوم وطلبها وأهل مدينة لکناؤ^{١٥٨}. ويكتب شارق علوي أخ الشيخ أيوب الهاشمي من عمه، ومدير مجلة "Fragrance of East" الإنجليزية، الصادرة من ندوة العلماء، لکناؤ:

"نتمي إلى قرية تھلوارہ، محكمة المال حيلر کر، مديرية باره بنكي، وكان الأخ أيوب ثالث أبناء أبي الصوفي أفضل علي الخمسة. أما أخوه الأكبر الفقيه أحمد علي عمدة القرية فلم يحصل إلا على الدراسة الابتدائية في إحدى كتائب الوطن، وأحد إخوته الصغار محمد مسعود تخرج من كلية تكميل الطب، لکناؤ، وعمل موظفا في مصلحة الصحة، وأما أيوب وأخوه الصغير محمد إلياس فقد علمهما أبوهما مبادئ العربية والفارسية، ثم ألحقهما بدار العلوم لندوة العلماء، وبعد سنتين التحق أخوه إلياس بمدرسة مظاهر العلوم، سهارنور، ولم يلبث أن رجع إلى قريته بعد شهر، وجعل يركز جل اهتمامه على الزراعة. وكان الأخ أيوب يعد أحد أذكيا

توفي الصوفي أفضل علي في ١ من مارس سنة ١٩٦٨م، في السابع والثمانين من عمره وللزيد من التفصيل يراجع: "حیات أفضل" لمؤلفه محمد يسین ساحل المظاهري، الناشر: فضل الباري، باري هاؤس، لکناؤ.

^{١٥٧} كما حصل علي الدكتوراة بها أيضا.

^{١٥٨} "إجراءات" حفلة مجلس الإدارة لندوة العلماء، لکناؤ (الهند)، صفر ١٤٢٣هـ — ابريل ٢٠٠٢م.

طلبة دار العلوم لنووة العلماء في عصره، حيث كان يسهم في النشاطات الأدبية والعلمية بالإضافة إلى اعتناؤه بالمقررات الدراسية وخلال إقامته بها لم يزل يبل غلته العلمية من مكتبها الزاخرة بالكعب القيمة، حتى ازدادت سعة اطلاعه على الكتب والمواد العلمية، وبعد التخرج من نووة العلماء فاز بالامتحان في الصف المتوسط من هيئة أتراراديش، ثم نال القبول في جامعة لكتاؤ، فتخرج فيها ممنوحا شهادات البكالوريوس ولماجستير في الآداب، ونال درجة "ممتاز" في الماجستير، وخلال تلك الفترة كانت تصدر مقالاته بالدوام في بعض الجرائد المعروفة الصادرة من لكتاؤ بالأردنية مثل: صحيفتي "مدنية" و "انصاف"، ويترشح من ثناياها أسلوبه للماتل لأسلوب الشيخ أبو الكلام آزاد حتى في اللغة نفسها، كما يظهر من خلال مقالاته التي يسيطر عليها الأسلوب الخطابي نبوغه في الآداب ورسوخه في الدين. عرضت عليه وظيفة محاضر العلمية في إحدى كليات آسام في العقد السادس قبلها رغم أن ثمينه عنها، فواصل نشاطاته وكان يدعى لإلقاء خطب حول السيرة النبوية من شتى نواحي ولاية آسام، فكان يقبل تلك الدعوات ويقدرها حق قدرها، وكان منذ سنوات يوجه الخطاب إلى المصلين قبل صلاة الجمعة في مسجد متصل بمقره الواقع في "كهلرا" على شارع سيتابور، لكتاؤ، وينبههم على هفواتهم في الأعمال الدنيوية وحياة الآخرة في ضوء الكتاب والسنة، وذلك في أسلوب قوي مؤثر.

كان الأخ أيوب صامتا بالطبع، صالحا، حسن الملبس، كريم الخلق، دائم التيسم، تلبو على شفثيه ابتسامه دائما^{١٥٩}

فهاية قرن بوفاة الشيخ عبد البارى الندوي:

هنا عنوان خطبة ملؤها التأثير والحماس ألقاها الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله إثر وفاة الشيخ عبد البارى الندوي في الحلقة التأبينية ونشرت في مجلة "تعمير حيات" في

عدها الصادر في شهر فبراير سنة ١٩٧٦م، ونقلها مقتبسين من المجلة المذكورة أعلاه:
أيها الحاضرون الكرام:

حتى الأمس كنا ندعو الشيخ عبد الباري النلوي بكلمات الحفظ والرعاية ودفعتنا نحن اليوم إلى أن نعقب اسمه بكلمات الرحمة والمغفرة. كلها كلمات رحمة، وكلمات دعاء، وهذه الكلمات التي يعتاد الناس استعمالها أثقل وزنا عند الله، فإن الحياة فانية، تعنى يوما مهما طال، فهي مثل زهرة متفتحة لا تلبث أن تلبث.

والله نشكر على ما وهبه من حياة طويلة، وإن كانت نفوسنا ومشاعرنا تود لو عاش أكثر مما عاش فإن أعز الأشخاص إلى الإنسان وأعظمهم عنده لا تلبث حياته طويلة مهما طال، ويجزئه فراقه متى فارقته. وإن فاتنا أحد وهو في ريعان شبابه زدنا حزنا وهما، وإذا توفي بعد ما عاش طويلا اشتفينا شيئا. ونظرا إلى الجانب الخلقى وبقضاء العلاقة الوطيدة يتحتم علينا استعمال تلك الكلمات التي كنا نستعملها له في حياته، ولكن الكلمات التي تشرح منها الرحمة الإلهية أثقل منها عند الله وزنا، فإن هذه الحياة كلها رحمة عند رجل يؤمن بالله، فالشئ الذي يكون وسيلة إلى الرحمة أثر من الشئ الذي يأتي بالمصائب ويهدي إلى البلائل، ولنكن مشتفين - مهما حزنا - بهذه الكلمات التي نؤمن عنها بأنها ذريعة إلى الرحمة الإلهية كما تدل على ذلك القرائن أيضا، ونرى حقا علينا استعمالها، وكانت علاقتي به شخصية كأها علاقة عائلية دموية، وكان لأخي الكبير الدكتور السيد عبد العلي به علاقة وطيدة كما تكون بين رجل وأخيه، ولعله كان أحب أصدقائه وأعز خلائه في مدينة لكتاؤ، ولم يزل يذكره إلى آخر يوم من أيام حياته. وأتاح الله لي فرصة لأستفيد منه، فكان يحيطني بعناياته وأطفاه فأنا أعرف مشاعره ووجهات نظره، وميوله واتجاهاته، وأقول لكم بصراحة: إنه كان يعارض عقد حفلات التأين، ويكره تلك المناسبات والمهرجانات التقليدية التي ليس لهم بها سلطان ولا يوجد لها أي مثال في القرون الأولى وحياة الصحابة، ومن الصعب أن نجد لها شاهدا في الشريعة الإسلامية، فقد ددت

فيما أن تعقد حفلة أو لا تعقد، ولكن ظهرت في عقد حفلته التأيينية بعض جوانب ظنناها نافعة ونحن الآن نريد أن نلفتكم إلى تلك الجوانب:

أقدم أولاً نبذة من حياته فإن الطلبة الناشئين لم يستطيعوا أن يستفيدوا علومه ومصنفاته حق الاستفادة، فإنه كان طريح فراشه منذ سبع سنوات ولعل الطلبة لا يذهبون إلى منزله ليجد للمسافة، بل هناك عدد من الطلبة لم يروه ولم يزوره قط، فلذا أعرف به أولاً ثم ألفت إلى الجوانب التي تحمل في غضونهما رسالة وعبرة لأولى الألباب ودروسا لمن يشاء أن يعتبر بها ويتلقنها وجوانبه هذه زاهرة مشرقة إشراقا قل أن تشرق حياة أحد معاصريه مثله.

وتعريفه الوجيه في سطور أنه كان أحد أبناء أسرة أنصارية كريمة نبيلة من قرية "كندية" مديرية باره بنكي، وكانت لأبيه الطبيب اليوناني عبد الخالق علاقة إرادة بالشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي الذي كان نموذجا للسلف الصالح وجامعا لعلوم الشريعة كلها. ويحكى الشيخ عبد الباري الندوي نفسه أنني لما ولدت ذهب أبي إلى الشيخ محمد نعيم وقال له: سمه، فقال: أكمل "خالق باري" و "خالق باري" اسم كتاب^{١٦}. فسماه عبد الباري. نال الشيخ عبد الباري الدراسة الابتدائية في بيته مثل أبناء الأثرياء في عصره، ثم نال القبول في ندوة العلماء التي لم تكن مضي على تأسيسها إلا مدة قليلة فإن تاريخ ميلاده سنة ١٣٠٧هـ المصادف ١٨٩٠م، وكانت ندوة العلماء قد تأسست قبل التحاقه بسبع أو ثماني سنوات حينما كان قد بلغ سن التعلم والدراسة ونال القبول ههنا في الصف الثالث، وأنهى دراسته كلها فيها، وأرسله أبوه إلى الشيخ محمد إدريس (في نغرام) لما أنه ظل ضعيفا في بعض المواد في إحدى سنوات دراسته، والشيخ إدريس جد الشيخ محمد أويس الندوي شيخ التفسير في ندوة العلماء. وكان الشيخ عبد الباري يعترف بلسانه بما انتفع بعلمه ودينه وروحه ويشكره على ذلك، وأنه زاد بذلك قدرة واستعدادا، ثم جاء إلى الندوة للمرة الثانية في عهد العلامة شبلي النعماني، ومنذ صباه ترشحت

^{١٦} وكان اسم والده عبد الخالق، واسم ابنه عبد الباري.

القطانة من وجهه، فوَقعت عليه نظرة العلامة شبلي النعماني وقربه، وههنا أتمى دراسته، وخلالها ظلت له صلة خاصة بالعلامة شبلي، وكان من أقرب الناس إليه بعد السيد سليمان والشيخ عبد السلام. وقد فهم العلامة شبلي بعين فراسته أن سيكون لهذا الطالب شأن كبير في المستقبل، وستكون له شهرة فائقة ومكانة مرموقة بين طبقة العلماء.

وبمتاز الشيخ عبد الباري بكونه جامعا بالجمع بين الفطانة والنوق الأدبي، و أدت ميزته هذه إلى ترفله إلى العلامة شبلي النعماني. والفلسفة والعلوم العقلية هي موضع عنايته، فوجد كثيرا من الأساتذة النابغين فيها في نوة العلماء، فقد كان يدرس فيها حينئذ الشيخ فاروق الجرياقوتي والشيخ شير علي أشهر وأنبع أساتذة الهند، فأخذ الشيخ عبد الباري العلم عنهما ونال منهما الإجازة، وكان الشيخ عبد الباري له ذوق خاص واهتمام بالغ بالفلسفة.

حينما شنت الفلسفة الجديدة هجمات على علم الكلام والعقائد الدينية وصارت العقائد الدينية على وشك الإخميار، تولى العلامة شبلي زعامة تلك الطائفة التي نهضت لمقاومتها وسد سبيلها العارم، وكان الشيخ عبد الباري طليعة الجيش الذين تزعم العلامة شبلي فاختار الفلسفة موضوعا له لخدمة الدين والعلم عن طريقها.

ثم درس الفلسفة الجديدة دراسة وافية واعية وانتفع بالإنجليزية التي تعلمها في ندوة العلماء، وإن لم تكن جيدة إلى حد الإقناع، فأراد أن يحسن اللغة الإنجليزية ويتقنها بمساعدة الشيخ عبد الماجد الدرايبادي الذي كان أصغر منه بستين أو ثلاث سنوات ومن حسن الحظ أنه كان حاضرا في صلاة جنازته، واستعان به الشيخ عبد الماجد لتحسين لغته العربية، فكان كل واحد منهما أستاذا وتلميذا، ثم تمنى على أبيه أنه يرغب في تحسين لغته الإنجليزية بإلحاقه بجامعة عليكره، فأبى والده الذي كان نموذجاً للصلاح والورع، ومثقفا على الشيخ محمد نعيم الفرنسي محلي، وكان شيوخ ذلك العصر لا يعدون تعلمها عملا صالحا مستحسنا ولو كان جائزا كما أخبرني الشيخ عبد الباري الندوي مرات بأنه قال ذلك لأبيه ولكنه أبى قائلا: "لا أسهم ولا

أساعد في هذا الخير. ولم ينفق علي لهذا الغرض"، فكتب العلامة شبلي إلى النواب وقار الملك - ولعل جامعة عليكره كانت تابعة له في ذلك العصر - أن هذا الفتى الذي أرسله إليك من أذكى الطلاب، وله غرام شديد بالفلسفة، فليؤذن بحضور الدروس وخاصة مادة الفلسفة بها، ولكن لم يتسن له ذلك لبعض الأسباب الإدارية فأرسله العلامة شبلي إلى مقبول أحمد القنواثي بولاية كشمير فأقام بها طويلا وحسن لغته الإنجليزية، وكان متقنا للإنجليزية إلى حد أنه حينما عين أستاذا بكلية دكن، بونا - كما يقول نفسه - يدرس ديوان الحفاظ (باللغة الفارسية) في اللغة الإنجليزية، ثم أكثر مطالعة الفلسفة بالإضافة إلى دراسة الإنجليزية، حتى عرف بكونه عالما بالفلسفة خيرا بها، وخلال تلك الفترة تم عقد المؤتمر التعليمي الإسلامي المسمى حيثئذ بـ "المؤتمر التعليمي الحمدي" في مدينة أحمدآباد فألقى فيه مقالا رائعا تاريخيا صدر فيما بعد في صورة كتاب "منهج وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) الذي قال عنه الشيخ أشرف علي الشهانوي: "حصن حصين للدفاع عن الإسلام"، ولما قرأه الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني قال: "إن غيره يسلم بيده الفلاسفة، ولكن بيده أسلمت الفلسفة".

ظل أستاذا للفارسية بكلية دكن، بونا، وصارت له دولة ووصول في الأوساط العلمية، ثم دعي إلى الجامعة العثمانية، حيدرآباد على طلب من الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني إذ كانت الجامعة بحاجة أمس إلى أستاذ للفلسفة وكان من المستحيل في ذلك العهد الحصول على أي وظيفة في الجامعات العصرية ما لم يكن حامل شهادة من إحداها فكان تعيينه أمرا يستحيل نظرا إلى هذا الشرط، ولكن الشيخ عبد الباري عين أستاذا بالجامعة العثمانية لجرد نبوغه في العلم، ولم تمض إلا عدة أيام حتى سيطر على الجامعة كلها، ودوي علمه وفضله كل أرجائها. إنه ألف الكتاب "فهم إنساني" وترجم بعض كتب "بركلي" (الفيلسوف الشهير)، فكانت كتبه للترجمة نماذج رائعة من الترجمة، ومن أسباب تضلعه من الترجمة سلاسة الأسلوب وعلوته التي ورثها عن العلامة شبلي وأساتذة ندوة العلماء، وذوقه الأدبي الخاص الذي يمتاز فيه أهالي أوده - وكان

أيضا من أهلها - بالإضافة إلى فطاته وجمعه بين المتانة في العلم والتعمق في المطالعة، فجعلت جميع هذه العوامل كتيبه نماذج رائعة من الترجمة. ولم يزل يزداد إقبال الناس عليه حتى صار رئيسا لقسم الفلسفة، ونبغ تلامذته في الفلسفة وذاع صيتهم في العالم، منهم الدكتور مير ولي الدين الذي لم تمض على وفاته إلا مدة يسيرة، والدكتور حميد الله، والدكتور رضي الدين، كلهم تلامذته لعلني أن أكون ناسيا، ومهما يكن من شيء فإن ماهو من المقرر أنهم طلاب عهده.

وكان في الجامعة العثمانية دولة وصوله لأستاذين كل واحد منهما عالم خريج مدرسة، ألا وهما: الشيخ مناظر أحسن الكيلاني، والشيخ عبد الباري النلوي، وكانا تحليلين متحايين كأنهما صاحبا الغار في أصح تعبير. أقاما في حجرة من المسجد فهما صاحبا الغار بمعنى الكلمة، وامترجت حياة كل واحد منهما بالأحر، يتناولان الطعام معا، ويفكران معا، ويستشقان الهواء معا. متجانسان هوية ورغبة، عادة وشوقا، متحنانا فكرا وغاية، وهدفا ورأيا، وكان يضرب بصلقتهما المثل، فإنك قل أن ترى مثل هذا التجانس والاتحاد في رجلين مهما طالت وعمقت صلقتهما.

إن أنس فلن أنسى تلك العطلات (الصفية والشتائية) التي كان يرجع فيها إلى لكاناؤ من حيدرآباد - فيأتي إلى ندوة العلماء كل يوم بالدوام، ويؤدي صلاة الجمعة في مسجدنا ويتناول الغداء مع الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وأخي الكبير - المراد به الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رئيس ندوة العلماء الأسبق - وقضى أيام أستاذيته في حيدرآباد بغاية من العز والرزانة حتى تقاعد عنها وأحيل على المعاش هو أولا ثم الشيخ مناظر أحسن الكيلاني.

كان كل منهما خريج مدرسة عربية إسلامية. أما الشيخ عبد الباري فقد تخرج من ندوة العلماء وأما الشيخ مناظر أحسن الكيلاني فهو متخرج في الجامعة الإسلامية، دار العلوم، ديوبند، كانت الجامعة العثمانية أرفع مستوى من سائر الجامعات، فإنها اجتمع فيها نوابغ من الأساتذة لم تجد أي جامعة غيرها مثلهم، ونسبي بعضهم على الدكتور خليفة عبد

الحكيم، والبروفيسور إلياس برني، والبروفيسور هارون خان الشيرواني، والشيخ مناظر أحسن الكيلاني، والدكتور حميد الله، والدكتور مير ولي الدين.

ولم يزل ذائع الصيت في الجامعة العثمانية لمجرد علمه ونبوغه. هنا المتخرج في مدرسة عربية، الذي لم يكن حامل أي شهادة من جامعة عصرية، وأي واحد كان بوسعه أن يقول: لا بد من إنشاء لجنة تفتيش تفتش عن شهادات أساتذة الجامعة. ولو قال أحد مثل هذه القولة لأفحمه نائب رئيس الجامعة قبل أن يتكلم الشيخ عبد الباري شيئا قائلا: إنا نعتر بالشيخ عبد الباري والشيخ مناظر أحسن الكيلاني.

أيها الأجابة! إنه نال شهادة من مدرسة فحسب. لم تكن عنده شهادات ولم ير الحصول على شهادة الدكتوراة واجبا، بل لم يفكر في ذلك قط، وإن كان من الميسور له الحصول عليها - في الجامعة العثمانية - فكم من طالب أهله الشيخ لذلك^{١٦١}

أيها الطلبة الكرام! مما تلقن من خلال دراستنا لحياة الشيخ عبد الباري من دروس أن رأس الأشياء جدارة الإنسان ونبوغه. عليكم أن تخصصوا في فن من الفنون ثم انظروا ماذا يكون. لعلكم سمعتم هنا الشطر من البيت الفارسي: "لابد لك من التخصص في أي فن شئت أينما كنت."

تخصصوا في أي فن شتتم يخضع لكم العالم كله. إن الشيخ عبد الباري ألف كتابا صغير الحجم كثير المعنى أسماه "مذهب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية)، لا يتجاوز عدد صفحاته إلا ستين أو سبعين، ومع صغر حجمه له صيت ذائع في الأوساط العلمية، ويمكننا أن نترك مدى دقة نظره بدراسة كتابه هنا، ولما قرأه الشيخ التهانوي قال: "يلو أن هذا الرجل -

^{١٦١} وظهر لذلك مثال ثالث من أبناء ندوة العلماء، وهو البروفيسور السيد ضياء الحسن الندوي، حيث إنه رغم عدم الحصول على شهادة الدكتوراة شغل أحد المناصب العليا في مجال التعليم فعين عميد كلية الآداب بالجامعة المليية الإسلامية دلي الجديد.

صاحب هذا الكتاب - عارف بالله، وتلك هي شهادة له من رجل كان نفسه عارفاً بالله ورئيس شيوخ عصره.

واعلموا أيها الطلبة! أن قد اختلفنا من أنفسنا أننا لانستطيع أن نفعل شيئاً أو نشغل أي منصب ما لم نحمل شهادة دكتوراة، واليكم مثالين من هذا الدار، أحدهما الشيخ عبد الباري النلوي الذي لم تكن عنده إلا شهادة ندوة العلماء، ومع ذلك شغل أعلى مناصب قسم الفلسفة في الجامعة العثمانية، وثانيهما أستاذنا الشفوق الشيخ خليل عرب - النلوي - الذي كان له دوي في عرض البلاد وطولها. نحن - وأنا بصفة خاصة - ريب نعمه، تعلمت منه اللغة العربية وآدابها مثل صبي يتعلم على أستاذه المبادئ، وكان خريج ندوة العلماء، لا يعرف حتى كثير من أبناء ندوة العلماء أنه تخرج فيها، وشغل مناصب في شتى جامعات الهند مثل جامعة كلكتة، وجامعة دهاكة، ولجود نبوغه في العلم كان يهابه نائب رئيس الجامعة الإنكليزي وعمداء كليتها ورؤساء أقسامها، ويجلسون بين يديه كما يجلس التلميذ أمام أستاذه، فلنأخذ هنا درس من حياة الشيخ عبد الباري أن الأصل نبوغ الإنسان وجهده المتواصل ودراسته العميقة، ولم يتلف الشيخ قط على عدم الحصول على الشهادات ولم يقل قط: ليتني كنت حامل شهادة. وكثيراً ما أرى اسمين معا، الشيخ عبد الماجد الدرايادي والشيخ عبد الباري النلوي، وكنت أظن أن كليهما يحمل شهادة البكالوريوس في الآداب، لأن الشيخ عبد الماجد يكتب حيناً B.A. - البكالوريوس في الآداب - عقب اسمه، ومرة ناقشني في ذلك رجل يقول: الشيخ عبد الباري حامل شهادة البكالوريوس، وكنت أقول: ليست عنده أي شهادة.

إخوتي! هنا أول درس وأول جانب من جوانب حياته وأما الجانب الآخر من حياته الذي يمكننا أن نستفيد منه، وننظر إليه بعين الاعتبار، فهو أن هذا الفيلسوف العظيم، الملقب بالحقق، المتكلم الفطرن، تلميذ العلامة شبلي الذي يعتز به، خريج ندوة العلماء ومفخرتها، شعر بحاجة ملحة إلى إصلاح نفسه، ويسلم نفسه إلى طيب يلوي ما عثرى قلبه وروحه من فساد

وأدواء، لا كالمبتدئين بل مثل الغرباء الذين لا يعرفون شيئا، والأطفال الذين لا يستطيعون أن يقرأوا شيئا ما لم يأخذ بأيديهم أساتذتهم ومربوهم.

وقد وفق لهذا رجلان في زماننا، وهما الشيخ السيد سليمان النلوي والشيخ عبد الباري النلوي، ونال كل منهما مكانا مرموقا كما ناله الإمام الغزالي. ولا تتحدث عن الإمام الغزالي فإنه كان حجة الإسلام، وهذا اللقب خاص به لا يشركه فيه أحد ويقول المؤرخون: كان الناس لا يكادون يفرقون بين مجالسه وبلاط الخليفة. الطلبة والعلماء كلهم يحضرون دروسه، وكان له دوي في أنحاء العالم حتى لا تكاد تجد أي مدرسة أو مجلس علمي يخلو من هتافات "قال أبو حامد" فعندئذ شعر الغزالي بأنه لا يؤمن بالغيب مثلما يؤمن بالحسيات والبيهيات، ولا يستكمل إيمانه ما لم يكن إيمانه بالغيب أعظم من إيمانه بالحسيات بكثير، وقد كتب ذلك في "رجال الفكر والدعوة" (لصاحب هذا الخطاب أعني الشيخ أبي الحسن علي الحسيني النلوي) و"المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي، وأشار عليكم بأن تقرأوهما، وحينما شعر بذلك الغزالي ألجم لسانه ولم يستطع أن يدرس شيئا، وفسدت معدته وقوة هضمه، وقلق أشد القلق، وجعل الناس يقولون: أصاب الإسلام سوء العين إذ سعم مثل هذا العالم النجس من الدرس والتدريس، وأصابه هم أو طمع.

ولما شخصه الأطباء قالوا: تغلبت عليه أمور تنال من نظام جسمه وتفسده، فلم يعد أهلا لشيء، ثم خرج يجوب البلاد ولم يزل يقطع الأغوار والأنجاد، والصحاري والسهول إلى أعوام عديدة حتى جلس يوما في الجامع الأموي بدمشق، وجعل يقوم بالمجاهلات والرياضات بحثا عن الحق، فلما نجح فيه رجع وجعل يصنف الكتب في الرد على الملاحدة ودحض أباطيل الباطنية، ومال عن تدريس وتصنيف شيء إلى آخر.

وقد مر بنا في هذا العصر المادي للملحد مثالان لعلو الهمة وصدق النية في أوساطنا، وهما الشيخ السيد سليمان النلوي والشيخ عبد الباري النلوي، وأذكر جيذا أنه قال لي أحد

قضاة المحكمة العالية سابقا بصوت ملىء بالاستعجاب والدهشة: ما بال الشيخ السيد سليمان النلوي كيف صار تلميذا للشيخ التهانوي مع أنه تلميذ العلامة شبلي؟ الأنسب والأحسن أن يكون التهانوي تلميذا للشيخ سليمان، وجعلت الأوساط النووية تتأجج وتتعجب، وكتب كثير منها إلى الشيخ السيد سليمان النلوي، حتى قال لي الشيخ النلوي نفسه: ما بال الناس يعظموني ويسفهوني وينهونني عن الذهاب إلى زاوية التهانوي ويقولون: أسأت إلى نوة العلماء وإلى العلامة شبلي. كيف ذهبت إلى عالم من علماء ديوبند بعدما كسبت ثقة شبلي وألفت كبا لا تحصى. قال رجل للإمام أحمد بن حنبل: إنك تجلس في درس من ليس أهلا لحضور درسك فقال: يا بني إنما يجلس الإنسان حيث يجد صلاحه.

ألست بحاجة إلى إصلاح نفوسنا؟ ألا نحتاج إلى شحن قلوبنا بنور الإيمان واليقين؟ هذه أمثلة رأيناها بأمر عيوننا، هذا الشيخ العلام السيد سليمان النلوي، أعظم المصنفين في عصرنا. لا أكذب ولا أغالي - وكيف أكذب وأنا في المسجد - إذا قلت إن مصنفاته لا تقل عددا وتنوعا وأهمية. وصل هو والشيخ عبد الباري إلى الشيخ أشرف علي التهانوي، ولم تمنعهما العصبية الطائفية أو المكانة العلمية من الذهاب إليه. هنا السيد سليمان الذي يهاب علمه للمستشرقون ويعرضون بين يديه أسئلتهم استجابا لها، واعترف بنوعه العرب ذهب إلى كمانه بكون وأسلم نفسه إلى الشيخ التهانوي إسلاما دفعه إلى أن يقول: "تعلم من سليمان إخلاص العمل، واعلم أن النلوي يكون مرثا عن الرذائل من الحسد والحقد، والشحناء والدناءة"، ولا أعلم أن شيخا مدح مسترشدا له مثلما مدح الشيخ التهانوي مسترشده الشيخ السيد سليمان النلوي، ومنحه الخلافة عاجلا فتمعجب من ذلك أصحابه القلماى وأحزن ذلك بعضهم، وكان الشيخ السيد سليمان النلوي والشيخ إلياس رحمهما الله في زاوية التهانوي حينما توفي، وحزن بوفاته الشيخ السيد سليمان حزننا شديدا حتى جعل يبكي بكاء طفل فقد أباه.

الشيخ عبد الباري النلوي مثال متبع لنا، فإنه لما ذهب هو والشيخ عبد الماجد

الدرابادي إلى الشيخ التهانوي قال: لكما علاقة وأنسبة بالشيخ حسين أحمد المديني فإيعاه، وإنني أيضا أفعل ما يسعني.

وكان حال الشيخ عبد الباري الندوي مع الشيخ التهانوي حال تلميذ مع شيخه، فلما رأى الشيخ التهانوي منه الاتقياد والطاعة أجازته ومنحه الخلافة.

أيها الطلبة الأحبة! عرضت جانبين من حياته، وكلا الجانبين مستحسن قابل للاتباع، فلتعضد بهذين الجانبين أحدهما النبوغ في العلم، أما حاملو الشهادات فإنهم بمرتلة الجنديين العزل من الأسحلة ولو شغلوا منصب رئاسة أي كلية أو تقلدوا منصب نائب رئيس الجامعة، وثانيهما ملازمة العارفين بالله وتزكية النفس مما يشوبها من شوائب الرذائل. قال شاعر:

"لا يمكن أن يبلغ عالم تلك الدرجة التي بلغها الشيخ جلال الدين الرومي، ما لم يكن تلميذا لشيخ كما كان الشيخ الرومي تلميذ شمس التبريزي".

وقال آخر: "دع القول والتمني وكن رجل العمل والحال".

إنه واقع لا ينكر، ويالحسن حظكم لو فهمتموه، الآن أو بعد مدة، ولكن أما إذا أدركموه قبل وفاتكم بقليل فهو وإن كان خيرا، ولكن لا ينفعكم شيئا. لم لا تستطيعون أن تقوموا بمجاهدات وزيارة شيخ هذه الساعة.

أيها الطلبة! إنني أعرف كيف كانت المدارس العربية قديما، وما كانت طريقتها ونهجها. كان لدروس الشيخ لطف الله رحمه الله دوي كلوي النحل، وكان مرجع الطلبة، ويشلون إليه الرحال من إيران وتركستان، ويأتون إليه من كل فج عميق، ليقرأوا عليه ولو كانوا أذكاء، جيدي الاستعداد.

وبعد التلمذ عليه يقصدون الشيخ فضل رحمن الكنج المرادآبادي فكان يزكهم ويصلح باطنهم. وإذا كان الأول يعلّمهم بالعلوم الشرعية فكان الثاني ينور قلوبهم بالعلوم الروحية، وكذلك إذا التحق طالب بمدرسة ديوبند (الجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند) وتشبع فيها

بالعلوم غادرها إلى كركوه للتكميل، ثم يقصد منها إلى راي بور أو تمانه بمون لإصلاح باطنه، وأما تلاميذ الشيخ عبد الحي النين كانوا يحضرون دروسه ويقرأون عليه ينهبون إلى كنج مرادآباد، وكانت هذه الطريقة شائعة، ولا أحكم على طريقة الإرشاد والاسترشاد وإن لم يكن فيها أي عيب أو نقص، وأقول بصراحة: ليس فيها أي عيب ولو كان كذلك لما اتخذها الشيخ عبد الباري النوي والشيخ السيد سليمان النوي اللذان هما أشد منا تورا للفكر، وإنني أيضا متور الفكر، وقد طوفت في العالم أكثر من المتورين، ومع ذلك أنا قاتل بهذه الطريقة - طريقة الإرشاد والاسترشاد - وعامل بها، ولا أحجل بل أرى واجبا اتخاذها، وعلى الرغم من كل ذلك لا أدعوكم ولا أحكم عليها ولا تحسبوا أنني أحللكم، لا تحسبوني وسيطا، إنما أشير عليكم بأن هتموا بإصلاح نفوسكم وتركيتها من شوائب الرذائل وعليكم أن تبلوا غلة روحكم، واستقلوا أعمالكم واحسبوا إيمانكم ناقصا غير كامل، واحسبوا فراغا في حياتكم لو بقي لكانت الحياة كلها فراغا، قال أبو مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، مامنهم أحد إلا يخاف النفاق على نفسه"، هذا الحديث من تعليقات الإمام البخاري .

شعر كل من الشيخ سليمان والشيخ عبد الباري بهذا الفراغ، فتناولت الأيدي مؤلفاتهما ومنحهما الله من العز والكرامة والقبول ما لم يمنح إلا للملودين من الناس، ورفع من درجاتهما ما رفع، ومضى كل واحد منهما على ميعاده ولم يبال شيئا، ولم يهمه أمر من أمور الدنيا "لاخوف عليهم ولا يمزنون". ها هو الشيخ العلامة السيد سليمان النوي رحمه الله، لو قصد جامعة عصرية لا عترت به، وفاخرت به أخواتها، وأتاه نائب رئيسها وأساتذتها ذرافات ووحلانا، يرحبون به، ويقابلونه بغاية من الشوق واللهفة، وإذا سافر إلى أوروبا التف حوله المستشرقون يستفيدون علمه، ويتفلقون على مائدته. وهنا هو الشيخ عبد الباري النوي، لم يدر بخلده قط أنه أصبح الناس في مضمار الفلسفة ويتهي فيها إلى حيث لا يتهي غيره، فكيف يمكنه أن ينهب إلى الشيخ أشرف علي التهانوي الذي صنف كتابا لا دقة فيها مثل "هشتي

زبور". من هنا؟ وأي كتاب صنفه؟ وما هي قيمة وأهمية مؤلفاته؟ هذه كلها فروع لا شأن له بها، ولا يعنيه كل ذلك، وإنما يعنيه أن يعمل عملاً ينفعنا، ويتخلص به مما يحيطه من أحطار في الحياة الأبدية - العالم الذي يبقى دائماً - "إلا من أتى الله بقلب سليم"، إنهم لم ينهبوا إليه إلا في البحث عن هذا القلب السليم.

وأدعوني بذلك أيها الإخوة! ليس مني تعيين هذين الأمرين. لا أدعوكم إلى الإرشاد والاسترشاد، وإنما أشعركم بأننا نحتاج إلى إصلاح نفوسنا في كل مرحلة من مراحل الحياة. إننا مفتقرون إلى أن نظل أنفسنا طاهرة نقية من الرذائل وأن تعود إلينا الروحية. علينا أن نتلمذ على شيخ ونكون تلامذة له بدلاً من أن ننظر إليه نظرة الأزدراء والامتهان، ولا يخطر ببالنا أبداً أننا نلفظ كلمة الشهادة، وتلو القرآن، ونفهم معانيه، ونقرأ الأحاديث، وقطعنا مرحلة العالمية وفرنا بشهادة العالمية، فلنناجى بحاجة إلى هذا الإرشاد والاسترشاد. لا تتألم نفوسنا مثل هذه الوسوس، بل عليكم أن تركزوا بعد التخرج على إصلاح نفوسكم ما أمكنكم. وفقنا الله وإياكم، ورفع درجات الشيخ عبد الباري النلوي. إننا الآن ولن نزال نعتز به ونفاخر به غيره أعواماً طوالاً، كعلماء ومتخرجين في هذه الدار. ويحق له علينا نحن المسلمين أن نستغفر له وندعو الله له بالأجر والثواب، ولو بتلاوة سورة، يس من القرآن لمرة واحدة، فإنه إذا وصلت إليه هديتنا هذه استبشر وسر بذلك، وإن كنا لانعرف أهميتها ومكائنها عند الله تعالى، وإنما هي آية السعادة ومدى اتصالنا به. أدعو الله أن يغفر لجميع من ماتوا في هذا الأسبوع، وجميع من توفاهم الله في هذا الشهر، ووفيات هذا العام وهذا القرن، ويغفر للسابقين الأولين، ويرفع درجاتهم، ويكفر عن سيئاتهم، ويضاعف حسناتهم. ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

الباب السادس

تفقهه في القرآن الكريم

غرامه الشديد بالقرآن المجيد:

إن ما يمكننا أن نعبر عنه بـ "إسراء المؤمن" هو فقه القرآن الكريم، وإدراك معانيه، واكتشاف أسرارهِ ونكته في قلبه، وتكته حقائقه ودقائقه، ولكن هنا الاكتشاف يتطلب من المؤمن الصادق في ابتغاء مرضاة الله الاستمرار والتوسع في المطالعة في اللغة العربية حتى يتلوق ويلتذ بتلاوته وسماعه. إن الشيخ عبد الباري النلوي أتقن اللغة العربية أولاً ثم عكف على دراسة الحكمة والفلسفة، ثم انقطع إلى التدبر في القرآن الكريم انقطاعاً شغله عن دراسة شيء سواه. لا يدرس إلا القرآن الكريم، ولا يتحدث إلا عنه، ولا يلقي إلا دروسه في مسجد على مقربة داره في لكاؤ، يحضرها كبار العلماء والمتقنين، وعدد وجيه من الطلبة، ومن أبرز المستفيدين من دروسه الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي. إنه يقول ذاكرًا مزايا دروسه:

"وكانت دروسه مليئةً بنكت لطيفة ودقائق بديعة لو جلسنا نشرحها لامتلأت بها صفحات بل كانت رسالة أو كتاباً. وليس في ذاكرتي شيء من المواد التي كان يلقيها علينا، ولكنني انتفعت بها كثيراً، وزدت إيماناً بعظمة القرآن الكريم وتصديقاً بإعجازه"^{١٦٢}.

كتب الشيخ أبو الحسن علي الحسيني النلوي في مجلة "النلوة" - وكان أحد ملراء

تحريرها - مقالا عنوانه بـ "ميري محسن كتاين" (الكتب التي لا لها علي فضل) وطلب من علماء عصره أن يكتبوا شيئا حول العنوان المذكور فانضم الشيخ عبد الباري النلوي في زميرهم، وكتب حوله مقالا. وصدرت هذه المقالات التي كتبها علماء عصره في صورة مجموعة مسماة بـ "مشاهير أهل علم كي محسن كتاين" (الكتب التي لا ينسى فضلها المشاهير من أصحاب العلم).

وقام بتلويتها ونشرها الشيخ محمد عمران خان النلوي. وبالتالي نورد من مقال الشيخ عبد الباري النلوي مقتبسا كشف به عما أسدى القرآن الكريم إلى نفسه من خير ومعروف بغاية من الوضوح كما لام فيه للمسلمين بإعراضهم عن هذا الكتاب العظيم، يقول: "وكانه ليس ههنا كتاب إلا هذا الكتاب ("ذلك الكتاب")، فادع الله أن تكون عاقبة حياتي دراسة هذا الكتاب وصاحبه الحي (حي لا يموت)". وإليكم تفصيل ما بعده بلسانه: "ولما أنني أرسلت هذه الرسالة^{١٦٣} إليكم^{١٦٤} ولكم أريد أن أقدم إليكم بعض آرائي وتجاربي عن هذا الكتاب لأزدد طمأنينة إذا ما صدق بما أحد غيري".

وما كان يزيدني سامة وتوحشا في البداية هو أسلوبه وعدم وجود النظم بين آياته في الظاهر، وأما حينما أتلوه الآن، فأسلوبه هو الذي يزيدني إيمانا بأن كل حرف وكل لفظة منه كلام الله، ولا يخطر ييالي أبدا أن بشرا يقلر أن يأتي بأربع آيات ولو اجتمعوا وتكلفوا المشاق في ذلك. مثل هذا الكتاب الذي يتضح من أسلوبه أنه ليس من صنع البشر، حتى إذا ترجم إلى لغة أخرى - سواء كانت الترجمة لفظية أو غير لفظية - وجدت فرقا بينا بين النص القرآني وترجمته، وأدركت أن الترجمة من صنع البشر، فما ظنكم بالفسير.

إن الله تعالى لو وضع هذا الكتاب في إحدى يدي وقال: ما بين اللفتين كلامي حرفا

^{١٦٣} إنه استخدم لفظة "الرسالة" مكان "المقال" لأنه كان في صورة رسالة وجهت إلى المرسل إليه.

^{١٦٤} المراد الشيخ أبو الحسن علي النلوي وكتب الشيخ عبد الباري هذا المقال ردا على رسالته.

حرفا، وآية آية لما آمنت به نفسي المرتابة مثل هذا الإيمان الذي حصل لي بأسلوبه المعجز، والحق أنني لا أجد لهذا الأسلوب اسما إلا "كلام الله". إن الذين لا يؤمنون به ليتهم طالعوا نصوصه مباشرة ولو لأيام قلائل، مستغنين عن ترجمته وتفسيره، فارغة نفوسهم عن الإيمان وعلمه، فسترول إيرادهم إن شاء الله، وسيجلبون فيه حلولا وردودا على أسئلتهم التي تور في أذهانهم فينة بعد أخرى. إذا كان الإنسان يعرف اللغة العربية إلى حد لا يخطئ فهمه في إدراك معناه الصحيح، فلا يحتاج إلا إلى تفسير واحد، وهو أن يشرح القرآن ويفسره في ضوء ما ير به من أحداث ومشكلات، وتجارب وقضايا، فلا بد يوما من أن يعترف مؤمنا كان أو كافرا بأنه ليس طريق أهلى من الطريق الذي دل عليه هذا الكتاب للبشرية جمعاء كيفما كانت وفي أي حال كانت "إن ربي على صراط مستقيم".

إنني أشد حزنا وغضبا على هؤلاء المسلمين الذين يقولون بألسنتهم: إننا نؤمن بهذا الكتاب الحي، ثم يسألون غيرهم عن طريق الحياة، ويحشون عنه في كل مكان عليهم يظفرون به، وقد كانوا بحاجة ملحة إلى تطبيقه على جميع جوانب الحياة الفردية والجماعية.

أحبركم بشيء - وإن كان الحق أن لا أتقوه عنه بكلمة واحدة ولكن نفسي ترغب إلى أن أحبركم به - أنني بعد ما أدرك معنى لغويا لأي لفظة من ألفاظ القرآن الكريم أو أفهم أمرا لا بد من فهمه أو قصة ليس منها بد فمهما أدرس كلام المفسرين لفهم كلام الله - ولا أدرس كلامهم إلا قدر ما يكفيني - يئس لي أن ظلمة تسود مكان النور الذي كنت ظفرت به، وما أظفر به من علم الوحي المجرد الخالص ونوره وبركته يحول دونه التفسير والشرح الذي أدرسه، فلذلك أخوف شيء عندي دراسة كل تفسير من غير أن نعرف مدى علم صاحبه وورعه إلا أن يكون صاحبه معروفا بورعه وعلمه، وأما اليوم فإننا نرى أن كل واحد صار مفسرا، وكل مجلة وصحيفة حرة في نشر تفسيرها".

ويستطرد قائلا وهو يئس على المبادئ التي لا بد من مراعاتها خلال مطالعة القرآن

الكريم وهي ما انكشفت له خلال مطالعته القرآن الكريم: "كما يظهر لي أنه كثيرا ما رأينا الناس عاكفين على فهم القرآن كله. إن القرآن الكريم وإن كان هدى للناس أجمعين، ونزل هاديا للإنسانية جمعاء، ولكنه بمنزلة تلك الأرزاق التي نزلت للناس أجمعين، فلو أكل واحد طعام اثنين أو أكثر نظرا إلى الآية الكريمة "لكم ما في الأرض جميعا" لأصيب بسوء المضمض أو التخممة ويهلك به: "تلك قسمة قسمها الله فليس للمسترزق بد إلا أن يرضى بها".

لا فرق بين غذاء البدن وغذاء الروح فكما أن كل غذاء البدن لا يلزم أن يتفق مع طبيعة كل إنسان وطقسه كذلك غذاء الروح، بل الثاني أكثر من الأول نوعا واقتضاء، فكيف يمكن أن ينال الواحد حظ غيره؟

وأقدم بين يديكم مثلا واضحا: كل واحد يستطيع أن يفهم معاني آيات سورة التغابن وهي "إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم" إلى آخر ما في السورة، ولكن الواحد إن لم يكن متروجا ولا يعرف كيف تكون الحياة بعد التزوج، أو لم يمر بمرحلة "عدوا لكم" فكيف يعرف قيمة "فاحذروهم" أو "وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا"، وكيف يفهم الإنسان معنى "إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم" حق الفهم إذا لم يفتن بالأموال والأولاد.

ويضيف قائلا: "وخلاصة القول أننا قدرنا نتأذى به نظرا إلى الأعمال والعقائد نتأذى مثله بالاستواء في التبليغ والإفهام. ومعظم أجزاء القرآن الكريم ينبغي أن يتصل الناس الذين يسلكون مسالك مختلفة بالله الحي عن طريق هذا الكتاب الحي اتصالا شخصيا حيا في جميع جوانب الحياة سالكين على الطريق الذي خصوا أنفسهم له. وبلون هذا الإيمان الحي لا يمكن أن ينشأ اتصال العبدية والربوبية بين العبد والرب، وبلونه لا يمكن أن يتنوق حلوة الإيمان ويخالط قلبه بشاشته وترتب ثمراته التي يتوخى من خلال دراسته تحققها، والله أعلم بالحق والصواب" ١٦٥.

١٦٥ مشاهير أهل علم كمي محسن كتابين، ص: ٤٨-٥١، دونه الشيخ محمد عمران خان الندوي.

إسهاماته في علوم القرآن والتفسير:

يقول الدكتور غلام محمد الحيدرآبادي (كراتشي) أحد تلامذة الشيخ عبد الباري ومسترشديه المجازين وهو يذكر فقهه للقرآنيات في مقال له:

"وكان الشيخ عبد الباري النووي أشد ولوعا بالقرآن الكريم - بعد الفلسفة - وقد ظفر بحظ وافر من البصيرة في القرآن الكريم حيث يقول نفسه: لا أعتني كثيرا بالتفاسير التي كتبت على جميع أجزاء القرآن الكريم، وإنما أركز جل انتباهي على تلك التفاسير الجزئية التي تحتوي على تفسير بعض آيات القرآن الكريم، وسبب ذلك أنه لا ينكشف على متدبر القرآن الكريم إلا بعض آياته، وهي تكون ثمرة مطالعته وتدبره. وخلال إقامته بمترلي في كراتشي قال لي يوما حينما كنا نتحول صباحا: انظر! كم قصيرا هنا الكون للمادي، والإنسان عاكف على البحث عن خزائنه وكنوزه منذ قرون طوال، ولا يزال يكشف أشياء حديثة ويخترعها كل يوم، ويبدو أن اكتشافاته هذه لا تنتهي أبدا. أما القرآن فهو "الكون للمعنوي"، فكيف يحيط البشر برموزه وأسراره، ودقائقه وحقايقه؟ إنه بحر لا ساحل له من غاصه وحصلت له درة من أنفوس درره فاز وأفلح" وهنا هو الفوز المين".

والشيخ عبد الباري كتب نكتا ودقائق مهمة مجملا في المصحف الذي كان يتلوه كل يوم، وكان عازما على أنه يشرحها إذا سنحت له فرصة، ولكن مرضه لم يزل يمتد ويزداد نقاهة حتى لم يكده يقدر على كتابة شيء، فكتب إلي أن أصل إليه بلكناؤ لمدة شهرين، فأكون ضيفا له وأشرح تلك النكت والجمالات شرحا يتفق مع مراده، ولكن لم أستطع أن أتشرف بهذا السفر الميمون، ثم أراد الشيخ أن يرسل المصحف إلي فأنقضت مدة طويلة ولم يتحقق ذلك فكتبت إليه أذكره بما أراد فبلغني جوابه كما يلي:

"إن المصحف الذي ذكرته في رسالتك عن طريق شيخنا الدررآبادي لا تزال تمسني الحاجة إليه مرة بعد أخرى ما لم أفرغ من تأليف "كلاميات قرآن" ولو لم أحتج إليه في هذا الأمر

لأرسلت إليك للمصحف وسائر أعماله التي لم أستطع أن أكملها، فإنني لا أعلم أحدا أعظم منك همة وأقوى إرادة وعزيمة وأكثر عنوبة وسيولة للقلم، عسى أن تكون قد وجدت فيه ما يعينك وينفعك ونلت به بغيتك^{١٦٦}.

فلم يحصل لي ذلك للمصحف، وأدعو الله أن يحميه من صروف الزمن. ونبع من قلم الشيخ عبد الباري كتابان حول علوم القرآن، أما أحدهما فقد تم طبعه وتداولته الأيدي ونال قبولا شائعا، وأما الآخر فلم يتم طبعه، وإليكم تفصيل الكتابين فيما يلي:

١. نظام صلاح وإصلاح:

أصل عنوان الكتاب: قرآن كما دو آياتي نظام صلاح وإصلاح^{١٦٧} (نظام الصلاح والإصلاح في ضوء آيتين من القرآن الكريم).

هذا الكتاب في الأصل تفسير سورة "والعصر" شرح فيه جميع محتويات السورة بغاية من البسط، ورتب نظاما كاملا للصلاح والإصلاح مستعينا بأجزاء السورة من الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، ليستفح به المسلمون ويطبقوه على حياتهم العملية. إن الكتاب المذكور خير دليل على بصيرته ودقة نظره في القرآن الكريم واهتمامه بإصلاح الأمة المسلمة، وصدق الشيخ يوسف البنوري إذ يقول فيه: "إن الشيخ عبد الباري لقن بهذا الكتاب

^{١٦٦} الرسالة وجهت في ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٨م.

^{١٦٧} هذا الكتاب في الواقع مقال له صدر بالأقسط بالتوالي في إحدى المجلات، وأعجبني مقاله هذا إعجابا بالغا فتمت بترتيب سائر حلقاته وجمعها وتحشيتها وعنونت المقال بالعنوان المذكور - وذلك دون طلب منه - ثم أرسلته إليه ليطم نشره من "مجلس علمي" (كراتشي) إذا استحسنته الشيخ، فمن فضل الله أنه أعجبه كثيرا وأشاد بمجدي هذه ودعالي حيرا سيكون لي ذمرا إن شاء الله في الآخرة: كعبه غلام محمد.

القيم جميع العلماء درسا يعتبرون به" وأضاف قائلا: "ويقطع عنه النظر في مجال الحقائق القرآنية"^{١٦٨}

٢. كلاميات قرآن:

نو بلغ كتابه "كلاميات قرآن" تمامه لكانت له عين تلك المكانة التي احتلها كتابه "تجليد كلاميات" أو أكثر منه أهمية ونفعا، ولكن لم يكتب له إتمامه، وعسى أن يسبب ذلك عكوفه على إتمام كتابه "منهـب وسائس" (الدين والعلوم) كما يقول نفسه في رسالة كتبها في ٦ من أغسطس سنة ١٩٦٩م:

"وبرى الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي أن لا أنشغل عن إتمام "منهـب وسائس" بكتلي "كلاميات قرآن".

"ولا يعلم كم صفحة كتبها في موضوع "كلاميات قرآن" وهل هي محتفظ بها أم لا"^{١٦٩}

منهجه في دروس القرآن الكريم:

يقول الشيخ محمد ميين الندوي الكواكنجي، شيخ الحديث بمدرسة مصباح العلوم، كواكنج (متو)، وأحد تلامذة الشيخ عبد الباري الندوي، وخواص للمستفيدين منه، وهو يصف انطباعه عن فقهه في القرآنيات ورسوخه وتعمقه فيها^{١٧٠} استنادا إلى دروسه التي كان

^{١٦٨} مجلة "بينات" الشهرية، الصادرة من كراتشي في أبريل سنة ١٩٦٤م. يقع الكتاب في ٢٨٦ صفحة بقطع الكتاب، وقام بطبعه ونشره "مجلس علمي" (كراتشي) عام ١٩٦٤م.

^{١٦٩} مجلة "تعمير حيات" ٢٥ من يوليو سنة ١٩٨٩م، عنوان المقال: "مولانا عبد الباري ندوي ايك عظيم فلسفي" (الشيخ عبد الباري فلسفيا عظيما) للدكتور غلام محمد.

^{١٧٠} مع الشكر للأخ جمال أحمد الندوي، أستاذ الحديث الشريف بمدرسة مصباح العلوم، كواكنج، متو.

بلقها حول علوم وتفسير القرآن الكريم:

"يعرف الشيخ عبد الباري النوي رحمه الله تعالى - رئيس قسم الفلسفة بالجامعة العثمانية، حيدرآباد سابقا - بنبوغته في علم الفلسفة في الأوساط العلمية والدينية في القارة الصغرى كلها. الفلسفة موضوعه الذي يميزه عن غيره، واعترف الناس بطول يده ونبوغته فيها. إنه أدرك حقيقة الفلسفة بفظاته وذكائه وجدارته الوهية وبصيرته الدينية، وسر غورها ونجح في إدراك روحها بأنه ليس بينها وبين الإسلام أي صراع وتناقض. وأما الذين يقولون بالتناقض بينهما فكأنهم يقولون باصطدام القطار بسفينة الماء.

قام الشيخ عبد الباري النوي بخدمات جليلة للدين عن طريق الفلسفة كما اعترف بذلك الشيخ التهانوي رحمه الله، وأشاد به الشيخ السيد سليمان النوي، وصدق الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرازي - رئيس الشؤون الشرعية لحيدرآباد سابقا - حيث قال: "أسلمت يده الفلسفة"، ولكن ميزته التي توسيت لنبوغته في الفلسفة هي ولوعه بالقرآن الكريم. إنه يمتاز باتساع دراسته للقرآن وكان قائلا بتفسير القرآن بالقرآن، ولا يعرف ميزته هذه إلا من أخذ عنه في هذا المجال.

وكان يتحدث في معظم مجالسه عن الشيخ التهانوي، ولكنه إذا فسر آية من القرآن الكريم بجوامع كلمه اهترت النفوس، ويدل على علاقته بالقرآن الكريم أنه لما تقرر الأمر على إعداد للنهج الدراسي للجامعة العثمانية، وجاءت نوبة فلسفة الإسلام اختلف الناس في اختيار كتاب لها. يقول الشيخ عبد الباري: "إني ذهبت إلى معاهد وجامعات كبيرة للهند وكلمت المسؤولين عنها في اختيار كتاب حول فلسفة الإسلام فقال بعضهم: الشمس البازغة، وقال بعضهم: صلبر، وأخيرا تم الاتفاق على اختيار القرآن لفلسفة الإسلام"، وقد مر أن مجالس الشيخ كانت تدور أكثر الأحيان حول ذكر الشيخ التهانوي وأقواله. وكان يقول: "أيها الطلبة الأعزرا! أليس من الدناءة والبخالة أن أرى مريضا ولا أدله على طيب حاذق؟ فما بال الناس

يقولون! إنني لا أعلم شيئا إلا عن التهانوي". ولكنه إذا فسر آية من القرآن الكريم أو تحدث عنه اهتم الناس. وقال مرة بغاية من الثقة: نزلوا عني سورة الفاتحة، فإن الله تعالى ألهمني علم سورة الفاتحة إلهاما خاصا. فقال أصدقائي بلسان واحد: أجل! نأخذها عنك. فحضر كل واحد منا على للميعاد والتفوا حول الشيخ. سكت الشيخ قليلا ثم قال: هل تعرفون معنى "إله"؟ قال أحدنا: الذي يكون واحدا فهو إله. فقال: عبد الباري واحد فهل هو إله. وقال آخر: الذي يعبد فهو الإله. فاعترض الشيخ: الأصنام تعبد فهل هي آلهة. فقلنا: دلنا على معناه. قال الشيخ: الذي يملك نفعا وضرا فهو "الإله". فلما سمعنا كلامه هنا رسخ في نفوسنا حب القرآن الكريم. ثم تلا أحدنا شيئا من القرآن الكريم ابتداء بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" فساد المجلس جو من السكوت لمدة غير طويلة، ثم تكلم الشيخ قائلا: أتعلمون أن قد وردت أحاديث كثيرة في فضل بدء كل أمر ذي بال أو عمل جائز بالتسمية، ولكن إذا أراد أحد تلاوة القرآن الكريم لم يكف بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" وإنما تسن قبلها الاستعاذة بإجماع الأمة كما يقول القرآن الكريم: "فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" فلتأمل لماذا أجمعت الأمة على سنية الاستعاذة قبل التسمية عند تلاوة القرآن؟ وما هو السر والحكمة وراء هذا الحكم؟ لو تأمل القارئ فيه شيئا انكشفت له حقائق الطبيعة البشرية ودقائق ورموز لم يدركها لو لم يتأمل فيها، يخوض بما في عالم اللاهوت، العالم الذي لم يستطع أن يخوضه كبار الفلاسفة والطبيعيين والفقهاء. إن التسمية والاستعاذة تحملان في غصنهما حقائق إذا اطلع عليها المتأمل تنبعت طبيعته وحلرت، وصارت تعمل عملا صالحا. ثم يتوصل من خلال البحث في خلق الأرض والسماء إلى خالق العالم، ومن المصنوعات إلى صانعها، ومن الآثار إلى المؤثر. وكل إنسان يمر بذلك من خلال حياته اليومية. فكلما عرضته قضية أو أمر مهم، تحررت طبيعته من المؤثرات الخارجية، وأنابت إلى خالقها كما صور ذلك القرآن الكريم: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم اللوح من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله

مخلصين له الدين". إن الطبيعة البشرية توجب الانصراف عن الأسباب إلى مسبها في مثل هذه المواقف الحرجة العصيبة. روي أن رجلا جاء إلى جعفر الصادق رحمه الله وقال له: حدثني شيئا عن الله رب العالمين فسأله جعفر: ماذا تعمل؟ قال: أعمل تاجرا بحريا. فقال له: صف شيئا عن تجارتك واذكر بعض أخبارها. قال: ذات مرة تحطمت سفينتي في عقر النهر فوقعت على خشبة أسيل عليها فقال جعفر رحمه الله: ألم ينشأ في قلبك شيء من الخوف والتضرع؟ قال: بلى، فقال: إن من تضرعت وخشعت له هو الله رب العالمين.

نعم! فلا بد لنا أن نتأمل في لمية إجماع الأمة على سنية الاستعاذة قبل التسمية عند تلاوة القرآن ونبحث عن السر الكامن وراء هذا الحكم فلو رجعنا إلى فلسفي وسألناه لأجاب: إن ذلك من اقتضاء الفطرة السليمة فإن الإنسان قد طبع على دفع اللصرة قبل جلب المنفعة. إن نفسه تكتف: اللهم لا تصبنا بأي مضرة بهذا العمل الذي أنا على وشك إنجاز، ثم يهتف على الفور: اللهم اجعل هذا الدواء شفاء لي وخريجة إلى الصحة والعافية. وكذلك حينما يدخل المريض غرفة العملية الجراحية ينبع من قلبه: اللهم لا تلحقنا بأي أذى، ثم ينبع منه: اللهم اجعل برحمتك العملية الجراحية ناجحة، وكذلك حينما يريد قائد الجيش أن يخوض بهم للمعركة تليغو فطرته السليمة: الله لا تخرمنا. اللهم لا تنصر علينا علونا، ثم يدعو توا: اللهم هب لنا قوة تنصر بما على أعلائنا. فجملة القول أن الإنسان إذا أحيط به أو عرضه أمر ذو بال أو وقف موقفا حرجا أنابت فطرته السليمة إلى الله تعالى. وما تكتف به الفطرة أو ينبع منها طبعاً عندما تحيط بها الأزمات أو نايتها النوائب والبلابل ضمن في الاستعاذة والتسمية، بل كلا الكلمتين - التسمية والاستعاذة - في أصح تعبير - تعبير عن خفتين من القلب وينقطع عن مثلها النظير في جميع الكتب السماوية فكلمتا تأمل فيهما الإنسان وأدرك هتاف الفطرة وجد إليه من غير حاجة إلى دليل خارجي. وقد عبر عن هذه الصورة الشاعر أكبر الإله آبادي تعبيراً صادقا:

"يلرکه القلب ولكن لاتدرکه الأبصار. لقد عرفت أن ذلك خير شاهد وأصدق دليل على ألوهيته".

الباب السابع

الفلسفة

الفلسفة من الوسائل الأولى التي أدت إلى ذبوع صيت الشيخ عبد الباري الندوي. فكان نافذ البصر عميق النظر في الفلسفة القديمة والحديثة. ومدى إحراكه وتطبيقه نظريات الفلسفة وتوصله إلى مراجعتها الأصيلة كل من ذلك جعله يدرك كنهها وتجوفها، ولم يكف بذلك فحسب بل استعان بها في فهم معاني وحقائق القرآن الكريم كما يتجلى ذلك من عبارته التالية: "لم تولد النفس تائهة أعواما طويلا في غياب العقل في البحث عن الصلة بين الخالق والمخلوق، وظلت تقطع مراحل الفلسفة وما بعد الطبيعيات، حتى توصلت إلى الله الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم" فأدركت الحقائق وعرفت معنى أولية الخالق وآخرته، وظاهرته وباطنيتها، والصلة بين الخالق والمخلوق، بإشارة من "وبكل شيء عليم". إذا لم يثر في ذهنه هذا السؤال فماذا يرد عليه، وكيف يقلد أهمية ذلك السؤال؟ وكيف يمكننا أن نتصور أن القرآن الكريم لم يضع أي طريق لهداية فلسفي^{١٧١}.

ويكتب إلى الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى رسالة يعبر بها عن مدى دراسته للفلسفة الجديدة وانطباعه عنها:

^{١٧١} مشاهير أهل علم كمي محسن كتابين، ص: ٥١، مرتبه: الشيخ محمد عمران خان الندوي، قام بنشره: "إداره إحياء علم ودعوت، لكتاؤ".

"فلما عصرت ذاكرتي تذكرت كتابا صغير الحجم درسته قبل اليوم بربع قرن، وهو "مبادئ العلم الإنساني" (Principles of Human Knowledge) لمؤلفه "بركلي" ولعلك لا تحب أن يذكر اسمه. وخلال تلك الفترة ترجمته إلى الأردية وأسماه "مبادئ علم إنساني" فأول ما أثار في الكتاب أن زادني شكاً وارتياباً تقليدياً، ولكن نفس الكتاب مهد لي السبيل إلى العلم اليقيني بإثارة السؤال حول حقيقة العلم، بل ساعدتني نظرياته وبراهينه في إدراك بعض حقائق القرآن الكريم الذي هو منبع الإيمان والعلم واليقين^{١٧٢}.

وقال الشيخ أبو الحسن علي الندوي في خطبة له معترفاً بجدارته ونوغه، مشيداً بفهمه وذوقه: "ولعلمه دوي كلوي النحل. إنه قام بأعمال نافعة وخدمات جليلة. وصلر له كتاب رائع أسماه "فهم إنساني"، كما ترجم كتاباً للفلسفي الشهير "بركلي" بالأردية، وكتبه هذه نماذج رائعة من كتب الفلسفة. ومن أسباب ذلك سلاسة أسلوبه ونضارته اللتان ورثهما عن العلامة شبلي النعماني ونوة العلماء بالإضافة إلى ذوقه الأدبي الشيق، وفطنته المنهشة، وذكائه المفرط، ومثاقفه في العلم، والتعمق في المطالعة. فكل هذه العوامل دفعت إلى إنزال كتبه المترجمة بمثابة روائع الترجمة^{١٧٣}".

ويذكر الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي بعض التواضع من طلاب عهد تدريسه في الجامعة العثمانية، حيدرآباد: "ونال قبولاً شائعاً في الجامعة العثمانية، حيدرآباد حتى تقلد منصب رئاسة قسم الفلسفة فيها، وقد نبغ تلامذة عهده من قسم الفلسفة وأحرزوا قصب السبق، أمثال الدكتور مير ولي الدين الذي توفي مؤخرًا، والدكتور حميد الله، والدكتور رضي الدين^{١٧٤}".

^{١٧٢} المصدر السابق، ص: ٤٧-٥١.

^{١٧٣} مجلة "تعمير حيات" العدد: ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٦م.

^{١٧٤} المصدر السابق.

ويكتب الشيخ محمد منصور النعماني الندوي البوفالي: ^{١٧٥}

"وهو العقري الذي لم يزل يشبع العلوم العقلية والفلسفة بقلمه السلسال الفياض منذ أكثر من نصف قرن، ولم يهدأ ولم يقتر ما لم يعترف علماء الطبيعة والفلاسفة بخطئهم" ^{١٧٦}.
فضل لا ينساه الجيل الناشئ:

ينقطع عن الشيخ عبد الباري الندوي النظر لإسائه الخبز إلى الجيل الجديد باتخاذ موضوع الفلسفة. وما أعاد إلى هذا الجيل الذي أشفى على الإلحاد والردة، من الثقة بالإيمان والإسلام من مآثره العظيمة التي لا يمكن أن نتاساها أو نهملها. وقال هو نفسه:
"كان طلاب الفلسفة قد ابتعلوا عن الإسلام حتى عن الإيمانيات، ولكنني لما بدأت أدرسهم جعلت مبادئ الإسلام ترسخ في قلوب الطلاب غير المسلمين فضلا عن المسلمين" ^{١٧٧}.

وما هو خير شاهد على عظمته ونبوغه ثقة الدكتور محمد إقبال به رغم أنه أكبر نقاد الفلسفة الجديدة ولسان الفلسفة الإسلامية. يقول الشيخ إسحاق جليس الندوي في إحدى افتتاحياته لمجلة "تعمير حيات":

"وحكى الشيخ عبد الباري علي قصة أخرى من حياته: "فلما ظهر للمسؤولين عن الجامعة العثمانية أنني أريد أن أدرس الفلسفة الجديدة في ضوء القرآن الكريم رضي بذلك رئيس الجامعة السر أكبر الخيلري كبير وزراء مملكة حيدرآباد في عصره بشرط أن أقنع بذلك الدكتور محمد إقبال لمجرد هذا الغرض. فلما عرضت بين يدي الدكتور إقبال وجهة نظري هذه تأثر وسر

^{١٧٥} ابن الشيخ محمد نعمان خان البوفالي.

^{١٧٦} مجلة "تعمير حيات" العدد الصادر في: ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٦م.

^{١٧٧} رواية عن الشيخ إسحاق جليس الندوي مدير مجلة "تعمير حيات" لكتاؤ. توفي سنة ١٣٩٩هـ، المصادف سنة ١٩٧٩م.

بنلك، وكتب في رسالة توكية له: "إن هذا الرجل سيحسن تدريس الفلسفة الجديدة في ضوء القرآن الكريم" ١٧٨.

إن ما عرّب عنه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي من انطباعه عن كعبه التي لا ينسى فضلها يحتل أهمية بالغة حيث يقول: "وقع نظري على كتاب صغير الحجم "منهـب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) للشيخ عبد الباري فمالت إليه النفس ورغبت فيه وأسأغه عقلي، وأدركت بهذا الكتاب بوادر تمهيدية من حدود العقل والنقل وعدم استحكام الخبرة والعلم البشريين وقطعية علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتعمّتي هذه المبادئ خلال دراستي نفعاً بالغا. وبعد مطالعة كتابه هذا درست كل ما تيسر لي في موضوع الفلسفة القديمة والجديدة وتاريخها، ولكنني لم أشك قط في صحة هذه المبادئ، بل الحق أنني مهما قرأت بعد اتضح حرص الفلاسفة وتكذيبهم بما لم يحيطوا بعلمه" ١٧٩.

ويقول عنه الشيخ عبد الماجد الدرايابادي معاصره الفلسفي وخبير علم النفس:

"ومن الموضوعات التي اشتركنا فيها أنا والشيخ عبد الباري الفلسفة الغربية والعلوم العقلية. على حين فورة من الشباب كانت تلك المواد موضوع حديثنا ومناقشاتنا كانت تلور حولها، وأنستنا تلهج بها، وأقلامنا تجري بها. وخلال تلك الفترة قال محلل خبير بالرجال ومدى نبوغهم متقلداً علي ومشيداً بالشيخ عبد الباري: "مهما درس الشيخ عبد الماجد من كتب الفلسفة وغيرها ولكن الشيخ عبد الباري هو الذي يحق له أن يسمى بفلسفي - في معنى الكلمة - فوقع قوله من قلبي موقعا، فلم أزل على ما كنت. وأما الشيخ عبد الباري فإنه ظل يقطع مدارج الرقي حتى صار متكلماً وعارفاً بالله، ولكن الفلسفة العقلية كأما قد امتزجت بدمه،

١٧٨ مجلة "تعمير حيات" العدد الصادر في: ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٦م.

١٧٩ مشاهير أهل علم كي محسن كتابين، ص: ١٨١، مرتبه: الشيخ محمد عمران بخان الندوي.

فرغم تقشفه وتصلبه لم يعيش عيشة الصوفية المترمين بالسباحات والسجادات، بل لم يزل متصلا بالفلسفة الغربية والعلوم والطبيعات منها بوجه خاص يدرسها ويطلعها^{١٨٠}. ويقول الشيخ الدكتور غلام محمد الكراتشي:

"واستكتب الشيخ السيد سليمان النوي من الشيخ عبد الباري بابا من كتابه "سيرة النبي" معنونا بـ"الدلائل والمعجزات والفلسفة الجديدة" وضمه فيه. ثم كتب عنه: "ليس أحد العلماء أكثر علما بالفلسفة من الشيخ عبد الباري النوي"^{١٨١}.

وأعرب الشيخ ماهر القادري مدير تحرير مجلة "فاران" الشهرية عن انطباعه عن مقاله هذا الذي نشر بعد وفاته فيها وكتب فيه أن "الباب الثالث من الجزء الثالث من كتاب "سيرة النبي" للعلامة شبلي والسيد سليمان النوي الذي يشتمل على مائة صفحة، كاتبه الشيخ عبد الباري النوي، وقد تعرفت عليه من خلال دراستي لهذا الباب، ورسخ به في نفسي انطباع طيب عنه بجمعه بين التدين وسعة الاطلاع على الفلسفة"^{١٨٢}.

الفلسفي العظيم:

يقول الدكتور غلام محمد (كراتشي) تلميذ الشيخ عبد الباري النوي وخليفة الشيخ السيد سليمان النوي وصاحب الكتاب "تذكرة سليمان" (ذكر سليمان) في مقاله للعنون بـ"الشيخ عبد الباري فلسفيا عظيما":

"قال الشيخ العالم المحدث يوسف البنوري إثر وفاة الشيخ عبد الباري مشيدا بحكمته وحماسه: "وكان دقيق النظر، متضلعا من الفلسفة الجديدة والإلهيات الجديدة إلى حد ملهش. واستبطا الأفكار واستتاج الآراء. بجهد جهيد خصيصته التي لم يحظ بها أحد غيره ودحض

^{١٨٠} "مذهب وسائس" للشيخ عبد الباري النوي (حياته في سطور).

^{١٨١} سيرة النبي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى.

^{١٨٢} ياد رفتكان (ذكر الناهيين) ١٦/٢.

بكتابه "مذهب اور سائنس" (الدين والعلوم) وغيره من مؤلفاته النافعة لأباطيل الفلاسفة والملاحدة ورد عليهم ردا قاطعا وألجمهم ببراهينه وحججه^{١٨٣}.

الحق أنه ولد فلسفيا ولم يزل مشغوبا بالفلسفة والكلام خلال طلب علمه. ومن حسن خطه أنه وجد العلامة شبلي نابعة العلوم العقلية في عصره الذي كان يبحث دائما عن تلامذة أذكاء. وكان وحيد عصره في صقل هؤلاء التلامذة وشخذ عقولهم. يقول الشيخ عبد الباري في قصة حياته التي حكها في بداية كتابه "مذهب اور سائنس":

"وجعلت الصحائف والمجلات ترسل من مصر إلى ندوة العلماء في عهد العلامة شبلي. ومن تلك المجلات "المقتطف" لمدير تحريرها المسيحي، وكانت حافلة بمواد الفلسفة والعلوم. وكنت أميل إلى العلوم العقلية أكثر مني إلى العلوم النقلية، ولكنني كنت أتضجر من شروح الفلسفة القديمة وهوامشها. جرى الله شيخنا العلامة شبلي أحسن الجزاء وأجزله إذ قام بتعديلات في المقررات الدراسية زادني بعضها ولوعا بالفلسفة القديمة مثلا: شرح حكمة العين، شرح حكمة الإشراق، فأمثال هذه الكتب في الفلسفة القديمة وخاصة الكتاب المؤخر ذكره الذي قرأته على الأستاذ شير علي الجينرآبادي، زادني طريقة تدريسه ميلا إلى الفلسفة^{١٨٤}.

ويقول الشيخ عبد الباري في مقاله "سيرة السيد"^{١٨٥}.

"تشرفت بصداقة ومصاحبة الشيخ السيد سليمان الندوي خلال طلب علمنا، ثم إنه عندما عين أستاذا سعدت بالتلمذ عليه، ولم أزل أحضر معه في مجالس العلامة النعماني أعواما طويلا، ومع هذه الصداقة كنت معترفا بعلمه ونبوغته حتى إنني كلما عرضت لي قضية وصعبت

^{١٨٣} مجلة "بينات"، (عنوان المقال: بصائر وعبر) (كراتشي)، العدد الصادر في: أبريل سنة ١٩٧٦م.

^{١٨٤} مذهب وسائنس، ص: ١٠.

^{١٨٥} مجلة "معارف" الشهرية، عدد ممتاز عن السيد سليمان الندوي، العدد: مايو سنة ١٩٥٥م.

علي قدمتها بين يديه ليعالجها، وأذكر جيدا أنني اقتنعت بتوجيهه عن الجبر والقدر^{١٨٦}.

ظهر مما مضى ولوعه وإعجابه بالعلوم العقلية. وتاق خلال طلب علمه إلى إتقان اللغة الإنجليزية ليلغ ذروة الكمال في مجال الفلسفة الجديدة وعلمي النفس والكلام بدراسة كتبها بالإنجليزية وشجعه العلامة شبلي وحضه على إتقانها، فجد واجتهد فيها حتى صار أستاذا نابغا في مجال الدراسة المقارنة لفلسفتي الإسلام والغرب، ولم يزل يحتل مكانا مرموقا خلال عمله في قسم الفلسفة في الجامعة العثمانية.

يقول الشيخ حميد الله خان - للماجستير في الفلسفة من الجامعة العثمانية - (نزيل لندن)، وكان تلميذ الشيخ عبد الباري الندوي، في رسالة له:

"كانت الفلسفة الإسلامية إحدى مواد الفلسفة الست، يدرسها البروفيسور عبد الباري الندوي. إنني وإن كنت أعرف اسمه وشخصيته ولكنني رأيت لأول مرة في الفصل في حصة الفلسفة الإسلامية. كان أبيض اللون، ضاربا إلى الحمرة، كتابي الوجه، معتدل القامة، ضامر البدن، منطبق اللباس على مقاييس الجسم، مرتديا بالشيرواني^{١٨٧} الكتاني، متزرا بالسروال ضيق الرदन، مغطيا رأسه بقلنسوة زورقية. وفي نفس الحصة سألت شيخنا الأستاذ جميع التلاميذ واحدا بعد واحد: لم اخترت الفلسفة كمادة اختيارية؟ ولما جاءت نوبتي قلت: قرأت في إحدى المجلات مقالا عنوانه "شعور ولا شعور" فأعجبني ومن ثم أولعت بالفلسفة وجعلت أعنى بها. حينما قلت ذلك بنا لي أن الشيخ الكريم قد اقتنع بجوابي لأن غيري من التلاميذ لم يستطيعوا أن يجيبوا شيئا.

وكان طريقة تدريسه الفلسفة الإسلامية فذة ممتازة، يدخل الفصل فينادي أسماء الطلاب ويكتب حضورهم، ثم يقفل المحضر، ويلقي علينا محاضرة حول موضوعه في أسلوب

^{١٨٦} المصدر السابق.

^{١٨٧} نوع من اللباس يشبه الحجة أو العباء المصنوع من الكتان الممتاز (الترجم)

سهل سلس ويوضح الموضوع جزء فجزء توضيحا يدفعنا إلى إصغاء آذاننا إليه، ونستمع إلى محاضراته باهتمام يشغلنا عن تقييد الملاحظات بالكتابة ولكن الشيخ الأستاذ يلمح علينا أهم ملحوظات محاضراته بعد إلقائها نظرا إلى حاجتنا. وكانت هذه الملحوظات عصاره محاضراته المبسوطه. للمحوظات وإن لم تكن تبل غلتنا ولكنها كانت ذات أهمية بالغة إذ كانت تمهد لنا السبيل إلى حل ورقة الامتحان للفلسفة الإسلامية. وكان الشيخ عبد الباري نابعة العصر في فلسفة الإسلام، ولكن ما يجعله يتميز عن غيره هو نظراته الدقيقة في الفلسفة الغربية مع كونه آية في موضوعه ومرجعا يرجع إليه الخلاق. ولذلك لا نجد له مثيلا في المقارنة بين الفيلسفتين — الإسلامية والغربية — وكان الشيخ يقارن بينهما في فصلنا بإبراز ميزات كليهما.

وقد أجاد ترجمة مؤلفات بركلي في دحض أباطيل المادية والرد عليها. وتحتل عبقرته وسعة اطلاعه وواقعيته في مقاله الرائع "منهج اور عقليات" (الدين والعلوم العقلية). مقاله هذا نموذج رائع لطريقة تحليله أبرز فيه حدود الفلسفة والدين مفرقا بينهما، وصرح بأن العقل ليس هلقا يرمى إليه، وإنما هو وسيلة، وليس متزلا يقصد إليه، وإنما هو بمنزلة معالم الطريق التي توصل إلى الغاية المنشودة، أو مصباح راهب يهتدي به السائرون. العقل إنما يدل على الطريق، وأما إذا أريد الوصول إلى الغاية فلا بد من الرجوع إلى الدين.

طلوع الشمس آية وجودها:

لم يكن الشيخ عبد الباري حامل أي شهادة ولكنه بفضل جهود الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني رئيس السلطة الأصفية، حيدرآباد عين أستاذا بقسم الفلسفة في الجامعة العثمانية في شهر سبتمبر عام ١٩٢٢م، ولما سافر رئيس قسم الفلسفة خارج الهند على الإجازة التعليمية عين الشيخ رئيسا له نيابة عنه فمرت على ذلك ستان. ثم ثارت قضية تعيينه بوجه مستقل. لم يكن الشيخ أهلا لأن يعين أستاذا مستقلا لما لم يكن حامل أي شهادة، ولكن الشيخ حبيب الرحمن قلم في حضرة مير عثمان علي خان "سلطان العلوم" طلبة سألها بما أن

یعنیہ عن ہذا النظام، وکتب فیہا الشیخ حبیب الرحمن:

"وحسبہ شہادۃ أن الفلسفة أسلمت ینہ، وإذا سرح معالیکم نظرة علی کتابہ
"مذہب وعقلیات" (الدین والعلوم العقلیة) وافقتم علی ہذا الرأي" ۱۸۸.

فأساسا علی کتابہ "مذہب اور عقلیات" (الدین والعلوم العقلیة) رضی بئذک میر
عثمان وصادق علی طلب تعیینہ أستاذًا مستقلا، وهو دلیل علی نبوغہ فی مجال الفلسفة، مصداقا
لقول الشاعر:

"إن طلوع الشمس لخير شاهد علی وجودہا".

فلما عرضت قضیة ترقیئہ مشروطة بحمل شہادۃ أوروپیة حصلت لہ الترقیة بإحلال
ترجمتہ لکب الفلسفة محلہا.

مترجمات الشیخ عبد الباری ومیزانہما:

تمت ید الشیخ عبد الباری النلوی ترجمۃ بعض أهم المؤلفات فی الفلسفة وعلم
النفس والأخلاق، وقلما نجد مثلہا عند داکترۃ الفلسفة وفیما یلی فہرسۃ کتب الی نقلہا إلی
اللغة الأردیة:

اسم أصل الكتاب	مؤلفه	اسم الكتاب المترجم
Manual of Ethics	J.S. Mackenzie	علم الأخلاق
Principles of Human Knowledge	Barkley	مبادئ علم انسانی
Pragmatism	William James	فلسفہ نتائج (فلسفۃ الذرائع)

فهم انساني	David Hume	Human Understanding
مقدمه ما بعد الطبيعيات (المدخل إلى علم المتافيزيقا)	Henri Bergson	An Introduction to Metaphysics
طريق اور تفكرات (منهجية التفكير)	René Descartes	Discourse on the Method
اخلاقيات	Carr, Herbert Wildon	Metaphysical Meditation
حديثه نفسيات (مبادئ علم النفس)	G.F.Stout	A Manual of Psychology

قامت دار الترجمة بالجامعة العثمانية بنشر ١٨٩٥ كتابا من مختلف العلوم والفنون، وزادت تلك الكتب أهمية وقيمة في ثروة الأدب الأردني ولكن مترجمات الشيخ عبد الباري تمتاز بأنك لا ترى عليها لونا من الترجمة. حينما ينقل الشيخ عبد الباري آراء ونظريات الفلاسفة وعلماء النفس والتعبيرات الإنجليزية إلى الأردنية فيجيدها ويولي فيها بلاء حسنا حتى تظن مترجماته مؤلفات أصحابها الأصيلة. وقال لي العلامة السيد سليمان النوي ذات مرة: لا تساوي أي ترجمة قمتم بها ترجمة الشيخ عبد الباري النوي، وفضل الترجمة أن لا تنطبع بطابعها.

١٨٩ في السنة الماضية (أكتوبر سنة ١٩٨٧م) ذهب كاتب المقال يوسف البنوري إلى حيدرآباد على دعوة من جمعية "كل هند مجلس تعمیر ملت حيدرآباد دکن" (مجلس بناء الأمة لعموم الهند، حيدرآباد، دکن)، فوقع على فهرسة مترجمات الشيخ عبد الباري في مكتبة الجامعة العثمانية عن طريق الأخ مكرم أحمد علي.

المحاكمات الفلسفية:

بالإضافة إلى تراجمه إنه يمتاز بمحاكماته الفلسفية، وهي تشهد بتبحره ونبوغه في الفن، وتبدو هذه المحاكمات من خلال دراستنا لمقالاته: "الدلائل والمعجزات والعقل الحديث" و "منهج وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) وبالتالي تقدم إليكم مثالا من "فهم إنساني" (ترجمة كتاب Human Understanding مؤلفه David Hume). يقول الشيخ عبد الباري وهو يلخص مباحث المقدمة:

"ويحلو لي أن ألقى نظرة على نتيجة البحث. كانت الفلسفة الجديدة تتجه إلى أن الإنسان يفكر فهو موجود، ولم يبق في وسع الفلسفة والمنطق، والعقل والاستدلال الخروج من هنا للمأزق ولو خطوة واحدة. وبذل الفلسفي "لاك" كل جهوده في إخراج "الصفات الأولية" من ذلك للمأزق ولما جاء الفلسفي "بركلي" أدخلها فيه مثل "الصفات الثانية". وكلما تحطت الفلسفة ومرت بها الأيام والسنون، ظلت تلور حول محور واحد كتور طاحون لا يلور إلا حوله. وكلما دارت وقعت في نفس للمأزق، مأزق التفكير. إن فلسفة "بركلي" حصرت المادة ثانيا في ذلك للمأزق فلم يبق لها عين ولا أثر، واستتج الفلسفي "هيوم" من فلسفته نفسها أنه إذا لم تكن مادة فلا روح، فأبي شيء يبقى بعلمه إلا مجرد الأفكار والمشاعر التي ليست من صنع الجوهر للمادي الخارجي ولا الجوهر الروحي (الداخلي)، فكأنها مشاعر معلقة دون اعتماد على جوهر مادي أو جوهر روحي، حتى غابت لفظة "أنا" من "أفكر" فلم يبق يد الفلسفة إلا التفكير.

وما يوجد بين جوانب هذه النظرية من صلة يسمى بالعلة والمعلول في مصطلح الفلاسفة أي أن أحدهما يتوقف على الآخر فمن مآثر هيوم أنه جعل هذه العلية والمعلولية، والتوقف والاستلزام تفكيراً أي عادة ذهنية، وهكذا لم تزل تقطع الفلسفة مدارجها وتنقل من يد إلى أخرى، وأنشاء انتقالها من ديكارت إلى هيوم فقدت للمادة والروح، والجسم والنفس، ولم

تبقى فيها العلة ولا المعلول، ولا الخاصة ولا اللزوم، ولا الداعل ولا الخارج، وكل ما بقي عندها هو الشعور وأحواله، والأفكار والمشاعر التي ليست لعين ولا لغير، وذلك ما يعبر عنه بالتفكير، ولم يستطيعوا أن يشاهدوا ضعف الإنسان وقصور نظره أكثر مما شاهدوا، كيف ولو سعوا أكثر من ذلك لآزادوا عمى وعمها. وقد يتحول بعض "الجانين" عقلاء بعد هذه المحاولات" ١٩٠.

"إنني أعملت عقلي الحازم فتركته في خبال وجنون بالغين". (ترجمة أحد الآيات

الفارسية).

ميله إلى التصوف:

لما بلغ الشيخ عبد الباري رشده رأى أسرته متمسكة بعروة التصوف، معتصمة بمجمله، ملتزمة بعبادته، وكان والده الشيخ عبد الخالق خليفة الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي فاهتم بدراسته الدينية وعني بتزكية روحه وخلقه، وكان ولوعاً بالفلسفة والعلوم العقلية منذ نعومة أظفاره، ومع غرامه بها لم يزل زاهلاً في الدنيا وما فيها. وهذا أسس الورع والزهد، والتعشق وإثارة الآجلة على العاجلة.

ولما عين أستاذاً في الجامعة العثمانية وأقام في حيدرآباد تشرف هو وخطيله الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بحضور مجالس الصوفي محمد حسين الجشتي وسعد بزيارته والاستفادة منه. يقول عنه في مقاله المعنون بـ "دروس من الحياة": "إن تعبير الشيخ حسين "التوحيد الوجودي" من أبحاث السبل للقيام بعملية الدعوة بين الفلاسفة والعقلانيين وجميع من حادت بهم الفلسفة والعقلانية عن الجادة للمستقيمة. هنا، وفي جانب آخر كان مع قوله بالتوحيد الوجودي يدحض أباطيل وحدة الوجود من الحلول والاتحاد وكل ما يقف خطراً على التوحيد الخالص، ويؤكد

بمغايرة الخالق والمخلوق، ومما يدهشنا هو استشهاده بالآيات والأحاديث يؤيد بها نظرية "وجوديته"، والحق أن نظريته هذه لغزة لا يستطيع أن يدركها كل من هب ودب، ولكن الشيخ حسين صاغ نفسه في يوتقتها حتى صارت تلك حالا بل درجة له.

خمرة كأس يتمتع بها الحاضرون كلهم ويتنوقون بشاشة الإيمان ويتلونون بحلاوته - إلا من حرم - وبقي جميع الحاضرين في مجالسه وللمستفيدين منه جهلاء من نظريته - التوحيد الوجودي - ولم يكونوا يفهمون منها شيئا - وشبههم الشيخ مناظر الكيلاني "بشأة الأخفش" - إلا القليل النادر، وكنت أعد من هؤلاء القليل المعلودين، ولكنني أعترف بأن أعظم ثروة وجدتها عنده أنني أدركت حقيقة "لا إله إلا الله" ووقعت على سرها، وتنوقت حلوة الإيمان وخالطت قلبي بشاشته.

ظل الشيخ عبد الباري مع اعترافه بهذا يشعر بأمس حاجة إلى إرواء غليله الروحي، ولم يستطع أن يبل غلته التصوف الفلسفي بما أنه كان متبحرا في الفلسفة. فيقول في نفس المقال للمذكور أعلاه:

"إن نظريته الفلسفية - التوحيد الوجودي - بقيت في صورة فلسفة مع أنها تجمعت كلمة "لا إله إلا الله" وظهرت في مظهر التصوف، بل إن الطريق الذي أرشدت إليه النظرية هو التصديق القلبي الإيمان الخالص أو "الصدقية" بكلمة أخرى، كما يظهر ذلك من القول بأنه إذا لم يكن للرسول بد من الإيمان بالغيب فكيف يرير الصوفية والفلاسفة. وأين آراؤهم ونظرياتهم الفلسفية العقلية من إيمان الرسول، وقد توصلت من خلال عجز العقل والفلسفة إلى أن جزو "لا إله إلا الله" لا يمكن أن يعتد بصحته ما لم يتلفظ بالجزء الذي بعده وهو "محمد رسول الله".

إن الإيمان بالله لا يعتد به إلا إذا كان عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إن صحة كلام الله تتوقف على نبوة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعتراف بنبوته ورسالته.

خرج الشيخ عبد الباري يبحث عن شيخ مرشد، فأعجبته شخصية شيخ الإسلام حسين أحمد المدني والشيخ أشرف علي التهانوي المعروف بـ "حكيم الأمة". وذهب به الأول إلى الثاني، وذلك في شهر يونيو سنة ١٩٢٨ م^{١٩١}. وتحسنت روحه وترقى ذوقه العلمي بلقائه التهانوي. إنه جعل نفسه "ترباً" لعتبة التهانوي، فارتفعت "درجاته": "إنني طرحت نفسي على عتبه وجعلت نفسي "ترباً" له فارتفعت "درجاتي" (بيت فارسي).

وصدق القائل إذ يقول: "كان علماً، عارفاً بالله، صوفياً، مخلصاً، ورعاً، متقياً للغاية. يجتلب مكاناً مرموقاً بين طبقة العلماء الربانيين في العصر الراهن"^{١٩٢}. وذلك فضل الله عليه.

من فيوض صفة الربوبية:

"صار الشيخ عبد الباري الندوي بفضل تربية التهانوي وعنايته زاهداً في الدنيا، عابداً لله، متوكلاً عليه، عارفاً كاملاً، متفانياً في سبيل الله. وهكذا يصنع الشيخ التهانوي مع كل من يتصل به. ولا يختص ذلك بالشيخ عبد الباري، ولكن ما يميزه عن غيره إفضال الله عليه بأن تجلت عليه حقيقة "الربوبية" أو الرب بكلمة أخرى التي هي إحدى أسماء الله. ورأيته يتהלل وجهه حينما عرضت بين يديه هذه الفكرة، لأنه واقع لا ينكر، ويشهد بذلك أنه كان يأمر السالكين بالتوجه والنظر في ربوبية الله تعالى في كل مرحلة من مراحل الحياة، ويظنها إكسير الحياة وترياق السموم التي تخالطها فتغصصها وتعكر صفوها، وقد أعاد الشيخ عبد الباري هذا الحديث في كثير من رسائله التي كتبها إلي حتى إنه كتب في شهادة الخلافة التي منحني إياها -

^{١٩١} للمزيد من التفصيل عن هذه القصة الممتعة يراجع: كتاب "حكيم الأمة، نقوش وتأثرات" للشيخ

عبد الماجد الدرايبادي، ص: ٢١.

^{١٩٢} الشيخ يوسف البنوري: في مجلة "بينات" الأردنية الشهرية (كراتشي)، العدد الصادر في أبريل سنة

وهو من المعلومين الذين سئلوا بها -الفقرة التالية: "لا أزال أرى منذ أول الأمر إلى يومنا هذا أن أسهل الطرق للسالك هي أن لا يغفل حتى للحظة عن التأمل والنظر في صنائع الربوبية في شؤون الدين صغيرة كانت أو كبيرة"^{١٩٣}.

^{١٩٣} الدكتور غلام محمد في مقاله المعنون بـ "الشيخ عبد الباري، فلسفيا عظيما" نشرته مجلة "تعمير حيات" الأردنية في عددها الصادر في ٢٥ من يونيو سنة ١٩٨٩م.

علم الاقتصاد:

إنه وإن لم يكن عالماً اقتصادياً ولكنه استبطن مجرد نبوغه في الفلسفة نكنا ودقائق في علم الاقتصاد يلتذ بها علماءه، مثلاً يقول معنوناً بعنوان هامشي "المال مكان المال":

"وقد رأيت أن علم الاقتصاد الذي نعبر عنه بعلم المال تلقن تعاليمه الاقتصادية الإنسان أن ينسى الله والآخرة ويبدل أقصى ما في وسعه في سبيل عبادة المادة والبطن، وأما الإسلام فإنه يركز على إصلاح مفاسد المال وإزالة مقابحه، ويركز جهوده على الحض على أمور الآخرة والمال مكان الترغيب إلى المال وتحسينه وترينه للناس^{١٩٤}. ويقول في موضع آخر:

هناك مبحثان مهمان في علم المال:

١. كسب المال والحصول عليه.

٢. إنفاق المال.

يركز "الاقتصاد الجديد" في كليهما على الكسب، هذا، وإن "الاقتصاد الإسلامي"

تعبير عن الاقتصاد الإنفاقي^{١٩٥}.

ولقد أجاد في إيضاح معنى "الاقتصاد الكسبي" و "الاقتصاد الإنفاقي"، وجعل

"الاقتصاد الإنفاقي" سبباً للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وأحسن الاستدلال بأقوال الشيخ

التهانوي في هذا الصدد^{١٩٦}.

^{١٩٤} كتاب "تجدد معاشيات" ص: ٩٦.

^{١٩٥} المصدر السابق، ص: ١٠٧.

^{١٩٦} الدكتور غلام محمد: في مقاله "الشيخ عبد الباري فلسفياً عظيماً" نشرته مجلة "تعمير حيات"

الصادرة من لكتاؤ، العدد، ٢٥ من يونيو - ١٠ من جولائي سنة ١٨٨٩م.

التعليم والتبليغ:

ونعشر في هذا المجال على غرائب نكته، مثلاً يقول:

"إن التعليم الحديث مدفوع إلى الرقص بين الجاه والمال وملينات الحياة البهيمية، وذلك بفضل آرائه ونظرياته التي لا بداية لها ولا نهاية"^{١٩٧}. ثم يوضح خطأ التعليم الحديث وحمقه قائلاً:

"فطرة البشر الإلهية تطالب بالخير المطلق والبقاء وعدم التناهي، ولكن طبيعة الكون تجعل كل شيء منه محدوداً فانياً. فيه جانب من الشر ويدل ذلك طبعاً على أن حياة الإنسان هذه تتطلب حياة غير هذه الحياة تستوفي جميع ماسلف من رغباتها ومقتضياتها وحيث يتوفر كل ما ترغب إليه وتريد"^{١٩٨}.

"إذا كان للطلوب قليلاً محدوداً، والمطلوبات كثيرة غير محدودة فلا بد من نزاع بين أصحابها طبعاً، ولا بد من الجدل والغداء فيما بينهم، فلا غرو - ولو كان من المؤسف - إن تحولت الأرض كلها ساحة معركة تخوضها البول ومدن البلاد من هنا المنطلق"^{١٩٩}.

^{١٩٧} كتاب "تجديد وتبليغ"، ص: ٦.

^{١٩٨} المصدر السابق، ص: ١٠.

^{١٩٩} مجلة "تعمير حيات" لكتاؤ، العدد الصادر في ١٠ من يوليو سنة ١٩٨٩م.

الباب الثامن

صفاته وأخلاقه

التواضع والورع:

تجلت للشيخ عبد الباري الندوي هذه الحسنة حينما أرسل إلى الشيخ إدريس النغرامي (أحد العارفين للمعلمين بنغرام، لكناؤ) لمدة قليلة للتعليم والتربية، وكان أبوه الطبيب اليوناني عبد الخالق من خلفاء الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي، فأحاطه بإخلاصه وعنايته الكريمة. ولما نال القبول في ندوة العلماء وجد ههنا شخصية الشيخ السيد سليمان الندوي. وخلال إقامته بجيلا آباد وجد رفيقا ولوعا بالعلم وهو الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني، ونال فيها عنايات الشيخ محمد حسين. وبايع الشيخ حسين أحمد اللبني الذي شمله بألطفه وعنايته وتكرم عليه، وقام بتربيته الشيخ أشرف علي التهانوي الذي انصاغ الشيخ عبد الباري في بوتقته، وأخذ عنه إجازة البيعة والإرشاد كما قضى شيئا من أوقاته مع الشيخ محمد إليس الكاندهاري وقام معه بجولات دينية ورحلات دعوية، فترتبت عليه آثار كل ذلك، حتى صار رجل الإخلاص والأخلاق، كما يعترف بهذا معاصروه ومشايخه. وينظر إليه الصغار والتلاميذ بعين الإجلال والتكريم. وحينما قرأ الشيخ التهانوي كتابه "منهب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) لم يلبث أن قال: "يلو أن هذا الرجل عارف بالله"^{٢٠٠}، ثم قام بتربيته ولما اطمأن بإيمانه وخلقه منحه

^{٢٠٠} مجلة "تعمير حيات" الأردنية، الصادرة من لكناؤ، العدد: ١٠ من فبراير سنة ١٩٦٧، ص: ٥.

الخلافة.

يكتب الشيخ العالم المحقق، الصوفي الجليل السيد مناظر أحسن الكيلاني إلى الشيخ السيد سليمان النوي في رسالة له:

"لا يزال حال الشيخ عبد الباري النوي يزيدني غبطة يوما فيوما. أشعر بأنه يرتقي كل يوم. إنه رجل الأخلاق والروح لا محالة". يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النوي:

"وقد مر بي مثالان لعلو المهمة والإخلاص مثل الغزالي في عصرنا هذا، عصر الإلحاد والمادية. ألا وهما الشيخ السيد سليمان النوي والشيخ عبد الباري النوي رحمهما الله"^{٢٠١}. ويقول الشيخ إسحاق جليس النوي مدير تحرير مجلة "تعمير حيات" لكتاؤ، (سابقا): "ويشد عنه المثال في التسيق والالتزام بالمبادئ والأمانة والتدين بالإضافة إلى ما أكرمه الله به من مكانة علمية سامية يشار إليها بالبنان. بذل حياته كلها في ابتغاء مرضاة الله ورعا متقيا له، خالصا مخلصا في عمله، صادقا في الحب والوفاء له، مع ما أتيج من نبوغ العلم وتطور الفكر والرحاء. وبفضل عاطفته هذه وصل إلى الشيخ التهانوي متلمنا عليه"^{٢٠٢}. ويكتب الشيخ ماهر القادري، مدير تحرير مجلة "فاران" (كراتشي):

"إن الله تعالى سيجزل له الأجر والثواب بما بذل من جهود جهيدة في إثبات وجود الله تعالى وحقية الإسلام بالفلسفة. إنه أصاب حظا وافرا من العلم وأكرمه الله بمكانة مرموقة في مجال الفلسفة. وكان نموذجاً مثاليا لحسن السيرة ونبيل الأخلاق والصلاح". ويضيف قائلاً: "كان وجهه ومقلناه وجيبناه ونخلناه، ينم كل ذلك عن قيام ليله وشغفه واشتغاله بالأوراد والأذكار. كان مجبولا على التدين، جامعا بين الضدين، الفلسفة والتصوف، متمسكا

^{٢٠١} المصدر السابق.

^{٢٠٢} المصدر السابق.

بملفوظات وتعاليم الشيخ الأجل أشرف علي التهانوي رحمه الله أشد التمسك^{٢٠٣}.

يقول الشيخ منصور النعماني النلوي رحمه الله مسلطا الضوء على فضائله وجامعيته: "وكانت الفلسفة والعلوم العقلية موضوع الشيخ عبد الباري النلوي، وجعل موضوع الفلسفة الذي يعرف بجفافه وإملاله موضوعا ممتعا، يمتع القلب، ويعجب السمع، وتستأنس به النفس، بأسلوبه الشيق الرائع الفذ. إنه مرّى الشعور، فاحص النظر، تقي الذهن، طاهر الفكر، واسع العلم، وذوقه أدبي ناضر. ويجمع أسلوبه بين قوة التأثير والروعة، والجاهزية مع السناجحة والحماس. يعرف الفلاسفة بجفاف الطبع والمثانة، والعلماء بالمهابة والرزانة، والصوفية بالدعاة والصموت، واجتمعت الثلاثة في شخصية الشيخ عبد الباري، فكان فلسفيا في وقاره ومثاقه، وعالما بجلاله ومهافته، وصوفيا في وداعته وصموته، وإذا تحدثت معه ولم تتجاوز فيه الحد كان لك خفيف الروح، ظريف الطبع، يطرفك بفكاهات تدفعك إلى الضحك، ويهش لك ويش كأنه ليس بفلسفي. يرتجل كلاما فيه حلاوة وطراوة، وتهكم لاذع، وفكاهة أديبة، ودقائق التصوف. مصداقا لقول الشاعر: "إنه يقول كلاما يستمع إليه غيره ويصغي إليه أدنه".

ومع ما أتيح من صيت ذائع ونبوغ في العلم. كان مثالا للبساطة والسناجحة، كثير التواضع. بساطة فيها جلال، وتواضع فيه وقار، ومسكنة فيها مهابة^{٢٠٤}.

ذوقه الأدبي:

وهب الشيخ عبد الباري النلوي حظا وافرا من الذوق الأدبي الذي يرجع الفضل فيه إلى أستاذه العلامة شبلي النعماني الذي ركز عنايته عليه ووفره أسبابا ووسائل ساعدته في إبراز مواهبه المكتونة، وأرسله إلى التابعين من الأساتذة ليزداد نبوغا ورسوخا فيها، وعين له منحة تعليمية لينقطع إلى التعلم والدراسة. يقول الشيخ عبد الماجد الدرايادي:

^{٢٠٣} مجلة "فاران"، العدد الصادر في شهر مايو سنة ١٩٧٦م.

^{٢٠٤} مجلة "تعمير حيات" لكاناؤ، العدد الصادر في ١٠ من فبراير سنة ١٩٧٦م، ص: ١٣.

"كان من معاصري الشيخ السيد سليمان النوي والشيخ عبد السلام النوي، وإن كان أدنى منهما منزلة. وكان يحضر مجالس ودروس الشيخ شبلي ويستفيد منه"^{٢٠٥}. ويستطرد قائلا: "ويحسن التأليف ويجيد الكتابة. ترى أسلوبه بمجم البحرين لاقتباسه للعاني من الشيخ التهانوي، وأسلوب الكتابة من الشيخ شبلي. وقد قام بنشر تعاليم التهانوي في أربعة أجزاء أسماها "تجديد دين" فتداولتها الأيدي ونالت قبولا شائعا وقام في الأيام الأخيرة بنشر الدعوة إلى الله وأبرز الدين في قمص سابعة من البرهان والعلوم الطبيعية ليشرق في العالم كله"^{٢٠٦}. ولم يسر في أسلوبه على خط واحد:

"إني كلما أذكره ألقبه "تهانوي الفكر شبلي القلم". ألف كتابا صغير الحجم جزيل المعنى باسم "منهـب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) في ريعان شبابه فأحسن تأليفه وكأنه نسي الكتابة والتأليف بعده"^{٢٠٧}. ويقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النوي متلهفا على ذلك:

"وانصاع الشيخ عبد الباري في بوتقة الشيخ أشرف علي التهانوي حتى الشيخ - الذي كان ميالا إلى قبول شئى ورفض ما سواه - تأثر بأسلوبه وأفكاره العلمية. كان أدبيا أريا وكاتبا ضليعا. يجمع أسلوبه بين القوة والنضارة، والطراوة والطلاوة، والاستدلال والعقلية، وحلاوة اللغة والأدب، وسلاسة الفقر. ويرجع في ذلك الفضل إلى تربية العلامة شبلي. وكتابه الوجيز "منهـب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية)، ومقاله حول المعجزات^{٢٠٨} الذي هو ملحق بالجزء الخامس من كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من أروع نماذجه. ولكنه الآن صار

^{٢٠٥} معاصرين.

^{٢٠٦} المصدر السابق.

^{٢٠٧} المصدر السابق.

^{٢٠٨} وقد تم نشره في صورة رسالة مستقلة.

يرتاب في أسلوبه ذلك، ويذهب به ظنه إلى أنه عبارة عن التليس والتليس - اللفظ له - فجعل يقلد أسلوب الشيخ التهانوي، ولو لم تحمل ذلك على "التجرء على الكبار" لقلت: إن صنعه هذا من تأثير حبه إياه دون مراعاة متطلبات العصر، ولو عرض الحقائق والأفكار التي حصلت له بفضل ملازمة الشيخ التهانوي ومجالسه ودراسة الكتب، في أسلوب العلامة شبلي لكانت كنبه أنفع للطبقة المتقدمة العصرية التي كان يؤلفها لها، ولكانت تلك الطبقة المثقفة أقرب إلى الدين وأعرف به مما كانت^{٢٠٩}.

منهج تربيته:

كلما رأى إهمالا لأمر من أمور الدين وخاصة إذا كان من الفرائض والواجبات و العقائد والشعائر الإسلامية والمالية أخذ بذلك أشد المؤاخذه، ولم يرخ له العنان، فإن لم يمثل أمره قطع العلاقة معه، ولو كان من أقرب أقاربه أو أبنائه. كان أحد أبنائه يخلق أو يقصر اللحية فقال له: "لا تدخل بيتي، ولا ترني وجهك"، وفرض على ابنه الآخر بعض القيود لمخالفته أمرا من أمور الدين. كان يريد أن يرى كل واحد يلتزم بأمر الدين ويعمل بأحكامه ويطبقها على حياته ويتصف بعظمة الشأن في أمر الدين، وابنه الثالث لم يقصر في الفرائض الدينية ولكنه كان يضيع جزء لا بأس به من وقته في إصلاح الخلائق^{٢١٠} والتعهد بها، وكان أبوه وإن كان راضيا به لعدم تقصيره في الفرائض، كارها وغير مقتنع بانصرافه إلى الخلائق دون الأعمال الدينية الخالصة. وإذا سأله أحد عن ابنه خلال اشتغاله بالخلائق قال له متفكها به: إنه صار باغيا^{٢١١}، ومع كل فإنه لم يدخر أي وسع في تحلية أولاده بالتعليم والتربية. يقول الحافظ أحمد الباري:

^{٢٠٩} بران جراغ، ١٢٣/٢.

^{٢١٠} الحديقة تسمى بالأردية: باغ جمعه باغات (واسم الفاعل منه باغيان، وباغي. والباغي يرادف الكلمة العربية وهي اسم فاعل من بغى وحول هذه اللفظة تدور الفكاهة التي ذكرت (المترجم).

^{٢١١} المراد به صاحب حديقة، لا صاحب بغى من بغى (المترجم).

"سعدت مرات بحضور مجالس العارفين والعلماء الكبار وأقمت عندهم، فوجدت أن أي لا يحمل في قلبه حب أولاده أو بغضهم إلا لله وفي الله، وقلما وجدت مثل ذلك في غيره. إنه لم يدخر أي وسع في إثارة العاطفة الدينية في نفوس أولاده، ونحسر جميع الإمكانيات والوسائل في نفخ روح الدين في قلوبهم. من ذلك أنه أرسلنا إلى الشيخ أبرار الحق وأحفنا بمدرسة أشرف المدارس التي لم تمض على تأسيسه إلا مدة قليلة، بعيدا عن منزلنا بكثير، وكنت لم أتخط حينئذ السنة السادسة من عمري، وإخوتي في العام السادس أو الثامن من عمرهم. ومن سوء حظنا أن أي واحد منا لم يستطع أن يسير على الطريق الذي أرشدنا إليه، فأرسلنا أبونا إلى الشيخ الشاه وصي الله. فلم يمكننا هنالك أيضا أن نحقق آماني أينا رغم ما شملنا الشيخ وصي الله به من اللطاف وعنايات، وقد أكرم الله أبانا بفضائل لا يأتي عليها الحصر. وكان من مناقبه أنه إن لم يحضر أحد إخوتنا المسجد لأداء الصلاة حبس طعامه، وإذا أتاه أحد أقاربه ولم يحافظ على الصلوات لم يأذنه بأن يقيم في منزله"^{٢١٢}.

وكان ما يهمه بالإضافة إلى تعليم أولاده وتربيتهم تنمية الإيمان والريانية في نفوسهم، ولذلك أرسل ابنه الحاج الحافظ أحمد الباري وابته إلى الشيخ زكريا الكاندهلوي الملقب بـ "شيخ الحديث" لإصلاح دينهما وتركية نفوسهما، وفيما يلي رسالة له وجهها إلى الشيخ الكاندهلوي: "أعترت إليكم بما قد تأخرت في الإجابة على رسالتكم الكريمة التي وجهتموها إلينا إثر مبايعة ابنتي. وجبر هذا الكسر إرسال رسائلكم إلي مع ما أصابكم من أمراض وأعذار. فأشكركم على ذلك شكرا جزيلا، وأدعو الله أن يشفيكم ويبارك في حياتكم دائما وأدعو لكم. شفاكم الله عاجلا وكاملا وزيدت بركاتكم يوما فيوما، وإليكم تفصيل بيعة ابنتي الآن حتى تكونوا قد رأيتم أن قد تحقق ماشاء الله فلا يمكن أحدا أن يلومني، والحق أنني أريد أن تكون للمرأة كلها عورة. يسكن أقاربي على مقربة مني، فليست المسافة بينها وبين وطنهم إلا

^{٢١٢} تجديد تصوف وسلوك، ص: ٤٠٣، سنة الطبع: ١٩٩٣م.

بضعة أميال، ومع عدم البعد لا يسمح لها بالذهاب إليهم أو بدخولهم علينا إلا ببعض قيود وشرائط، فضلا عن أن تؤذن بمغادرة لكتناؤ إلى قرية "بخت". هنا وابنة أختي الشقيقة - وهي أختي في الاسترشاد والبيعة، فإنها قد بايعت معي الشيخ حسين أحمد اللدني - التي أكرمها الله بالإيمان والصلاح قد تم زواجها، وكانت على وشك الذهاب إلى بخت مع ابنتها^{٢١٣}. فكانت ابنتي تود أن تسافر معها ولكنها لم تجرؤ على أن تستأذني، ولم تكن ترجو أن أذنها بذلك، فبقيت صامتة وبينما كانت أختي تتأهب للسفر، ولم يبق منه إلا بضعة ساعات إذ دار بخلدني أنني أسمحها بالسفر معها لو عزمت على أن تبايع حضرتكم، فلما اطلعت على ذلك استطارت فرحا كأنها نالت بغيثها، ولم تلبث أن اتخذت أهبتها للسفر، وخرجت مع عمته، وشرفتموها بالبيعة ولا أدري أن كنتم حينئذ على علم بأنها ابنتي. وللمتأس من حضرتكم الكريمة أن تخبروني بما جرى معها، وكيف وجدتموها ورعا وصالحا. أرف إليكم هدية السلام مني ومنها وأدعو لها أن يوفقها الله حتى تريد الآخرة وحسنة الدنيا لنفسها ولزوجها ولأولادها^{٢١٤}.

تدل الرسالة المذكورة أعلاه على عنايته بالأولاد وحرصه على السعادة لهم في الدنيا والآخرة. وههنا رسالة له إلى ابنه الأكبر شمس الباري تشير إلى اهتمامه بإصلاح معادهم بالإضافة إلى التوجه إلى تحسين اقتصادهم وكسب معيشتهم بأفضل طريق وأحسنه، وبالتالي ترجمة نص الرسالة:

^{٢١٣} هي ابنة أخت الشيخ عبد الباري التي تم زواجها في قرية بخت، مديرية سهارنپور، على مقربة راج بور، وكانت تسكن بها.

^{٢١٤} ليراجع: "مكتوبات حضرت شيخ الحديث مولانا محمد زكريا كاندهلوي (بمجموعة رسائل الشيخ زكريا الكاندهلوي)، ص: ١١٢-١١٣ الجزء الثاني، قام بجمعها وترتيبها: الدكتور إسماعيل ميم، طبعة "دار الإشارات" كراتشي.

"شبهستان قلم رسول (اسم منزله)

شارع هاردنك، لكناؤ

ابني العزيز شمس الباري سلمك الله

السلام عليكم

أدعو الله لك السعادة والهناء

كتبت إليك رسالة مبسوطه بقلم أيوب سلمه الله منذ حوالي ثلاثة أيام، ولكن على عنوان منزلك القديم، فكتبت في رسالتك الأخيرة أن أستاذك وهبك منزلاً تسكن فيه، فاجتهد أولاً في تلقي تلك الرسائل التي أرسلتها إليك على العنوان القديم ثم اكتب إلي عنوان منزلك الحالي، ولكني الآن أكتب إليك هذه الرسالة على عنوانك القديم، وما دفعني إلى كتابة هذه الرسالة عاجلاً هو أنني تلقيت رسالة زاهد حسين سلمه الله، طلب بها ألف كتاب على عنوان: "إدارة اشاعت دينيات، دلهي الجديدة، رقم: ١٣" وكان من الميسور إرسال الكتب على عنوان "مكتبة برهان" كما كتبت للمرة الثانية في شهر أو شهرين، ولكنك نمت أثناءها للمرة الثانية، وأما الآن فمن العسير، ولكنني أرسل ما أمكنتي، وهذا العنوان الجديد الذي كتبت به إلي أعني (إدارة اشاعت "دينيات" دلهي الجديدة)، يمكن أن تكون قد فتحت حساباً في أحد البنوك. فكيف يمكن إرسالها عن طريق البنك؟ ومن أين تأتي به؟ وما هو أهم من هذا الأمر الذي ألفت إليه انتباهك أنه لا بد أن تضحب معك مساعداً شريكاً لك - إذا كان ههنا دكان - كما يجب أن يجلس على الدكان رجل موثوق به. إذا كان الشيخ أشفاق خان - أخي في الدين والبيعة ورفيقك الناصح الأمين - مساعداً شريكاً لك فيها ونعمت، وإلا فالأنسب والأولى بك أن تبدأ فتنشئ مكتبة في منزلك وترسل الإعلان عنها في شتى المجالات والصحف. والباقي عند التلاقي.

وكان أولاده يشاهدون بأعينهم ما أكرمه الله به من اهتمام بتربيتهم وعاطفة الحب في الله والبغض في الله والورع والتقوى وحبه وصلته بالدين. ذلك الذي أسفر عن أن قام أولاده بتمريضه وخدمته في آخر أيام حياته واشتغلوا بعد

وفاته بأعمال كان يجيها ويقوم بها، وإهم لا يزالون يؤدون مهمته ويبلغون رسالته إلى العالم كله، ويقومون بنشر مؤلفاته ويعاملون رفقاءه والمتصلين به أحسن معاملة وخيرها. ويرجع الفضل في ذلك إليه حيث رباهم فأحسن تربيتهم وعلمهم فأحسن تعليمهم واهتم بهم ودعا لهم، ولنأخذ على سبيل المثال ابنه الحاج فضل الباري الذي لم يكن يتجرأ على أن يستقبل أباه ويواجهه خلال حياته لتشيده في القيام بتربيتهم، ولكنه ظل يعتقد من صميم قلبه بأن كافة توجهات أبيه وإرشاداته صحيحة حققة، فنجراً لهذا الكسر وتداركاً لما فاتته وصدر منه من هفوات يقوم بإسهامات جبارة في أعمال الخير لتكون ذريعة إلى التقرب إلى الله وذخراً لوالده في يوم الدين فإن حسنات الولد ذخراً لأبويه وإن لم ينو الولد، فإنهما سبب لظهوره في حيز الوجود، وإن نوى صار العمل ذريعة إلى التقرب إلى الله.

والسلام عليكم

الداعي وطالب الدعاء

عبد الباري

الصراحة في القول والجرأة:

طبع الشيخ عبد الباري النلوي على حب الواقعية والنصرة للحق. إذا رأى شيئاً حقاً صدع به بكل جرأة وصراحة، لا يخاف فيه لومة لائم، ولا يبالي فيه صداقة صديق وقرابة قريب. يقول الشيخ محمد نعيم الصديقي النلوي - نزيل دبي الحالي - واصفاً بما شاهدته بأمر عينيه:

"إنني تشرفت بزيارته لمرات عديدة خلال طلب علمي في دارالعلوم لنودة العلماء، وكان يشملني بالعباية واللفظ، والحب والشفقة، ولكنه إذا رأى في أي تقصير في اللباس أو اللوضوع، أو الكلام أو المشية، ردعني ردعاً شديداً وحزني منه، وكان كلامه يندى

وجملة القول أن أبرز خصائص الشيخ عبد الباري الجرأة والصراحة في القول. إذا أراد أن يتخذ موقفاً ففكر وتروى فيه فإذا اتخذته ثبت عليه وصمد صمود الجبال الراسيات ولم يؤخر عنه قلميه. وكان يكره الألعاب الغريبة، ويرى أنها تحط من المثل الإسلامية والقيم الخلقية ويرفع صوته ضلها. ولم يكن يستحسن حفلات التأين. يقول الشيخ المفتي محمد ظهور الندوي الذي كان يزوره فينة بعد أخرى: "كان يشبه الشيخ عبد الباري الندوي حفلات التأين بالأعراس العصرية. وكان يستحضر عند كل عمل الأثر "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسهه فإن لم يستطع فليقلبه وذلك أضعف الإيمان"، فإذا رأى منكراً استبقه في قلبه ثم احتال وفكر في تغييره بلسانه، ونبه صاحبه عليه بلسانه ويرغب ويهيب، وإذا استطاع أكثر من ذلك وقف منه موقف متشدد متصلب، وإذا رأى أحداً يقصر أو يتكاسل في واجبات الدين وشعائره فأدنى ما يعاقبه به أن يخرج من منزله. وأما إذا كان تارك الصلاة متعمداً لم يسمح له بالدخول أو الإقامة في بيته، والحق أنه كان أشد ما يكون في شأن الواجبات والحقوق والفرائض لا يلين ولا يتلطف.

اشترك مرة في حفلة زواج تم عقدها في منزل أحد العلماء. وبينما كانوا فيها إذ حان وقت الصلاة، فلحبت أكثرهم لأدائها، ولكن التزوج بقي جالسا، فقال الشيخ عبد الباري الندوي للعالم: لم زوجت ابتك تارك الصلاة هنا. وكان يستفسر عن المستأجرين ويتفحص عن أحوالهم الدينية أهم مشرعون أم لا، وهل يتقبلون بأحكام الشريعة أم لا، فإن لم يكون مشرعين متقبلين بأحكام الشريعة لم يستأجرهم. فخاصمه أحلهم قائلاً: مالك وشأننا أقيبل على الاستحجار، لم تتدخل في شؤوننا؟ فصارحه قائلاً: لا بد لكل من يقيم في منزلنا أن يكون مشرعاً، محافظاً على الصوات، ملتزماً بأحكام الدين.

وإذا استطلع رأيه في القضايا المليية أو الأعمال التي تدعم الدين والملة، أدلى برأيه بغاية من النصح لدينه وأمته والبشر كلهم. ومن نماذجه التي تجدر بالذكر أنه حينما عرضت قضية رئاسة ندوة العلماء بعد وفاة رئيسها الشيخ الدكتور السيد عبد العلي الحسيني رحمه الله، فقال بكل صراحة وقوة: إن الشيخ السيد أبا الحسن علي الحسيني الندوي ولو لم يمكنه إفراغ أوقاته لها لتراكم أشغاله وكثرتها، ولكن ندوة العلماء تستفيد منه وحده، فهو الذي يستحق هذا المنصب. فشهد العالم كله بنجح رأيه ففي عهده ذاع صيت ندوة العلماء في الخافقين، ونالت شهرة فائقة وقبولاً شائعاً.

ومن نماذج صراحة قوله ونصرتة للحق وواقعيته إدلاؤه برأيه نحو تأسيس حركة "الجماعة الإسلامية"، ومعارضة فكرة ومنهج الشيخ السيد أبي الأعلى المودودي وقد بسط في ذلك الكلام الشيخ محمد منظور النعماني في كتابه "مولانا مودودي كى ساته ميرى رفاقت كى سركرشت اور اب ميرى موقف" (قصة مصاحبتي الشيخ المودودي ووجهة نظري الآن) كما انتقد غيره من رجالات وحركات وآراء، وكلما قال شيئاً صارح به، ويتجنب من التقيص وتبع المساوىء.

وربما أعمل الظرافة وذوقه الأدبي لقول الحق، وتميز الحق من الباطل، وتعبير المنكر، ويعبر عن الوضع كله بجملة أو جملتين، تكمن فيها كلمة نصح وخير. يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي خلال ذكر الشاعر الإسلامي الشهير "جكر" المراد آبادي:

"وذاًت يوم كان الشيخ السيد سليمان الندوي مقيماً في دار الضيافة لندوة العلماء، وكان الشيخ عبد الباري الندوي جالسا معه، إذ جاء النواب السيد شمس الحسن خان يزوره، ولعل ذلك هو السبب الذي جرهم إلى ذكره. وخلال هذه الفترة تاب الشاعر "جكر" من إدمانه للخمر. قال النواب شمس الحسن: بالأمس جاء الشاعر "جوش" للمليح آبادي وذهب معه بالشاعر "جكر" يلحاح وتناول معه الخمر فانتقضت توبته فلما رجع أغلق الباب وجعل يكي

فلما سمع ذلك الشيخ عبد الباري - الذي يعرف أصلاً بنوغيه في الفلسفة والتصوف، ولكنه أدبي النوق أيضاً، وطلماً تبع من لسانه قتر بديعة رائعة - قال مرتجلاً: يبدو كأن "جكر" ^{٢١٦} فاسد و "دل" ^{٢١٧} صالح طيب. ^{٢١٨}

يقول الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي بعدما تعرض للقصة المذكورة أعلاه: "والواقع أن قلب الشاعر "جكر" لم يزل صالحاً طيباً منذ أول يومه كأنه فطر على ذلك فلا أدري كيف ومتى وقع فريسة هذه العادة السيئة فصار ملعناً للخمر" ^{٢١٩}.

ثم نظر الله إليه وأكرمه برحمته فلمجرد فضله اتصل بالعلماء الربانيين والمشايخ وتوطدت صلته بهم ولم تزل تثويق يوماً فيوماً. وصدق الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي إذ قال: "وأخيراً أخرج هذا الشاعر "جكر" من صف الطالحين وضم في زمرة الصلحاء والعارفين بالله" وجرأة الشيخ عبد الباري ومصارحته بالحق أمثلة لا يأتى عليها الحصر، وقد ذكرنا فيما مضى من السطور شيئاً منها، ليتبين أنه لا بد لإبطال الباطل من إظهار الحق وإحقاقه، فإن لم يتم هذا الأمر لم يستطع أحد أن يقوم بالتمييز بين الحق والباطل إلا من شاء الله. غيرته الإيمانية وتأييده للدين:

ومن أبرز خصائص الشيخ عبد الباري النلوي حميته الدينية وغيرته الإيمانية التي تقلقه وتقض مضجعه، ولما أنه كان نافذ البصر، دقيق النظر في الأوضاع الراهنة، واسع الاطلاع على

^{٢١٦} اسم الشاعر، ويطلق بالأردية على الكبد أيضاً. (المترجم)

^{٢١٧} بمعنى القلب بالأردية. (المترجم)

^{٢١٨} أتى بلفظتين تطلق كل واحدة منهما على عضوين من أعضاء الجسد الإنساني، فأراد بكتيبتها عضوين، ولكن أولاهما يصح إطلاقها على كل من العضو والشاعر المذكور فأبدع بذلك نكتة لطيفة (المترجم).

^{٢١٩} بران جراغ، الجزء الأول، ص: ٣٧٢.

للمؤامرات التي يدسها أعداء الإسلام والمسلمين، كثير المطالعة للصحف - الإنجليزية منها بوجه خاص - ولا يترك أي قضية عفوا دون روية ولا تفكير فيها، وإنما كان يسير غورها، ويدرك كنهها فيضطرب ويقلق لذلك أشد القلق، كذلك إذا رأى عملا ينافي روح الإسلام وطبيعته فكر ونظر في مضاره أكثر منه في منافعه، ويرى بعين بصيرته مالا يراه كل من هب ودب من أخطار وأزمات وبنية للتصلين وغيرهم من الناس ليكونوا منها على حذر ويجب أن يستحلم الشيء فيما خلق له، ليتحقق ما يتوخى منه من غرض نبيل، وكان يكره الحياء والانصراف عن الغرض الحقيقي، فمن ذلك أنه لم يكن يجب أن تسخر المدارس التعليمية للأعمال الدعوية ولم يكن يرى أن يتم القيام بأعمال الدعوة والتبليغ في مدارس التعليم إلا قدر ما لا بد منه، فالمدارس عنده دور المعلمين والتعلمين، لا الدعاة والمصنفين، ولا مراكز التبليغ والتأليف، وكلما أدلى برأي صرح وصارح به ووقف منه موقف المشدد، فكان بعض الناس يعبرون عن رأيه وصنيعه بالتطرف، ولكن ما يؤدى إلى ذلك هو حميته الدينية وغيرته الإيمانية وتأييده للدين. ويشهد بذلك مقاله فضيلة الأستاذ الشيخ برهان الدين السنهلي الذي كان من أولئك العلماء الذين كانوا يزورونه دائما ويتشعرون بعلمه وورعه، وكان موثوقا به عنده وعية سره. سألته مرة عن أبرز خصائص الشيخ عبد الباري فقال: "أبرز خصائصه الحمية الدينية التي لم تضعف ولم تغلب عليها صفة أخرى".^{٢٢٠}

^{٢٢٠} وقد حكى الشيخ السيد محمد غفران الندوي قصة من نوعها أن الشيخ العلامة السيد أبا الحسن علي الحسيني الندوي لما أراد السفر إلى بلدة "راور كيلا، جمشيدبور" بعدما انتهت فيها نار الاضطرابات الطائفية جاء الشيخ عبد الباري وحده من منزله إلى ندوة العلماء بعد العصر، راجيا على عربية، وقال للعلامة الندوي متألما حزينا: "إن من عوامل هذه الاضطرابات سوء أعمالنا، فقد بلغني أن أهل بلدة راور كيلا انتهكوا حرمة شهر رمضان المنصرم، فإذا أتيتهم فآلفت انتباههم إلى هذا وأمرهم بالاهتمام بالاتصال مع الله سبحانه اتصالا مباشرا قويا، والتمسك بأحكام الدين والالتزام بشؤونه، فلئذا هي التي تؤدي إلى نزول نصر الله ورحمته" قال ذلك الشيخ عبد الباري ووجهه ينم عن قلقه وجزعه، وحزنه وألمه.

جمعه بين حسني الدين والدينا:

ومما يمتاز به الشيخ عبد الباري الندوي جمعه بين حسني الدين والدينا، فحياته كلها تعبير صادق عن الدعوة الحسنية إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار". فكان جامعا بين فراسة المؤمن والبصيرة في الدين، وبين خبرة الدنيا وسعة الاطلاع على شؤونها وقضاياها، وفي تعبير أوسع: كان متصفا بالعقل الديني والعقل الندوي، وقد انتفع بطبيعته الناصحة للمواسية غيره من الناس. قام الشيخ الدكتور عبد العلي الحسيني - الأخ الأكبر للشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي - والشيخ عبد الباري الندوي بغرس وتشيد الحدائق، وساعد كل واحد منهما الآخر، وفيما يلي نقل شيئا من رواية عن الشيخ عبد الباري الندوي، وهو يرشد إلى طريقة المعاشرة مع العمل بالدين. وما ذكر الندوي عن الشيخ الدكتور عبد العلي الحسيني من البصيرة في الدين والفراسة الإيمانية والاتجاه الديني يصدق كل ذلك على قائله نفسه:

"لم يكن الشيخ عبد العلي الحسيني من المتدينين الذين يزهلون في الدنيا كل الزهد وينبئونها وراعهم ظهريا ولا ينظرون إلى مايقع عليهم من حقوق ومسئوليات، وإنما كان جامعا بين الدين والدنيا. فإذا اهتم بأمور الدين فإنه كان يعنى بالدنيا وما فيها ولا يتغافل عنها، حتى إن الأمور التي تتعلق بالدنيا وما فيها يشتغل بها غاية الاشتغال، من ذلك غرسه حدائق غناء طيبة واسعة في وطنه راي بريلي ووطن خؤولته هنسوه وفي لكتاؤ، وجعلني شريكا حينما غرس في لكتاؤ حديقة تمتد على مساحة ست عشرة مائة ياردة مربعة. وبما أنني لم أزل مقيما في حيلرآباد ظلت مجرد شريك فيها، ليس لي معها شأن، وكان الشيخ الدكتور هو مديرها والمتعهد بها. وتحت إشرافه تم غرسها وتشيدها. ولما تقاعدت عن رئاسة قسم الفلسفة ورجعت إلى لكتاؤ وجلتها مغروسة مشيدة. إن الله أكرمهم من الفهم السليم - الذي يعبر عنه بالفهم العام أو Common Sense بالإنجليزية - بمايلرك به كنه كل شيء ولذلك كانت له خبرة جيدة

وإطلاع واسع على فن البستنة وأدواء الثمار والأشجار وأسملتها المختلفة.

ولكن اشتغاله بأمور الدنيا هذه كله من الدين. ولذلك أمثلة لاتعد وحسبنا مثال

واحد:

أصيب ثور من ثيران الحديقة ببلء حيث كان يسير شيئا ثم يقعد - كأنه متعب مريض - خلال الحرث فاحتيل لإزالته، ولكن لم ينفعهم أي حيلة فأرسل إلى سوق الدواب لبيع، وبفضل تربية الشيخ التهانوي تذكرت بعدما أرسل الثور إلى السوق أنه نسي الأمر بإيراز دائه، فدمت - وماذا ينفع الندم وقد أصاب السهم رميته - فقلت للشيخ الدكتور عبد العلي: لقد أخطأنا عظيما بعد إيراز دائه. فقال: لا، قد أمرته بإيرازه والجدير بالذكر أن الثور بيع بمثل الثمن الذي اشتري به. حيث قال من اشتراه: لا بأس، سيصح ويزول داؤه.

ومن أمثلة بصيرته في الدنيا أنه لم يزل يحاكم في قضية الوقف عن الشؤون الإدارية لنوة العلماء منذ أكثر من ثلاثين سنة، فإذا تحدثت معي حول هذا الموضوع دهشت وعضضت على أناملي حيرة واستعجابا وأقول له: سيدي الدكتور! إنك أوسع خبرة وإطلاعا على المحاكمات من المحامين والقائمين بأعمالها، وخصوصا إذا قارنت بينه وبين نفسي في هذه القضية، فإنه حينما عرضت قضية الوقف الشخصي وثار فيها النزاع وبلغ الأمر إلى المحكمة، وجعل المحامون والقائمون بأعمالها يتحدثون معي حول القضية فلم أستطع أن أفهم من كلامهم شيئا، وإنما أرى أن المحاكمات في العصر الراهن لعلها أشد أذى وكأما، ولا أعالي إذا قلت: إنها لا تقل عن نوع من العذاب في هذه الدنيا، إن محاكم اليوم مفتوحة على اللصوص والظلمة، مسلودة على الصلحاء وأهل الحق والصدق. والعجب أن الناس يتحملون كل ذلك طيبة نفوسهم. ياله من ويل! لقد تغيرت طبائعهم حتى لا يحسبون الشر شرا، وبذلك ظل شيخنا الدكتور عبد العلي الحسيني يواجه مشاكل فينة بعد أخرى، وأصابه الجزع واليأس، فيسألنا أن ندعو الله أن يكمله بالانتصار في القضية، وبما أنه جعل خدعة وصيانة أوقاف مدرسة دينية نصب

عينه و كان جزاؤها وأجرها من الله بمرأى ومسمع منه، فكان يتحمل تلك المصاعب عن طيب نفس متيقنا بأن المعرة تلوها المسرة وأن المحبة تجعل النكبة راحة ونعيما. إنني أرى أن قد تخلصت أوقاف المدرسة بفضل نظره الدقيق وبصيرته في أمور الدنيا من برائن الغاصيين، ومخالب المتخطفين، ولو بشق النفس، وتخلصت ولو بعد مصاعب المحاكمات التي طال أمدها، حتى إن المحامي المعروف حكيم الدين الصديقي -الذي كلل الله النجاح في هذه القضية بيده، وكان ممن أسلوا إلي معروفا منذ أول أمري - أشاد باستقلالية شيخنا الدكتور وبصيرته ودقة نظره في القضية، وقال معترفا بأنه إذا تفهم شيئا ثبت عليه ولم يستطع أحد أن يزحزحه عنه. وأتذكر قصة خبرته وسعة اطلاعه على القضايا، قال لي الشيخ الدكتور: "لا يحسن استعمال محام - ولو كان في الظاهر متدينا- بلا أجره لعمل مستقل من أعمال مدرسة دينية. أما إذا كان العمل ضيلا تافها، أو طلب مشورة مؤقتة فلا بأس، فإنه ولو فضلت أجرتك ولكن يفسد العمل."

إن شئت قلت: إن ذلك من مهمات الأمور ولكن الحق أنه كما لم يكن يتكاسل في أداء الحقوق والواجبات ابتغاء مرضات الله، كذلك كان يحتسب على الله في جميع الأعمال اليومية التي كان يمارسها ولو كانت ضئيلة. ولم تزل عادتي إلى مدة طويلة أن كنت أؤدي صلاة الجمعة في مسجده وأستريح وأتحدث معه في مرقده الخاص إلى العصر، وكم مرة وقع نظري على البصل وغيره من الأشياء متشرة على دواليب الحجر. وكان يقول: إذا جمعت مرافق أدت إلى السهولة على الميعاد، والبركة والكفاية، فإن الشيء الحلال نعمة من الله، فلا بد لنا من الاحتفاظ به وتقليده حتى قلده.

فكأنه وجد طبيعة التهانوي، فبالإضافة إلى الشعور بمسئوليته حتى في الأمور التافهة كان مطبوعا على الكفاءة الإدارية حتى لو فوض إليه منصب حكومي لأعداد التاريخ ذكرى خلافة العمرين رضي الله عنهما وشهد العالم ومضة من الخلافة الراشدة في العهد الحسيني.

الباب التاسع

أهم مؤلفاته: دراسة وتحليل

١. تفسير القرآن الكريم:

منح الشيخ عبد الباري الندوي رحمه الله قسطاً أوفر من الوعي القرآني وكان أولى بتفسير القرآن الكريم لما وهبه الله من التذلل من اللغة العربية والعلوم الشرعية، وسعة الاطلاع على العلوم الحديثة، والنبوغ في العلوم الطبيعية والفلسفة الجديدة. إنه لم يفسر القرآن الكريم بطريق منظم، ولكنه كان يقيد معاني ومفاهيم الآيات أثناء تلاوتها بالكتابة بغاية من الإيجاز والحیطة، واهتم في ذلك بأنه أرفق ورقة بيضاء بكل صفحة من صفحات مصحفه الخاص الذي كان يتلوه كل يوم ويقيد فيها مادار بخلده من معاني ومفاهيم القرآن الكريم، ولم يرق بطبع أو نشر مصحفه هذا، وإنما سلمه إلى صديقه الشيخ عبد الماجد الدرايبادي. يقول الشيخ الدرايبادي في رسالة له وجهها إلى الدكتور غلام محمد (كراتشي):

"أهدى إلي الشيخ عبد الباري مصحفه الذي كان يتلوه أثناء إقامته في حيدرآباد (طبعة مصر). إنه أرفق بكل صفحة من المصحف ورقة بيضاء

ودون ملاحظات ودقائق في تلك الورقات البيضاء، وما أجودها! ولو تم طبع الملحوظات لكانت تفسيراً مستقلاً. وهي أنفع ماتكون، ولو اختلفت عن منهجي، وربما أقول له: إنك درست القرآن الكريم دراسة المؤمن الصادق، الكامل في إيمانه، الراسخ في دينه. وأما أنا فلم أدرسه إلا كما يدرس أي كتاب".

والسلام

طالب الدعاء

عبد الماجد^{٢٢١}

^{٢٢١} الرسالة مؤرخة بـ ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٦٨م، والمرسل إليه - أعني الدكتور غلام محمد - مسترشد وخليفة الشيخ السيد سليمان الندوي، وتلميذ الشيخ عبد الباري الندوي أثناء إقامته في حيدرآباد. لم تمض على وفاته إلا مدة قليلة.

٢. مبادئ علم إنساني (مبادئ العلم الإنساني) (بالأردنية):

هذا الكتاب في الأصل ترجمة كتاب ير كلى المسمى بـ "Principles of Human Knowledge" ونالت الترجمة قبولا ونجاحا باهرا حتى فاقت الأصل، واحتلت مكانه وبنا كأن العقفاء طارت به. وذلك من مآثره البارزة التي أشادت بها الأوساط الدينية والعلمية على السواء ونالت منها حظوة من الاستحسان والتقدير. وعمل الكتاب في إقناع أولئك الذين تورطوا في وحل الشكوك، وكانت تثور في أذهانهم شبهات حول حقيقة العقائد الإسلامية. فجلد الكتاب تقتهم بالإسلام وعقائده. وقال الشيخ النواب حبيب الرحمن نحان الشيرواني في خطبة رئاسته بمناسبة الحفلة السابع عشرة لنبوة العلماء التي تم عقدها في مدينة "ناكبور" في الفترة التي تراوح بين ٢٩-٣٠ من مارس سنة ١٩١٨م للمصادف ١٥-١٦ من جمادى الأخرى سنة ١٣٣٦هـ مشينا بمآثرته هذه:

"يعمل الشيخ عبد الباري الندوي أستاذنا مساعدا في كلية بونا. أنهى دراسته العربية في نبوة العلماء، ثم تفضل من اللغة الإنجليزية، ودرس كتب الفلسفة الموثوق بها، وأتقن فن الفلسفة إتقانا لا يستطيع أن يتنافس فيه حملة شهادة البكالوريوس إلا من شاء الله. ولما قطع هذه المراحل كلها أخذ يترجم كتاب "مبادئ العلم الإنساني" Principles of human knowledge مؤلفه "ير كلى" إلى الأردية ترجمة معنوية، وأريد بالترجمة أنه تفهم محتويات الكتاب أولا وأدرك فحواها ثم نقلها إلى الأردية، ولم يكتف باستبدال الألفاظ الأردية بأحواها بالإنجليزية، أو إحلالها محلها ليتأدى حق الترجمة فحسب، بل وإنما قام بدراسة وتحليل فلسفة "ير كلى" كلها. وإن الترجمة من الجودة والروعة والسلاسة. يمكن أعجب به النواب عماد الملك السيد حسين وبارك جهده. أما دار العلوم التابعة لنبوة العلماء فإنها ترى في هذا الصدد أن الشيخ للترجم يريد أن يبرز من خلال عمله هنا أن فلسفة ير كلى خير سلاح للانتصار على المادية. إنه

هكذا قام بخدمة الدين^{٢٢٢}.

٣. بركلي كي سوانح اور اس كا فلسفه (سيرة بركلي وفلسفته)
(بالأردية):

يقول العالم الشهير والمصنف الجليل الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي:
"درس الشيخ عبد الباري الندوي مؤلفات جميع أولئك الفلاسفة الذين تراوح فترتهم
بين عصري الفيلسفين دي كارت وديود هيوم، ودرس مختصراتها باللغة الإنجليزية دراسة
تقديمية"^{٢٢٣}.

وقامت دار المصنفين بنشر هذا الكتاب حينما لم تصدر منها إلا العديد من الكتب،
وورد ذكر أهمية الكتاب في حفلة المجلس الإداري لنوة العلماء.

٤. مذهب وعقليات (الدين والعلوم العقلية) (بالأردية)^{٢٢٤}:

يقع الكتاب في ٤٨ صفحة. إنه أول من نوعه في موضوعه. ويجمع بين الروعة
والفناذة، وبفضله نال قبولاً عاماً في أنحاء العالم كلها.

وعبر الشيخ التهانوي عنه بالعارف وعن كتابه هذا بـ"قلعة من الحديد". ودفع
الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني إلى أن يقول: "أسلمت بيده الفلسفة" و عد كتابه هذا
الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي من بين كتبه التي لا ينسى فضلها. وهو محاضرة له
ألقاها في حفلة "المؤتمر التعليمي المحمدي لعموم الهند" "All India Mohammaden
Educational Conference" التي تم عقدها في مدينة "سورت" في شهر ديسمبر

^{٢٢٢} تاريخ ندوة العلماء ٢-٢٠٣ للشيخ شمس تبريز خان.

^{٢٢٣} سوانحي نقوش (روائع من السيرة) للشيخ عبد الله عباس الندوي (ملحق كتاب "تجديد دين").

^{٢٢٤} وعربه سعادة الشيخ واضح رشيد الحسيني باسم "الدين والعلوم العقلية"

سنة ١٩١٨م. وأثبت به موضحا تباين الدين والعقل أن التوفيق بينهما لا يمكن، والجهود التي تبذل في هذا السبيل تنهب سدى. ومن مزايا هذا الكتاب أنه في الأصل محاضرة شفوية ألقاها الشيخ في الحفلة المذكورة أعلاه ولما أُلح عليه الناس قيلها بالكتابة وذكر فيها المراجع وقال في مقدمة الكتاب شاكيا: "إن طبيعة المادة تتطلب محافل تعقد على النطاق المحدود مكان المؤتمرات والندوات التي يتم عقدها على نطاق واسع، ولكنني مصداقا للمثل: "المأمور معذور" دفعت إلى إلقاء محاضرة حول موضوع "الدين والعلم العقلية" في جمع حاشد من الناس في حفلة المؤتمر التعليمي لعموم الهند^{٢٢٥}.

وختم الكتاب بهذه النتيجة أنه لا يتسع للعقل ألا يتدخل من شعبي الدين العقائد والأعمال إلا في القسم الثاني، ولذا فإن ساغ وجود علم الكلام ساغ في أسرار الأعمال وحلها، ولكن العقل لا يعتبر "قول جهيزة" أو قول "حزام" فإنه ليس من الضروري أن يكون كل ما يغير القياس يغير العقل، فلنستحضر في نفوسنا حقيقة العقل والعقل العملي بوجه خاص، مصداقا لقول الشاعر "حالي":

"قلت للعادة ذات يوم: انظر إلى سيطرتك حيث احتلت من المكان الذي كان يحتله العقل الحازم المصيب فقالت العادة ضاحكة: أتظن أن العقل شيء غيري. إني أنا الذي أتحول عقلا ورأيا شيئا فشيئا - تربت يدك -".

٥. معجزات انبياء اور عقليات جديده (معجزات الأنبياء والعقل

الجديد) (بالأردية):

الكتاب يقع في ٨٨ صفحة، كتبه الشيخ عبد الباري الندوي لكتاب "سيرة النبي" لمؤلفه العلامة شبلي نعماني على طلب من الشيخ السيد سليمان الندوي الذي كان يقوم بإتمامه

^{٢٢٥} مقدمة كتابه "الدين والعقل".

ظهر كتابه " الدين والعلوم العقلية " في حيز الوجود أثناء عمله أستاذا في كلية أحمدآباد، غجرات. وأما كتابه "معجزات أنبياء" فقد ألفه بعدما انتقل إلى حيدرآباد وصار أستاذا للفلسفة الحديثة بالجامعة العثمانية. وقد أطرى الشيخ السيد سليمان الندوي عمله وثمنه قائلا: "ليس أحد العلماء أكثر نبوغا واطلاعا على الفلسفة من البروفيسور عبد الباري الندوي - أستاذ الفلسفة الجديدة بالجامعة العثمانية، حيدرآباد، دكن - وكان باب المعجزات بحاجة إلى التعرض لمحتويات الفلسفة الحديثة ومباحثها ودقائقها، فكتب الشيخ باب "المعجزات والفلسفة الجديدة" على طلب والتماس مني" ٢٢٦ .

قسم الشيخ عبد الباري الباب إلى خمسة مباحث وهي كما تلي:

١. إمكان وقوع المعجزات
٢. شهادة المعجزات
٣. استبعاد المعجزات
٤. الإيمان بالمعجزات
٥. غاية المعجزات

وأجزها المؤلف بعد البحث فيها في سطور لا تتجاوز رؤوس الأصابع وهي كما

تلي:

"وعصارة المباحث السابقة فيما يلي:

١. المعجزة عبارة عن صدور حادثة بيد إنسان جامع بين مكارم الأخلاق وشمائل الأنبياء، ولا يمكن توجيهها أو تعليلها بالعلل العادية.

٢٢٦ مقدمة سيرة النبي، الجزء الثالث، للسيد سليمان الندوي سنة ١٣٤٣هـ. وقال الشيخ الشاه معين الدين أحمد الندوي مدير دار المصنفين، أعظم كره وصاحب "تاريخ اسلام": كتب باب المعجزات من سيرة النبي سنة ١٩٢٠م وتم طبعه سنة ١٩٢٤م.

٢. والعقل لا ينكر ظهور مثل هذه الحوادث إلا أن يثير الاستعجاب فيحتاج للإيمان أو التسليم بما إلى دليل أقوى.
٣. استبعاد ربما تشاهد نظائره في الحياة العادية ولا يطالب للتسليم أو الاعتراف به بدليل أقوى.
٤. ولكن الإيمان بالمعجزات لا ينشأ من الدلائل أو غيرها من الأمور الخارجية وإنما يتوقف أغلب الأحيان على الحرص عليه وموانعه ومؤيداته. يتعلق ذلك كله أو جله بمعتقدات صاحب الإيمان.
٥. إذا كان الرجل مؤمنا بالغيب ولم تكن في نفسه موانع التعصب والعناد كما كانت في فرعون وأي جهل، بالإضافة إلى ما يشاهد في حياة نبي من حسن الأخلاق وطيب الأحوال ما يؤيد نبوته فما ظنك بالمعجزة (ههنا بمعنى الخارق للعادة). إن صوت النبي وحده معجزة. يقول الشاعر الفارسي:
- "كل رجل عاقل حازم يلتذ بالآلام القلب وليعلم أن شعر النبي وصوته كلاهما معجزة".

٦. حقيقته نفسيات (محتويات علم النفس)

ومن مآثره البارزة ترجمة كتاب "Manual of Psychology" لمؤلفه جي. ايف. استورت، أحد الفلاسفة وعلماء النفس. يقع الكتاب نلترجم في ٦٦٦ صفحة، طبع ونشر من الجامعة العثمانية، حيدرآباد. ولما ظهر على منصة الوجود ازداد صاحبه رفعة وشهرة، وأقبلت سنة ١٩٢٨م فجاجت معها بمسرات وأفراح له وهي أن ظهر فيها عمله هنا على حيز الوجود، وفيها لازم الشيخ التهانوي، وفي الفترة نفسها سعد بالحج. انظر إلى عمله الرائع الذي استأسر القلوب وبه سميت مكاتبه ورسخ في النفوس نبوغه. وانظرو، في جانب آخر إلى تواضعه لحد أنه لا يرى أن يتمتع بأي نفع عاجل، وكان ذلك ريعان شبابه، ولم يكن حينئذ أحد معاصريه من

القبول والشهرة. يمكن احتله هنا الشاب ولكن هذه الشهرة الفائقة الموقته لم تؤثر فيه، ولم تل من إيمانه وأخلاقه النبيلة وتواضعه، ولم تورطه في وحل الكبر والأنانية. وبما أن هنا من أهم مراحل حياته تقدم إليكم مقلمة كتابه هنا:

"لعلكم رأيتم منجما أو عرافا يتبأ بأحوال الناس سائلا أسماهم فحسب. إنني لو منحت من العرافة شيئا، وحظيت بحظ ولو قليل من العلم بعلاقة الاسم بالسمى لم أتجرأ قط على منافسة مثل هذا المصنف الجامع (استورت)، ورحم الله هذا الرجل الجريء الذي حنرني من بادئ البدء اسم الترجمة. إن أنس فلن أنسى فضله هنا.

إن الأستاذ استورت نابغة فنه. ونبوغه معترف به في الأوساط العلمية دون ارتياب. عمل أستاذا وممتحنا في العديد من المعاهد العلمية والجامعات كما أن كتبه داخلة في المقررات الدراسية في معظم الجامعات، وأما المترجم فلا يكفيه الاطلاع على فن واحد فحسب، وإنما يلزمه التضلع من اللغتين - المترجم منها والمترجم إليها - وطرق الأداء والتعبير، ومنهجية الترتيب والتركيب.

لا يمكنني أن أسمى نفسي بالمتخصص في اللغة الإنجليزية على الإطلاق فإنني كلما حالت عقبة دون إدراك معنى لقصوري في اللغة راجعت أصحابي المتضلعين منها الموثوق بهم، وربما ساعدني في ذلك جمعهم كله. وبالرغم من ذلك عسر أغلب الأحيان توصلهم إلى القرار النهائي الشافي. وكثيرا ما سمعهم يقولون:

"أي إنجليزية هذه! ما أصعبها وما أعجبها!" وزد على ذلك عدم اطلاعي على فنون أخرى. وأما مؤلف الكتاب استورت فإن دائرة علمه تسع فن الموسيقى والرسم، وغيرهما من الفنون والعلوم، ويذكر كلها ضمنا واستطرادا. وكم باب طرقة وكم أستاذ تلمذت عليه لجرد حل هذه العضلة. وأقول بصراحة: دفعت غير مرة إلى نقل مثل هذه الأمور المتعلقة بالفنون الأخرى من غير تفهم لها ودون إمعان فيها.

الأصل أن الكتب الدراسية بوجه عام وكتاب المؤلف استوزت المذكور "Manual of Psychology" أولى بأن يتم تلخيصها بدلا من ترجمتها. وأما الكتب التي يحق أن يندل لها رجل ساعاته ولا يندخر في ترجمته أي وسع فهي الكتب الحية القديمة، لا الكتب التي تؤلف كل يوم في عدد لا يحصى فتجى ثم لا تلبث أن تجود بروحها وتلفظ أنفاسها الأخيرة.

على كل، فإنني لم أقتنع بالتراجم التي قمت بها فأما تقليدها بين يدي الناس فهو أولى ألا أطمئن به وأسأل القراء الكرام أن يطلعوا المترجم على الأخطاء لو وجدها بنية الإصلاح لا للصدع بجهله، حتى يمكن إصلاحها في الطبعة الثانية إن شاء الله طبعها.

ولا يسعني من باب الشكر إلا أن أنوه بأولئك الأصدقاء الذين ساعدوني في عملي هنا قليلا كان أو كثيرا^{٢٢٧}.

والسلام

عبد الباري الندوي

٢٧ من صفر سنة ١٣٤٧هـ

٧. مذهب وسائيس (الدين والعلوم) (بالأردية)

إليكم تعليق الشيخ الدكتور غلام محمد كراتشي على الكتاب المذكور:

"هذا الكتاب وإن كان في موضوع الدين والعلوم، ولكن العلوم والطبيعات منها بوجه خاص التي نحن بصدها حينما تبلغ أوجها تتحول إلى الفلسفة، ولنا ورد ذكر هنا الكتاب ضمن مؤلفاته الفلسفية. هذا الكتاب من مؤلفاته الأخريرة ويمتاز بروعته وفنائه. ولا أعالي إذا قلت إنه من أمهات الكتب في موضوعه. وعلى الكتاب مقدمة كتبها العالم الطبيعي الدكتور محمد رضي الدين الصديقي، وهي تغني الكتاب عن إشادة أو ثناء غيره. يقول الدكتور الصديقي:

"إني وإن كنت مطالعا على دقة نظره في دراسة الحقائق التي تكشف عنها فلسفة الإسلام والعلوم ولكنني حينما درست مسودة كتابه هنا قدرت سعة مطالعته، وأدرت كيف جمع المواد القيمة حول موضوعه بتفحص مقالات ومؤلفات العلماء والفلاسفة الكبار القدماء منهم والجلدد، وكيف استبسط نتائج حقة بعد تحليلها وشرحها محتجا بالدلائل والشواهد^{٢٢٨}. وأخيرا يقول الدكتور الصديقي:

"ولما انتهت سيطرة المادية والردة التي كان صرحها قائما على أسس العلوم الطبيعية تمهد السبيل إلى الإيمان بالله تعالى لأولئك السعداء الذين يفكرون في خلق السماوات والأرض، ويتديرون في نظام الكون وحقيقته عملا بالمثل الفارسي الذي يقول: "إذا لم تستطع أن تكون كافرا فكن مسلما". ويدفع التأمل في الآفاق والأنفس إلى الإقرار بألوهيته. وقد سلط الشيخ عبد الباري الندوي الضوء على هذا الواقع بغاية من التفصيل وحاول من خلال كتابه هذا أن يتشغل من هنا المآزق أولئك الذين تزلزل إيمانهم وتطرق إليه الخلل والضعف منزهين مهوورين بالتقدم

الباهر في مجال العلوم والتكنولوجيا. إن عمله هنا في الواقع من مآثره البارزة الجديرة بالإطراء والشمين التي أنجزها بجهد بليغ رغم تقدم سنه^{٢٢٩}.

ومما يجدر بالذكر عن كتابه هنا أنه تأليف ذلك العالم الطبيعي الفيلسفي المسلم الصادق الراسخ في إيمانه الذي كان خبيراً بواقع الكون المادي وحقائق وراء عقلية، ومطلعاً على أسرار الزمان وللبكان.

ومن حسن حظي أن أشركني الشيخ^{٢٣٠} عبد الباري الندوي في عنوانه وتدوين كتابه هنا. وبفضل الله وقمت لأن أدخل في زمرة السعلاء بينل شئ من الجهد. وإليكم قبسة من رسالته التي كتبها إلي في ٢٢ من يونيو سنة ١٩٧٢م:

"يا بشري ها هو تم تأليف الكتاب الذي بذلت في إعداده وتدوينه جهتك، وقد وصلت إلي نسختان منه بعد الطبع، وقد سميت "منهـب وسائنس" (الدين والعلوم)، والذي أندم عليه غاية الندم أن كلمات الشكر التي كتبتها لك في سطور غابت من الكتاب.

٨. كلاميات سائنس (كلاميات العلوم) (بالأردية)

تم تصنيف كتابه هنا ولكن لم تمكن مراجعته فلم يطبع. كتب إلي الشيخ عبد الباري الندوي في رسالته المؤرخة في ٦ من أغسطس سنة ١٩٦٩م:

"لأنزال أذكرك هذه الأيام لغرض ديني. قد مضت على إتمام كتابي "كلاميات

^{٢٢٩} المصدر السابق.

^{٢٣٠} كتب إلي الشيخ عبد الباري الندوي أن أقوم بعنوانه وتدوين كتابه "منهـب وسائنس" (الدين والعلوم) كما أوصى أستاذي الدكتور رضي الدين الصديقي بأن يرسل إلي مسودة الكتاب بعد تقديمه، فاهتم الدكتور الصديقي بذلك اهتماماً بالغا وقدم إلي من "اسلام آباد" إلى "كراتشي" وسلم إلي الكتاب يدا بيد، وأمرني بأن أسلمه إلى رجل ثقة يسافر إلى لكناؤ ليوصله إلى الشيخ عبد الباري (بلكناؤ) دون إرساله بالبريد (غلام محمد).

ساتس" (كلاميات العلوم) سنة كاملة، وظل مطروحا في "ولاية" ٢٣١ منذ ستة أو سبعة أشهر، وجاء الشيخ أبو الحسن علي النوي منذ ثلاثة أو أربعة أيام مع مسمع له، وسمع الكتاب كله منذ أوله إلى آخره. إنه يرى ألا أترك إتمام كتابي هذا إلى أن يبلغ كتابي "كلاميات ساتس" نهايته، ولكن أشد مراحل أعني عنوان الكتاب لم تقطع حتى الآن. وقد أعجبت بعنوانك بكتابي "نظام صلاح وإصلاح" إعجابا بالغا.

٩. اسباق زندكي (دروس من الحياة) (بالأردية):

كتب الشيخ عبد الباري النوي مقالا أسماه "اسباق زندكي" (دروس من الحياة) وأعرب فيه عن رأيه في الفلسفة:

"لو لم تدرس الفلسفة لنيل شهادة الفلسفة أو الدكتوراة أو تقلد منصب الأستاذية بدلا من موضوعها وغايتها والبحث عن الحق لما وجدنا علما سوى الفلسفة - ولا سيما الفلسفة الجديلة - أهلى إلى الله عن طريق العقل. ولكن الفلسفي - الذي يتخصص في الفلسفة بدراسة الكتب - يعرض للإيمان خطرا كما أن "الطبيب الناقص يسبب للنفس خطرا".
رأيه هنا يكفي وحده شاهدا بسمو مكانته ونوعه في الفلسفة ٢٣٢.

١٠. تجديد دين كامل (بالأردية):

يقع الكتاب في ٤٦٤ صفحة، وهو أول كتاب من سلسلة كتب التجديد للشيخ عبد الباري النوي التي أسماها "جامع المجددين" ثم استبناها بـ "تجديد دين كامل" لما كان الاسم السابق سببا إلى نوع من التعقد وسوء الفهم بين الناس.
يستعرض الكتاب المذكور أعمال الشيخ أشرف علي التهانوي الإصلاحية

٢٣١ هذه اللفظة لم أستطع أن أفهمها. يمكن أن يكون قد أرسل مسودة كتابه "كلاميات ساتس" إلى أحد بلندن فوررد ذكره ضمنا وهي لفظة غير ماكتبته (غلام محمد).

٢٣٢ الدكتور غلام محمد (كراتشي) في مجلة "تعمير حياتك" ١٠ من يونيو سنة ١٩٨٩م.

والتجديدية، وثبت أنه قام بالإصلاح والتجديد الشاملين لشتى جوانب الحياة وذلك في ضوء التعاليم الإسلامية، وكذلك قام بالمجدون بالإصلاح والتجديد في مجالات مختلفة في عصرهم. وأما الشيخ التهانوي فإنه قام وحده بأعمال بارزة في جميع المجالات، وأحدث تطوراً في المجتمع كله. إنه كان مجدد التعليم والدعوة كما كان مجدد للمعاشرة والاجتماع. وإذا كان مجدد الإصلاح والصلاح فإنه مجدد التصوف والسلوك، والاقتصاد ونظام المعيشة. كتابه يشعر بأنه غاص بحر تعاليم التهانوي وتفحص ملفوظاته وإرشاداته وانتقى منها درراً تعجب الناس وتجذب إليها القلوب، وبذل أقصى ما في وسعه لإحقاق كلامه وإثبات وجهة نظره. ولما ظهر هذا الكتاب على منصة الوجود مبلوء بمقدمة الشيخ السيد سليمان النوري بحت الناس ولم يسعهم إلا أن يشيلوا بأسلوبه الذي ينم عن مدى تحقيقه وعمله. والكتاب يرجع إليه الفضل في تبديد الشكوك والشبهات التي كانت تثور في أذهانهم إلا أنه لم يتعرض أهو وحده بمجد عصره في جميع المجالات أم أحد مجلدي عصره، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأعماله التجديدية في مجال المعاشرة والاجتماع والتصوف والسلوك، ويعترف بها الناس كلهم. ويرى مؤلف الكتاب أنه وحده بمجد عصره في جميع المجالات. ومن أبرز المؤيدين الذين وافقوا رأي صاحب الكتاب الشيخ السيد سليمان النوري. إنه يقول مسلطاً الضوء على أهمية وقيمة الكتاب بغاية من الجامعة والاتزان:

"إن صاحب الكتاب ذكر فيه مجهودات الشيخ التهانوي التجديدية والإصلاحية التي تنفع كل طبقة من طبقات الأمة المسلمة، وذلك بغاية من الجامعة، وكل من يشاهد مجهوداته يجلبها منصاعة في بوقه التجديد وينهب إلى أنه وحده بمجد عصره.

وذلك من فضل الله أن قام أحد الفضلاء النابغين بجمع الدلائل والشواهد التي تؤيد القول بمجلديته، وهذه مأثرة له لم يوفق لها أحد في أي عصر إلا من شاء الله" وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء". ولا يخاطر بالكم أن كاتب هذه السطور أو المؤلف يهدف من خلال سطور

أو عمله هنا إلى تشهير القول بمجديته أو يدعي له وحده منصب التجديد، وإنما هو تعبير المؤلف للتواضع أنه يعبر عن مجهوداته الإصلاحية بأعمال التجديد^{٢٣٣}.

ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٩٥٠م، فأعرب العلماء وغيرهم من الناس عن انطباعاتهم عن الكتاب، ثم توالى طبعاته. ومن أهم هذه الانطباعات ما أعرب عنه الشيخ ماهر القادري مدير تحرير مجلة "فاران" وهو كما يلي:

"وتجد في كل صفحة من صفحات "جامع المجلدين" دررا من المواعظ وفراد من أقوال الحكمة والرشد، متشرة كما تتشر الأصداف على شاطئ الرمل، ومفتحة كما تفتح أكمام الزهور على أفتان سيقان النبات، كما ترى فيه تبيهات على ما يصلر من هفوات وزلات دينية وما يصيبه من أدواء خلقية، وتلوها سبل إزالتها بأحسن طريق وأسهله وأنفعه. وكتاب "جامع المجلدين" أخرى بأن يقرأ سطرا سطرا. إنه يرشد فيه إلى نكت ودقائق من الدين يهتر بها القلب فرحا، وتلذذ بها النفس، ويميل بها القلب إلى التواضع والخشية لله، والاتصال به اتصالا قويا مباشرا. الكتاب في الواقع يجمع بين سعادتين، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

صاحب الكتاب أحق بأن يشكره العالم الإسلامي على تأليف هذا الكتاب النافع وويل لمن لم يقرأه. وهو أحق بأن تعقد له حفلات حتى يستمع إليه جميع الناس^{٢٣٤}.

١١. تجديد تصوف وسلوك (بين التصوف والحياة) (بالأردنية)^{٢٣٥}:

إنه أهم كتب التجديد. يقول صاحب الكتاب: "يبحث الكتاب في إزالة سوء الفهم وتبديد جميع الشبهات والأخطاء العلمية التي تنشأ في الأذهان حول التصوف، ثم يكشف

^{٢٣٣} مقدمة كتاب "تجديد دين كامل"، ص: ٢٨.

^{٢٣٤} مجلة "فاران"، العدد الصادر في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٠م.

^{٢٣٥} وعرب سماحة الشيخ محمد الرابع الحسيني هذا الكتاب باسم "المنهج الإسلامي لتربية النفس"

الكتاب عن التصوف الحقيقي قائلا: كمال الإسلام والإيمان هو التصوف الحقيقي لا غيره، ولا يمكن الفوز بالبركات العاجلة والآجلة والثمرات الفردية والاجتماعية ما لم يسلك الإنسان مسلك الصوفية".^{٢٣٦}

وعني المؤلف بكلمة "الصوفي" المؤمن الكامل، يعني أن يعيش مع الإحسان مراعيًا جميع المأمورات الإسلامية، ويستحضر عند كل عمل يمارسه أن الله يراه لا محالة، وأنه يبرأى ومسمع منه، ولا بد أن الله يحاسبه يوما. يقول الشيخ عبد الله عيس الندي:

"وأعرب فيه الشيخ عن حقيقة التصوف قائلا: الفقه الباطن يحق له أن يكون أهم من الفقه الظاهر. ماهي حقيقة الأذكار والأوراد؟ وما هو المراد من الجاهادات والرياضات؟ لماذا تلزم البيعة؟ وإلى أي حد وفي أي مرحلة تلزم؟ ولا يقبل ادعاء الحب ما لم يعمل الإنسان صالحا؟ ما هو فحوى الأمانة في الأصل؟ هذه مباحث الكتاب. وبالجملة إن الكتاب يتضمن الكليات التي رتبته مستفادة من ملفوظات ورسائل التهانوي. وتقع طبعة الكتاب الأولى في ٥٥٠ صفحة".^{٢٣٧}

الطبعة الحديثة للكتاب تقع في ٣٦٩ صفحة، التي ظهرت على منصة الوجود بفضل جهود أبنائه. يبحث الكتاب في التصوف في ضوء تعاليم الشيخ التهانوي، ويذكر الشيخ التهانوي الأحوال التي يقطع السالك مراحلها بعدما يحتل درجة الإحسان بأسلوبه الفذ البليغ، وكساه خليفته الشيخ عبد الباري ثوبا قشيبا، وألحق به مقال الشيخ السيد سليمان الندي، المعنون بـ "للكشف الأعظم حقيقة التصوف والجهد للوصول إلى درجة الإحسان والتقوى" لكتابه هذا. إن الشيخ التهانوي مجدد التصوف والسلوك لما قام من أعمال التجديد في الإحسان والسلوك كما يعترف بذلك معاصروه الراسخون في هذا المجال مثل الشيخ محمد إلياس

^{٢٣٦} مقتبس من صفحة العنوان.

^{٢٣٧} المصدر السابق (الطبعة الحديثة).

الكاندهلوي والشيخ عبد القادر الرائي بوري. يلخص الكتاب المذكور تعاليم هذا المجدد. ومن

موضوعاته الرئيسية وعناوينه البارزة مايلي:

١. حقيقة التصوف
٢. الأذكار والمجاهدات والرياضات
٣. البيعة والإرادة
٤. العشق
٥. الباطنية (يعني إخفاء الحال)
٦. وحدة الوجود
٧. قرب المطلوب
٨. السلوك والتربية
٩. تربية السالك
١٠. الحياة الطيبة

١١. السر وراء سوء سمعة بعض الصوفية الكبار

يقول صاحب الكتاب الشيخ عبد الباري عن إصدار كتابه هذا:

"التصوف عبارة عن روح الدين ومعناه، وكيفه وكماله، ولكنه - من سوء الحظ - تطرق إلى جميع شعب الدين الخلل والفساد، وذبنت فيها الأخطاء وسوء التفاهم، والضلالات التي أدت إلى إفراغ الدين من المعنوية والروحية.

وإن الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله ركز جل عنايته على تجديد هذا الكيف والكمال ويختص جزء واحد من سلسلة كتب التجديد بالتصوف وهو أكبر حجما بالنسبة إلى الكتب الأربعة من سلسلة التجديد بثلاث أو أكثر، والحق أنه لم يتأد الحق حق أدائه.

بل الحق أنني كنت أولى بالأولف هذا الجزء من سلسلة التجديد ولكنني إن لم أعرف نعمته ومنتته العظيمة فكأنني أكفر بما، بأن القلم كان بيدي، وخلال تأليفه لم أزل أشعر

بأن الله يلهمني ويؤيدني بالغيب وما ذلك على الله بعزيز. فإن نصر الله لا يطلب الجدارة ولا يشترط بالكفاة.

وبحمد الله قد ترتبت في هذه الصفحات مجموعة تحقيقية جامعة من مبادئ التعليم والتربية والتصوف والسلوك الإسلامي بالتصفح في الأوراق والتأهي في المسوعات والاستبطاء، حتى يمكن أن يقال إنه لم ترتب حتى الآن مثل هذه المجموعة الجامعة التحقيقية التقليدية في أي لغة، إسلامية كانت أو غير إسلامية. ووفق الله أحد المسلمين إلى ترجمته أو تلخيصه في اللغتين العربية والإنجليزية حتى يدركوا حقيقة التصوف الإسلامي فلا ينخدعوا، فيحسوه بدعة أورهبانية أو إشراقية. ولا يبعد أن يفیق المستشرقون والباحثون الغربيون من سبقهم العميق لو شاء الله^{٢٣٨}.

هذا الكتاب من أهم مآثر الشيخ عبد الباري النلوي، وشعورا بأمس حاجة العرب إليه قام سماحة الشيخ السيد محمد الرابع الحسيني النلوي، الرئيس العام لنقوة العلماء ورئيس هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، بتعريبه، ونشره باسم "النهج الإسلامي لتربية النفس"، وطبعته بعض المكتبات بعنوان "بين التصوف والحياة". يقول العلامة أبو الحسن النلوي: "تم تعريب كتابه "تجديد تصوف وسلوك" بشيء من الإيجاز، بقلم ابن أخي للولوي السيد محمد الرابع الحسيني النلوي، وكتبت عليه مقدمة نقلت في كتب ومجلات متعددة، وجعلتها مقدمة كتابي "ربانية لارهبانية". نشر كتابه المعرب من دمشق، وترجم بعد من العربية إلى اللغة التركية. ورأى الشيخ عبد الباري النلوي كلتا الترجمتين في حياته، وسر كثيرا بلوي صوته في البلدان العربية وتركيا"^{٢٣٩}.

^{٢٣٨} من مقدمة كتابه هذا.

^{٢٣٩} بران جراج ١٢٤/٢.

١٢. تجديد تعليم وتبليغ (تجديد التعليم والدعوة) (بالأردنية):

هذا الكتاب يقدم تعاليم الشيخ التهانوي الاجتماعية وأعماله التي قام بها في مجال التجديد والإصلاح وهو أهم كتاب من سلسلة كتب التجديد. يقول الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي: "يوضح الكتاب أولا النظرة التي ينظر بها الإسلام إلى الإنسان، النظرة التي اقتبست من الكتاب والسنة، ثم يشير إلى أقوال الفلاسفة الأوروبيين ووجهات نظرهم نحوه التي اقتصت فيها الشيخ عبد الباري. ويبحث في التعليم، والغرض الذي يقصد منه، وطريقه، وثمراته، ونتائجه الحافظة، وأسبابه، ويزيح الستار عن جوانب التعليم والتربية من الوجهة الدينية، ولم يفته الكشف عن نظام المدارس، وتوزيع الشهادات، وغفلة العلماء، ونتائجها الفتاكة وتأثيرها الملهم، وكثيرا ما يستدل في ذلك بمقولات الشيخ التهانوي ويستشهد بأقواله وتعاليمه، وورد ذكر التبرعات والمكافآت التعليمية والتعليم والتعلم في بيئة المدارس الإسلامية"^{٢٤٠}.

ويذكر الكتاب إسهامات الشيخ التهانوي وميزاته التجديدية في مجال التعليم والتبليغ كما يسلط الضوء على إصلاح وتجديد نظام التعليم في المدارس الإسلامية والعربية بالإضافة إلى لفت انتباهها إلى إدخال مادة التصوف والأخلاق في مقرراتها الدراسية.

١٣. تجديد معاشيات (تجديد علم الاقتصاد) (بالأردنية):

الكتاب المسمى أعلاه حلقة أخيرة من سلسلة كتب التجديد. ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٥م. تدل أسماء أبوابه على محتوياتها ومسمياتها فلنشرح عليها نظرة:
الباب الأول: اقتصاد العبودية. يقول فيه وهو يشرح الآية التي هي الأساس الإسلامي الذي يقوم عليه صرح الاقتصاد "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق، وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين": اقتضاء العبودية أن يعتبر الاقتصاد عبادة وواجبا أوجهه الله على عباده، فإنه لا يمكن طلب وسائل المعيشة مفصولة عن غاية الحياة وهادفها

^{٢٤٠} سوانحي نقوش مولانا عبد الباري ندوي (روائع من السيرة / ذكر الشيخ عبد الباري الندوي).

ووظيفتها، ومن أدق للباحث وأعلامها الاعتراف بأن وسائل المعيشة حاصلة في كل حال، ولكن العبودية تقتضي ألا تمتلك وسائلها التي تنافي أو تعادل غاية الحياة.

الباب الثاني: اقتصاد الألوهية. ويبحث الباب في معنى وفحوى التوحيد، وتوحيد الرب، وحقيقة العلة والمعلول، ومكانة الحيل، والاشتمزاز والتفرغ من الترف النظري، والبدخ الفكري، والاستشهاد بالآية "فظلتم تفكهون"، وغرض الشظف، والترف في الحياة.

الباب الثالث: خلاص باقتصاد الإنفاق. ومباحثه كما تلي: مفهوم الأحاديث التي ترغب إلى كسب الحلال، والتفسير الصحيح للدعاء المأثور "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة" في ضوء تعاليم الشيخ التهانوي وبلغظه، وأن المعاش لا يستطيع أن يستغني عن المعاد، واقتضاء الطبيعة البشرية، وعدم تناهي الإنسان، وحدود الكسب والحيل.

وهكذا رتب الشيخ عبد الباري الندوي نظاما كاملا للاقتصاد مستفيدا من مواعظ الشيخ التهانوي وملفوظاته وتعاليمه معنونا بعناوين هامشية. والظاهر أنه لم يعن فيه بمبادئ فن الاقتصاد الرائج، وإنما بناه على أسس جديدة معتمدا على ذهنه الثاقب، ودراسته العميقة، ولذلك لا نجد فيه الأبواب والفصول مرتبة على ذلك الأسلوب الذي نراه في مؤلفات فن الاقتصاد. وإنما صاغها في بوتقه أسلوب التهانوي التجديدي، وذلك من أهم مآثره. الإنسان ومكانته وغاية حياته هي عناوين الكتاب الرئيسية، وذلك لأن الله سخر كل شيء لصالح الإنسان، فالأولى والأنسب أن يبدأ الكلام بحقيقة الإنسان وحاجته^{٢٤١}.

١٤. قرآن كما دو آياتي نظام صلاح واصلاح (نظام الصلاح

والإصلاح في ضوء آيتين من القرآن) (بالأردية):

هذا الكتاب تفسير سورة "العصر" وشرح مضامينها ومحتوياتها، ونجد فيه جانبا من التدكير. ذكر صاحب الكتاب نظاما كاملا للصلاح والإصلاح معتمدا على أجزاء سورة

^{٢٤١} كتبه الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي، الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة (سابقا).

التذكير. ذكر صاحب الكتاب نظاما كاملا للإصلاح والإصلاح معتمدا على أجزاء سورة (العصر) من الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، لينتفع به المسلمون في مجال العمل. يكشف الكتاب عن بصيرته في القرآن الكريم، واهتمامه بإصلاح المسلمين. يقول الشيخ يوسف البنوري: "لقد الشيخ عبد الباري بهذا الكتاب القيم جميع العلماء وأصحاب الدين درسا يعتبرون به". ويقول الشيخ الدكتور عبد الله عباس الندوي:

"إن جميع مصنفات الشيخ عبد الباري لاتقل قيمة وأهمية فإنها ثمرة دراسته العميقة ومشاهدته الدقيقة، وإنما تتم عن مدى إخلاصه وورعه، وعاطفة إصلاحه لأبناء الأمة كلهم، ومن تلك للمصنفات كتابه "نظام صلاح وإصلاح" وهو تفسير سورة "العصر" ويغلب عليه طابع التذكير والتفهيم وما هو المراد بما أعني التبليغ. هذا الكتاب يحتوي على ٢٨٧ صفحة. وهو جامع بين العقل والنقل. والغاية التي يتوخى تحقيقها من خلال الكتاب هو التذكير وإصلاح الأعمال والأخلاق والعقائد. ظهرت طبعته الأولى من "مجلس عملي، كراتشي. عام ١٩٦٢م ٢٤٢".

١٤. تجديد كلاميات (تجديد علم الكلام) (بالأردنية):

هذا الكتاب حلقة سادسة من سلسلة كتب التجديد، ويدل على أهمية الحاجة إليه، والاهتمام به، وسعيه فيه رسالتان مهمتان كتبهما الشيخ عبد الباري إلى شيخ الحديث زكريا الكاندهلوي. ونذكرهما فيما يلي:

يقول في إحداهما:

أسأل حضرتمكم أن تدعوا الله لي أن يتوفاني على الإيمان ويفر لي ذنوبي. أنا دائب في

٢٤٢ سوانحي نقوش (روائع من السيرة / ذكر الشيخ عبد الباري الندوي) لمؤلفه الدكتور الشيخ عبد الله عباس الندوي.

إتمام كتابي "تجليد كلاميات" (الحلقة السادسة من سلسلة تجليد الدين) منذ حوالي خمس سنين، ولكن بسير بطيء، وأعظم أسبابه أنني لأعرف من العلوم الطبيعية شيئا، وكنت راجيا أن أستعين في ذلك بأساتنة الكليات والجامعات، ولكن لم أجد منهم من أتق به ويعلمه ولي صديق في باريس^{٢٤٣}، أكرمه الله من العلم والعمل بنصيب أوفر. إنه كلما قدم الهند ساعلني ما وسعه، والآن أرسل إليه يباريس مسودة باب العلوم من الكتاب. ودخلت الآن بحمد الله وتوفيقه في الباب الأخير من الكتاب^{٢٤٤}.

وإليكم الآن قبسة من رسالته الثانية:

حضرة الشيخ! تم الجزء الثاني من "تجليد كلاميات" وأرسلته إلى صديق لي في باريس، وإني الآن عاكف على تأليف "كلاميات قرآن" الذي هو أدق أجزاء الكتاب وأولى بأن يحتاط فيه خوفا من محاسبة الله ومؤاخذته في الأثرة. أنا عاكف عليه، ولو يبطء السير، مصحوبا بالدعاء: "اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه" ليست عادتي إملأه شيء على أحد إلا أن تكون رسالة فأملئها، ولنا يطول الكلام بعض الأحيان، وطالت رسالتي هذه أيضا. وكثيرا ما أسألكم أن تدعوا الله لحسن خاتمتي وصلاح عقبي وأن يتوفاني الله على الإيمان والصلاح، وأسألكم الآن أن تدعوا لي أن يوفقني لإتمام "كلاميات قرآن" بخير وسهولة^{٢٤٥}.

تعليقة على كتاب "تجليد كلاميات":

تقدم إليكم انطباع الشيخ الدكتور غلام محمد (كراتشي) صاحب كتاب "تذكره سليمان" (ذكر السيد سليمان) عن الكتاب المذكور أعلاه:

^{٢٤٣} الدكتور حميد الله الحيدرآبادي رحمه الله..

^{٢٤٤} الرسالة مؤرخة في ٣ من ذي الحجة سنة ١٣٨٧هـ المصادف ٣ مارس عام ١٩٦٨م.

^{٢٤٥} الرسالة مؤرخة في ٢ من ربيع الثاني سنة ١٣٨٨هـ المصادف ٢٩ يونيو عام ١٩٦٨م.

"هذا الكتاب أهم وآخر الحلقات من سلسلة كتب التجديد. وذلك من ناحيتين: الناحية الأولى أن علم الكلام موضوعه الخاص، ولأنه حاجة الساعة. تم تأليفه من غير أن يطبع. كتب إلي الشيخ عبد الباري في رسالته المؤرخة في ١٠ من ديسمبر عام ١٩٦٨م: "لتي سافرت إليك وأقمت عنك أو قريبا منك، وراجعت مآت صفحات من كتابي "تجديد كلاميات". إنني لست غير مقتنع بما كتبت معنى وفكرة، ولكنني أريد أن يراجعه صديق لي مثلك حرفا حرفا لتلا يقى فيه أي خطأ تعبيرى".

"إن ذلك في الواقع ثناء وتشجيع من أستاذي الشيخ عبد الباري الندوي ولست أحق بذلك. ومما يؤسف أن هذا الكتاب بقي غير مطبوع" ^{٢٤٦}.

أسلوب سلسلة كتب التجديد:

"أسلوبه في كتب سلسلة التجديد ليس كما في مؤلفاته الفلسفية أعني أنها لا تكشف عن ميزة الشيخ التهانوي النفسية والفلسفية عند مقارنة علم النفس الجديد والفلسفة، فلا نجد فيها لغته الاستشهادية وأسلوبه الذي يتخذ عند المقارنة. إنني أرى أنه لو مثل ذلك الأسلوب القديم المقارن في سلسلة كتب التجديد لكان أجذب لنفوس الطبقة المثقفة العصرية وقد ألقت عليه عظمة الشيخ التهانوي أترا يترشح من خلال أسلوبه." ^{٢٤٧}

ميزة سلسلة كتب التجديد:

يقول الشيخ الدكتور غلام محمد، صاحب "تذكره سليمان" معلقا على سلسلة كتب التجديد: "وما يمتاز به هذا الكتاب أن لم يسبقه أي كتاب آخر يمثل هذه الدراسة التحليلية الوافية لتعاليم الشيخ التهانوي

^{٢٤٦} مجلة "تعمير حيات" لكتاؤ، العدد الصادر في ١٠ من يوليو سنة ١٩٨٩م.

^{٢٤٧} المصدر السابق.

وكان يقول الشيخ السيد سليمان: "من شاء أن يفهم فكرة ومنهج الشيخ التهانوي فعليه بمطالعة مؤلفات الشيخ عبد الباري الندوي. وكان يقول لي الشيخ السيد فضل الله صاحب كتاب "فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد"، وأستاذ الحديث بالجامعة العثمانية: العظمة التي وصف بها الشيخ عبد الباري علوم الشيخ التهانوي في مؤلفاته، لا يستطيع أن يدركها إلا من أكرمه الله من العلم بنصيب أوفر^{٢٤٨}.

تعليقة:

ولما ظهرت كتب التجديد على منصة الوجود استقبل صاحبها انطباعات بعضها إيجابية، وبعضها سلبية، فإنه كانت هناك طبقة تشعر بأنه يريد أن يرجع كل خير إلى الشيخ التهانوي.

فقد نشر العالم المحقق الشيخ سعيد أحمد الأكبر آبادي تعليقة عليها في مجلة "برهان" الشهرية العلمية التحقيقية، الصادرة من دهلي. كما ارتفعت أصوات خافتة من الأوساط العلمية والدينية سوى أصحاب مدرسة الشيخ التهانوي، ولكن ندوة العلماء كشفت القناع عن هذا السر ذبا عن الشيخ عبد الباري بأن غرضه من كتب التجديد ليس إثبات أن الشيخ التهانوي شيخ الكل في الكل، وإنما غرضه الاستعراض الإجمالي لتلك الأدواء والمسائى والهفوات التي سرت في شتى جوانب ديننا من العقائد والعبادات والمعاملات والمعاشرة والأخلاق، والإرشاد إلى طرق سهلة اختيارية لإصلاحها وإزالتها، إذا اتخذها المسلمون أغدقت عليهم الثمرات والبركات والمنافع الإسلامية الدينية والدنيوية، وقد أوضح ذلك الشيخ عبد الباري الندوي. ولا ينكر أنه لم يكن عنده خلال تأليف كتب التجديد إلا مؤلفات الشيخ التهانوي، فلذلك لا نرى فيها إلا إحالات إليها وتعاليمه وتلقيناته التي يؤيدها المؤلف بالشواهد. وفي ضوئها يجد القارئ حلولاً لجميع المشاكل والقضايا، ولو كانت عنده مؤلفات وأقوال وأعمال غيره من

^{٢٤٨} مجلة "تعمير حيات" لكتاؤ، الصادرة في: ١٠ من يوليو سنة ١٩٨٩م.

القارئ حلولاً لجميع المشاكل والقضايا، ولو كانت عنده مؤلفات وأقوال وأعمال غيره من المصلحين المجلدين رجع إليها واستفاد واقتبس منها ولم يكف بالاستفادة من مؤلفات الشيخ التهانوي كما أعرب عن ذلك بين يدي الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي حينما اتصل به وأراد أن يستفيد منه بعد ما خلعت له الأرض من الشيوخ والمصلحين لانقراضهم واحداً بعد واحد فيقول في رسالة كتبها إلى الشيخ الكاندهلوي:

"أظن أنني وصلت إلى الشيخ التهانوي بفضل دعاء والدي الكريم وأطيب تمنياته، فوجدت عنده ما جعلني أتيقن أنه درة تيممة ليس لها مثل في هذه الدنيا ثم صدق "خوان الخليل" (المراد به الشاه وصي الله تلميذ الشيخ التهانوي) بأن ههنا ثاني اثنين غير بعيد عنه فضلاً عن الأصقاع الشاسعة من العالم، وإنما كل واحد منهما قسيم صاحبه وأصدق إذا قلت أنني أستقل لفظة "القسيم" أيضاً، فإنني وجدت بين يديه مثل تلك العلوم والمعارف التي لم أزل أتطفلها من مائة الشيخ التهانوي منذ سنوات طويلة، ولم أزل أشعر بأنني حاضر في مجالس الشيخ التهانوي، أستمع إلى ملفوظاته، وأقرأها وأتذ بسماعها. والحق أنني لأؤكد أفرق بينهما، وليت حظي ساعدني حتى أكون موقفاً للمزيد من الاستفادة من مجالسه وملفوظاته لأتبارك مافاتني، وأكفر عما صدر عني من غفلة، وقد تم تلوين ونشر ملفوظات الشيخ التهانوي وأخبار مجالسه فهل من واحد اجتهد لنشر ملفوظات خليله (الشاه وصي الله) حتى أستفيد منها شيئاً؟^{٢٤٩}

إن انطباعه عما استفاد من الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومن مصنفات الشيخ خليل أحمد السهارنفوري يدل جلياً على سعته في الفكر وطيبته الواقعية، فتبذل بذلك شبهات ثارت في بعض أذهان العلماء والمتقنين بعد ما درسوا تأليفه ولاسيما "جامع المجلدين" الذي أسماه بعد "تجديد دين كامل". بمشورة من بعض المخلصين من الناس. وما أجاب الشيخ الدكتور عبد

^{٢٤٩} مکتوبات حضرت مولانا شیخ الحدیث محمد زکریا کاندھلوی (رسائل الشيخ زکریا)، الجزء الثاني، ص: ١٠٥، دواماً: إسماعیل المیمنی.

الله عباس الندوي على تلك الشبهات والشكوك، يرشدنا إلى ماهو الحق. فإليكم جوابه: "لخص الشيخ عبد الباري الندوي مآثر الشيخ التهانوي التجلدي في كتابه. هذا الكتاب في الواقع موسوعة تعاليم الشيخ التهانوي وأقواله ولكن بعض أصحاب العلم انتقلوا عليه لتسميته الكتاب بـ "جامع المجلدين". إنهم يقولون: جامع المجلدين إحدى صفات الله سبحانه فإنه يجمع جميع المجلدين يوم القيامة، لا بل جميع الأنبياء والصالحين وغيرهم من عباده، وهو على جمهم إذا يشاء قدير.

وبناء على مثل هذه الإيرادات والشبهات غير عنوان الكتاب فأسماه "تجلد دين كامل" والحق أن إيرادهم هذا باطل. جامع المجلدين في الأصل مركب أردي، شبيه بمركب عربي. ويعني هذا المركب أن الشيخ التهانوي كان جامعاً بين جميع تلك المناقب والميزات التي كان يمتاز بها المجلدون في عصورهم، ومثله كمثل البيت الفارسي المذكور في مديح النبي صلى الله عليه وسلم:

"أيها النبي! إن حسن يوسف، ونفخة عيسى، واليد البيضاء، كل هذه السمائل والمناقب التي كان يتصف بها الأنبياء السابقون، تملكها وتتصف بها وحلك" وهكذا نرى أن من المجلدين من سلفنا الصالح من امتاز بتزكية القلب، ومنهم من له منجزات لا تنسى في مجال إصلاح النفس، وبعضهم انفرد بالتعليم والتربية، وأما الشيخ التهانوي فإنه اهتم بسائر هذه الجوانب، وتغير شيخنا عبد الباري الندوي عنوان الكتاب يدل واضحاً على عاطفة إصلاحه فإنه لم يكن يريد أن يورط نفسه في وحل التدقيقات اللفظية، وشق الشعرات من الجلد، ولو كان كذلك للج في كلامه وألح عليه ولما أحر عنه قدميه، وألح على أن ما اختار من عنوان ليس خاطئاً^{٢٥٠}. ويجب عما ثار من شبهات وإيرادات غير ما ذكرنا:

^{٢٥٠} سوانحي نقوش (روائع من السيرة / ذكر الشيخ عبد الباري الندوي) للدكتور عبد الله عباس الندوي.

"جامع المجلدين - يعني جامع أوصاف المجلدين - التي تحتوي على : تجلید معاشیات (تجلید الاقتصاد)، وتجلید تصوف وسلوك (بين التصوف والحياة)، وتجلید تعلیم وتلیخ، فإذا درسنا مؤلفاته للمذكورة أعلاه، بدا لنا أن جميع المشاكل والأزمات، مادية كانت أو روحية، كأنه يشير على المصايين بها بالرجوع إلى زاوية الشيخ التهانوي، ولكننا إذا أمعنا النظر فيها، ودرسناها دراسة جادة مترنة، مستغنين عن التعصب والاستبداد بالرأي أدركنا كلامه حقا صحيحا، إلا أنه لا بد من التنبه على أنه ليس في كلامه حصر. إنه لا يريد أن يقول: إن تعاليمه أو طريقته هي الحل الوحيد لجميع المشاكل والنريفة الوحيدة إلى الفوز، وإنما غرض قوله أنه توصل بفضل علمه وخبرته إلى أن طريقة الشيخ التهانوي خير الطرائق وأسهلها وأقربها إلى الفوز من غير إنكار لطريقة أو سلسلة غيرها. وأما الحصر فليس إلا لأسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أظن أنه لا بد من توضيح هذا الأمر، وذلك لأنه لما ظهرت سلسلة كتب التجلید على حيز الوجود اعترض عليها بعض الكتاب والعلماء من أبناء مدرسة ديوبند. ووجه اعتراضهم أن المؤلف يجعل كل طريقة غير طريقة الشيخ التهانوي ناقصة، قابلة للإصلاح والتعديل، وليس الأمر كذلك لا محالة" ٢٥١.

٢٥١ سوانحي نقوش (روائع من السيرة / ذكر الشيخ عبد الباري الندوي) للدكتور عبد الله عباس الندوي. ذكر الدكتور محمد نعيم الصديقي الندوي بعض أهم مؤلفات الشيخ عبد الباري الندوي مع سنين طبعا كما تلي:

١. مبادئ علم انساني (سنة ١٩١٨م)
٢. مذهب وعقليات (سنة ١٩١٩م)
٣. بركلي (سنة ١٩١٩م)
٤. علم اخلاق (سنة ١٩٢٣م)
٥. حديقة نفسيات (سنة ١٩٢٨م)
٦. مقدمة مابعد الطبيعيات (سنة ١٩٣١م)
٧. اخلاقيات (سنة ١٩٣٢م)
٨. طريق اور تفكرات (سنة ١٩٣٢م)

الباب العاشر

أصدقاؤه النبغاء

٩. العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله:

يعد الشيخ السيد سليمان من أولئك النبين كانت طبعت بينهم وبين الشيخ عبد الباري أواخر الحب والود، وكان العلامة سليمان الندوي يحبه ويثق بعلمه ومواهبه، ولنا دعاه إلى كلية بونا، دكن، ليعمل فيها أستاذًا مكانه، وكذلك لما تولى إتمام "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم" طلب منه أن يكتب باب المعجزات من الكتاب، واستحسن الناس مقاله وأشادوا به. وكان العلامة السيد سليمان الندوي طليعة أولئك التلامذة النابغين في ندوة العلماء، الذين شملهم العلامة شبلي - رئيس شؤونها التعليمية سابقا - بعطفه، واهتم بهم اهتماما بالغاً،

٩. فلسفه نتائج (سنة ١٩٣٧م)

١٠. فهم انساني (سنة ١٩٣٨م)

١١. نباتيات (سنة ١٩٣٨م)

١٢. تجديد تصوف وسلوك (سنة ١٩٤٩م)

١٣. جامع المجلدين (سنة ١٩٥٠م)

١٤. تجديد تعليم وتبليغ (سنة ١٩٥١م)

١٥. تجديد معاشيات (سنة ١٩٥٥م)

١٦. تفسير "نظام صلاح واصلاح" (سنة ١٩٧٥م)

مجلة "معارف"، العدد الصادر في مارس سنة ١٩٧٥م.

وكان منهم الشيخ عبد الباري الندوي أيضا الذي استفاد من العلامة شبلي حق استفادته، وقطع مراحل الدراسة تحت إشرافه وإرشاده، كما تطفل على مائدة العلامة السيد سليمان الندوي وانتفع بعلمه، ودعاه العلامة الندوي إلى دار المصنفين بما رأى فيه من جدارة علمية ومواهب متعددة، وفوض إليه الإشراف على ممارسته أصحابها من أعمال علمية وتحقيقية، ولكن بعض العوائق حالت دون إقامته بما بوجه مستقل، فقد حدثت ظروف دفعته إلى الاعتزال. وكانت العلاقة بينهما ذات جوانب متعددة مبنية على النصح والمودة كما يتضح ذلك من خلال المكاتبات التي جرت بينهما.

إن النظرة التي ينظر بها الشيخ عبد الباري إلى الشيخ سليمان الندوي يمكن إدراكها بذلك المقال الذي كتبه تلميذه الدكتور غلام محمد (كراتشي) الذي يعامله كلاهما معاملة الحب والشفقة وهو يذكر منزلته في باب المعرفة والسلوك: "إنه تقاني في ذلك السبيل ولم يكذب يشعر بأنه قد تقاني. إنه وصل من مرحلة الفناء إلى فناء الفناء، واتحد بين يديه المدح والذم، وصار مفوضا كاملا، وقد سمعت بعض خلفاء الشيخ التهانوي الأجلاء أمثال المفتي محمد حسن، والشيخ محمود الغني، والحاج محمد عثمان خان، والشيخ عبد الباري الندوي، والدكتور عبد الحي، والشيخ مسيح الله يقولون بلسان واحد: إننا لم نجد أحدا أخذ من الشيخ التهانوي درس الفناء وبلغ فيه ذروة الكمال مثلما فعل الشيخ السيد سليمان الندوي، ولذلك أمثلة أكثر من أن تذكر بل الحق أن موضوعنا هنا يقتضي بابا كاملا: "حدث عن البحر ولا حرج" ٢٥٢ كما أشاد به الشيخ عبد الباري وبارك جهوده في مقاله المعنون بـ "دروس رائعة من سيرة السيد" في العدد الممتاز عن الشيخ السيد سليمان من مجلة "معارف" الشهرية (ص ٩)، وذكر فيه جلالة شأنه ومنزلته في باب المعرفة والسلوك في أسلوب بديع بليغ، ومن العوامل التي دفعت الشيخ

٢٥٢ مجلة "القاسم" الشهرية، عدد ممتاز عن الشيخ السيد سليمان الندوي، الصادرة من نوشهرد، باكستان، ودونه الشيخ عبد القيوم الحفاني، ص: ٣٢٠.

سليمان إلى الاتصال بالشيخ التهانوي واسترشاده قلقه واضطرابه، وإنه ذكر هنا القلق بأسلوب يدل على حب واتصال بعضهما ببعض. يقول الشيخ عبد الباري:

"دفعني عاطفة المواساة والنصح إلى أن ألقت نظره إلى الاتصال بالتهانوي شيئا فشيئا، فيأدئ اليأس زار الشيخ التهانوي وحضر مجلسه هنا، وكنت أتمنى من صميم القلب أن يكثر حضوره في مجالسه، فإنما أنفع لأمثال هؤلاء العلماء الكتاب بالنسبة إلى الجهال وقليل العلم، وستفضي إفاداته عليه رونقا ونضارة وتجلو علمه. فحقق ماتميتيه، والحمد لله على ذلك".

ويكتب الشيخ السيد سليمان الندوي بعد اتصاله بالشيخ التهانوي رسالة إلى الشيخ عبد الباري يشكره فيها وقال:

"على كل، فإنني قد ابتدأت سفري، وأما الإيصال إلى الغاية المنشودة فهو بيد الله سبحانه. يوصلني إليها إذا شاء، وأسألكم الدعاء".

ولم يلبث أن بلغ إلى قمة العظمة والكمال حتى كتب إليه الشيخ التهانوي قصيدة تحتوي على عشرة أو اثني عشر بيتا، ومنها هذه الأبيات الثلاثة:

"تعلم من سليمان^{٢٥٣} درس الإخلاص في العمل، واعلم أن الندوي^{٢٥٤} يكون مترها بعيدا عن الغش والخنا، والمكر والرياء. ياله من قلب مليء بأسرار الحق، طروب بآثاره، مستبتر بأنواره، فرح بأخباره^{٢٥٥}".

ولم يعده السيد سليمان عالما نابغا، متخرجاً من مدرسة، ومصنفاً ومترجماً فحسب بل اعترف بأن الله أكرمه بقلب سليم سديد، وأنه متخصص في الفلسفتين الغربية والشرقية. يقول مشيداً بما ألف من كتب لإصلاح المجتمع مراعياً للأوضاع الراهنة ومتطلباتها:

^{٢٥٣} المراد به الشيخ السيد سليمان الندوي (المترجم)

^{٢٥٤} المتخرج في ندوة العلماء (المترجم)

^{٢٥٥} يراجع: تذكره سليمان للدكتور غلام محمد (كراتشي).

النجوي وقدم الأسلوب، في بوتقة جديدة، وتكسى ثوبا قشيبا من اللغة والأسلوب، نظرا إلى طبيعة العصر الراهن، فقام الشيخ عبد الباري الندوي لهذا العمل الجليل بتأليف كتب التجديد والإصلاح في أربعة أجزاء. أدعو الله أن ينفع بها المسلمين، فالسرعة التي يسير بها شبه القاره تتطلب أن يتم مثل هذا العمل، فإله محمد على أنه تم بقلم جامع بين سعادت الدنيا والدين. إن هذه الكتب حجر أساسي في إصلاح المسلمين وتقدمهم، والله ندعوه نحاشعين متضرعين أن يوفقه لإصلاح نفوسهم في ضوء هذه الكتب، وتولي الرعامة للعالم بدلا من أن يعيشوا عيشة المقلدين المستعبدين المغلولة أيديهم، المولعين بحطام الدنيا الذي لا يستمتع به الإنسان إلا قليلا، ويلهمهم أن يؤسسوا صرح حضارة جديدة، وطرز جديد من الحياة، وغاية جديدة من الحياة، وقانون جديد، ويوجهوا رسالة الأمن والسلام إلى العالم المتعطش إليه، المفتش عنه في كل مكان، الحافل بالأشجان والأحزان، الملقى بالتوائب والكوارث، ويطبقوا الشريعة الإسلامية على الحياة الفردية والجماعية، للتكفلة بالفوز في الدنيا والآخرة ويخلصوا السياسة والحكومة من برائن الرذائل وشوائب الحرص والهووى، والكذب والخداع، والمكر والغش^{٢٥٦}.

الآن وقد قلنا ما أشاد به الشيخ السيد سليمان الندوي لا يسعنا إلا أن نعترف بما وهبه الله من مكانة مرموقة لما قام به من نشر وترتيب الآثار التجديدية الإصلاحية التي خلفها بجدد الساعة المصلح الشيخ أشرف علي التهانوي.

وكان ينظر الشيخ عبد الباري الندوي إلى الشيخ السيد سليمان الندوي من بين رفقاته وأساطين ندوة العلماء ودار المصنفين نظرة تلميذ إلى شيخه أو مقلد إلى أمامه، ويسميه بسيد الطائفة كما كان يدعوه الشيخ السيد سليمان بالشيخ عبارى بتخفيف اسمه "عبد الباري"، وقد استفاد منه الشيخ عبد الباري حين كان كلاهما طالبا في ندوة العلماء، وكذلك بعدما صار الشيخ السيد سليمان الندوي أستاذا بها. وظل العلامة شبلي مشرفا عليهما مادام حيا.

^{٢٥٦} من مقدمة كتاب "تجديد دين كامل".

٢. الشيخ الأديب اللبيب السيد مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله :

كانت تقوم بين الشيخ عبد الباري الندوي والشيخ مناظر أحسن الكيلاني علاقات ودية، فهما متحلمان في العمل والخيال، متجانسان في الرأي، متجاوران في المسكن. إذا أحب أحدهما شخصا أحبه الآخر، ويقاسمان الأفراح والأتراح، والهموم والمسرات، وإذا سلم الواحد بعظمة شيخ أقر بما الآخر، وإذا اعترف أولهما بعبقريّة أستاذ اعترف بما الثاني، وإذا شهد أحدهما بنبل خلق الواحد وحسن شمائله وورعه شهد به الآخر، وأدى كلاهما فريضة الحج معا إلا أنه فارق الواحد منهما الآخر بعرفة وذلك لأنهما غرقا في ذكر الله ودعائه والتضرع له والانقطاع إليه وطلب رحمته غرقا شغل كل واحد عن غيره حتى أفاقا عند بيت الله فرأى بعضهما بعضا. ووهب الله كليهما كيفية الجذب والحال، والعشق والشوق، والمحبة والعرفان، وبالرغم مما قام به كلاهما من جلائل الأعمال ونبوغه وعبقريته لم يزل يتواضع لله، وكان كلاهما خير من وطئ الأرض في عصرهما. كان الشيخ مناظر أصغر سنا من الشيخ عبد الباري بكثير ولكن الأخير ذكره قضى الأيام الأخيرة من حياته طريح الفراش مريضا. وأتى عليهما حين من الدهر نشأت فيه خلافات نظرية علمية وعثر عليهما الناس فتأثر بذلك كل منهما، ولكنهما تابعا عملهما من غير مبالاة بشيء، لما كان عملهما حسبة لله، وتلك هي اللبزة التي يمتازان بها. أما العلاقات فكانت وثيقة بينهما إلى حد أن الشيخ عبد الباري لما بين يينا بلكنائو سماه الشيخ الكيلاني بـ "شبهستان سعادت" وقضى فيه شيئا من وقته الغالي، واطمأن بذلك كثيرا كما اصطحبا في حجرة واحدة بمجملرآباد.

كتب الشيخ عبد الباري انطباعاته ومدى حزنه إثر وفاة الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بعنوان: "بجمع بديع نادر و منار هدى لكل من القلب والذهن" فلم يسعه فيه إلا أن يشهد بما يلي:

"ظلت علاقاتنا قائمة إلى تتين أو أربع وثلاثين سنة ولا يشركني أحد في التشرف

يلي:

"ظلت علاقتنا قائمة إلى ثنتين أو أربع وثلاثين سنة ولا يشركني أحد في التشرف باصطحابه إلى زمن طويل، ولم يره إلى خمس وعشرين سنة كما رأيته، وشاهدت أحواله الظاهرة والباطنة، الدينية والنيوية، العلمية والعملية، واصطحبته في الحل والترحال، والصحة والمرض إلى خمس وعشرين سنة. وإني وقد أكتب هذه السطور وأجد تلك الذكرى وأستعرض معيته بغاية من الحيطة أشهد شعورا بمسئولتي بأنه مهما يكن من عيب أو نقص في شخصية الشيخ مناظر أحسن ومهما صدر عنه من خطأ - وليس البشر معصوما عن الخطأ - ولكن قلبه ظل مئزها مزكى من جميع الرذائل وشوائب البغض والحسد، والانتقام والعدوان، والرياء والنفاق، والسمة والشهرة، والحرص والطمع، وطول الأمد، وغيرها من الأدواء النفسية التي لم تقع من قلبه أي موقع إلا أن تمر بها سريعا، فيحاسب الصلحاء والعلماء صغارا كانوا أو كبارا نفوسهم ليقدرها ما أكرم الله سبحانه شيخنا الكيلاني أو أمثاله من العلماء به من ابتعاد - لا يقل كرامة وكشفا - عن تلك الأدواء ويلسروا شمولها وعمومها.

والحق أن جميع الرذائل الخلقية والأدواء النفسية ثمرات الكبر والأنفة، والعجب والزهو، ولكن الشيخ الكيلاني يغلبه الإيثار والتواضع، وطبع على التفاني والطرب. وكان معروفا بفظاته وذكائه المفرط وقوله بالتوحيد الوجودي الذي هو في الأصل عبارة عن التفاني^{٢٥٧}.

ويذكر الشيخ عبد الباري اتصافه بفكرة التوحيدين والتجانس في رأيهما في أسلوب بليغ:

"إن الشيخ مناظر الكيلاني وإن كان قد تعلم في "الجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند" ولقبه ولد ندويا، وتفرس ذلك أستاذه الشيخ بركات أحمد بـ "طونك" قبل التحاقه بدارالعلوم، ديوبند بكثير حيث يعيد الشيخ الكيلاني قوله هذه ملتنا بما: "من أين نزل ههنا ريب شيلي

هنا^{٢٥٨}. إنه يتفق مع شبلي النعماني فكرا ورأيا فلم التحق بمدرسة تحمل فكرة دار العلوم لليونيد، وإنما كان الأنسب به أن يذهب إلى مدرسة شبلي، ندوة العلماء، ولا نجد خارج ندوة العلماء من أولئك الذين تشبعوا بالعلوم الشرعية والتربية الدينية إلا أفرادا لا يتجاوز عددهم رؤوس الأصابع وهبهم الله قلبا واعيا ولسانا متيقظا مثلما وهب أبناء ندوة العلماء أو ممن يستمع إلى كلامهم المؤيدة للدين من المثقفين بالثقافة العصرية بأذان صاغية، ويتلقونها بقلوب واعية، وكان الشيخ الكيلاني طليعة هؤلاء للملودين. وصدق الشيخ عبد الماجد الدرايادي حيث يقول:

"كان ندويا أعظم وأجل من كل ندوي عظيم"

ومن ميزاته العلمية فهمه لعلوم القرآن واستكناه وجوهه وأسراره كما يذكر الشيخ عبد الباري:

"إن شخصية الشيخ الكيلاني وفضائله الفكرية والذهنية ومنجزاته في مجال التعليم كتابة وخطابة غنية عن أي تعريف. ولكن ما أريد أن ألفت أنظار الناس إليه من جوانب حياته هو ما أكرمه الله به من فهم لعلوم القرآن واستكناه لأسراره وجوهه. وذلك من أعظم ما يملكه من خصائص شخصية ومواهب فكرية"^{٢٥٩}.

هنا، وما يحمله الشيخ الكيلاني في قلبه من مشاعر تجاه الشيخ عبد الباري الندوي خير نموذج لإخلاصه وصلقه كما كتب مرة إلى الشيخ السيد سليمان الندوي قائلا:

"ويزداد حال الشيخ عبد الباري الندوي غبطة يوما فيوما. أودعه الله روحا زكية طاهرة"^{٢٦٠}.

ويقول في رسالة أخرى وجهها إلى الشيخ عبد الباري الندوي:

^{٢٥٨} معنى الجملة بالأردية: "شبلي كما به انڈا میرے ہاں کہاں سے آگیا".

^{٢٥٩} مقدمة مكاتيب كيلاني ص: ٢٧.

^{٢٦٠} المرجع نفسه: ٣٥٢/١.

"اليوم يبس الذين كفروا من دينكم" ^{٢٦١} وقد يبس الشيطان من دينك إن شاء الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولاسيما من يلزم صحبة أوليائه سبحانه، فكيف يحرم ذلك الذي بايع الشيخ المدني واستفاد من الشيخ التهانوي ومن أولئك الذين جعل الله الجنة تحت أقدامهم؟ ^{٢٦٢}.

٣. الشيخ المفسر عبد الماجد الدرايبادي رحمه الله:

إنه أقرب وأحب زملاء الشيخ عبد الباري الندوي - بعد الشيخ الكيلاني - رفيقان في السفر، أكيلان في الطعام، متحلان منحا ومشربا، وكل واحد منهما أستاذ وتلميذ للآخر، وأخذ كلاهما من الثاني لغة حتى تضلع منها، فتعلم منه الشيخ عبد الباري اللغة الإنجليزية والفلسفة التي كانت موضوعه حتى عرف بها واعترف الناس بنبوغه فيها، وترجم بعض الكتب الإنجليزية بالأردنية، وجعل يلقي دروسه ومحاضراته فيها، وتعلم منه الشيخ الدرايبادي اللغة العربية وأتقنها إلى أن جعل يفهم أمهات كتبها ومصادرها، كما استفاد منه تفسير القرآن الكريم حتى عرف بكونه مفسرا للقرآن الكريم ومدققا محققا في العلوم الدينية. وظل كلاهما مولعا بالعلامة شبلي النعماني، ومسترشدا للشيخ التهانوي، وبايعا معا الشيخ المدني، وأديا فريضة الحج معا، وعاشا في هذه الدنيا سواء، وقضيا الأيام الأخيرة من حياتهما بلكنائؤ. من ولد منهما أولا توفي أولا، وكان الشيخ الدرايبادي أصغر منه سنا، متأخر الميلاد، فكان متأخر الوفاة، وكانت علاقتهما مطبوعة على الود والإخلاص والوفاء إلا أن الشيخ الدرايبادي ظل متصلا بسائر طبقات الناس مع اعتزاله للاشتغال بأعماله التفسيرية. ومرد ذلك عمله الصحفي، فلم يسع الشيخ عبد الباري أن يثفق معه في هذا المجال، فكان مصنفا محققا، والشيخ الدرايبادي صحفيا مفسرا للقرآن، وهكنا عاصره الشيخ الدرايبادي، وذكر معاصرته في كتابه "معاصرين". وإليك

^{٢٦١} سورة المائدة ٣.

^{٢٦٢} مكاتيب كيلاني ٣٦١/١.

انطباعاته عنه تقلا عن الكتاب المذكور:

"وعهدي به صلقة وولاء أقدم منه بجميع أصلقائي ومعارفي، ولعله أكبر مني سنا بستين أو أكثر. وأول عهدي به كان سنة ١٩٠٨م، وقد دخلنا الآن في عام ١٩٧٢م، فقد مضت على صلقتنا أربع وستون سنة على الأقل. أليس ذلك من العجب العجاب. إنه من أهالي بلدة مجهولة من مديرية "باره بنكي" ولعل بلدة "كرسي" — مع الشك — هي مسقط رأسه، وقضى جزء من صباه في بلدة "كنديا"، ولعل عهدي به منذ ذلك الوقت، وكان والده الشيخ عبد الخالق يعمل بها طبيباً وموظفاً. تعلم العلوم الدينية في بلدة "نغرام" ثم نال القبول في ندوة العلماء فالتحق بها. ولعله أقام مدة في "فرنكي محل" أيضاً عاصر فيها الشيخ السيد سليمان والمولوي عبد السلام وإن كان أدنى منهما دراسة. وكان يحضر مجالس شبلي ويستفيد منه.

لقيته أول ما لقيت في عرس تم عقده في بلد "بانسه" التي كانت بيني وبين أهلها قرابة. وأما هو فكان يحضر حيناً لآخر في الأعراس. وفي يونيو سنة ١٩٠٨م قدم وفد — وهو فيه — من ندوة العلماء بلدة درياباد، فمنذ ذلك الحين توقفت عرى الصلقة بيني وبينه. وبعد مدة قليلة قدمت لكتاؤ ونلت القبول في كلية "كنك" وكان مقيماً في رواق ندوة العلماء فكثيراً ما كنا نتلاقى، ويوزوني أغلب الأحيان. وبما كنا تتمتع به من ذوق أدبي عنمي اجتماعي توطد الحب والود فيما. لم يكن جد حريص على المطالعة ولا كثير الدراسة إلا أنه كان أذكى مني، وكنت أدرس الكتب والمقالات وأذكر عصارتها بين يديه، فيناقشني فيها ويلور كلامنا حول الفلسفة واللغة الإنجليزية والمنطق وعلم النفس من أخص موضوعاتنا، فكانا كذلك نطالع معاً. هنا، وكنت أزداد يوماً فيوماً إلحاحاً على الشك والإلحاد، فكان يركز كل جهوده على إقناعي وتبديد شكوك وشبهات تور في ذهني، وتجديد ثقتي بالإسلام وتعاليمه فذهبت سدى وأثرت بعد زمن طويل، ووقع بعض الأحيان أن استقبلنا عدو للإسلام ميين من قسيسين ورهبان، أو

أساقف أو أبحار، فنذب كلانا بين يديه عن الإسلام متحدين متضامين. ومن المواد التي اخترتها في الكلية اللغة العربية، وكان يريد الشيخ عبد الباري أن يتعلم اللغة الإنجليزية، فقرأت عليه اللغة العربية وهو علي اللغة الإنجليزية، فتعلمها إلى أن جعل يطالع كتبها. أما أنا فطلت جاهلا غير مطلع على شيء من العربية. ولما أردت الزواج وتم بعد، ظل عية سر لي، ورفيقا مصاحبا لي في سائر تصرفاتي الشخصية والظروف التي واجهتها، مستبة كانت أو عصية حرجة، مشيرا علي بما أزداد به جرأة وهمة، ويعرض علي كل ما يدور بخلد في هذا الصدد، وكانت لكانا نزلت مني منزلة موطن ثان، وجعلتها مستقرا لي. أما هو فكان كثير الترحال، جهم التجوال، مرة إلى أعظم كره، ومرة أخرى إلى بونا ومبائي، وكلما رجع من سفره أقام عندي، فطلما أماطل في إضافته - وذلك من سوء حظي - وصاحبي في سفر الحج سنة ١٩٢٩م^{٢٦٣} وكان معه أبواه وغيرهما من أقاربه ورفقائه، ومشاورتي انعقدت زواجه الأول من أحد أقاربي الأباعد.

وكثيرا ما ينهني على شيء بأحسن طريق وأنا مدين به لما منعي عن التعدي في بعض الأمور العائلية كما حذرني من الإبعاد في عصيان أبي مادام حيا، ولو لم أعمل برأيه لتورطت في مشقة أي مشقة.

وكان رفيق سفري حينما خرجنا بحثنا عن شيخ مرشد في يوليو سنة ١٩٢٨م حتى وصلنا إلى سهارنور، وبايعنا الشيخ حسين أحمد المدني، كما صاحبي عند الاتصال بالشيخ التهانوي للإصلاح والتزكية.

لاتلوم في هذا العالم أي علاقة بالألا تشوها أي شائبة ولا يعكر صفوها أي كدر، فظهرت بيني وبينه خلافات غير مرة، ودخلتها تأزمات وتوترات. إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا معصومين من مثل هذه المفوات فماظنك بنا، وأين نحن منهم. والحق أنه لاخله إلا في الآخرة، ولا إخلاص إلا يوم الآخرة: "ونزعنا ما في صدورهم من غل"

^{٢٦٣} خرجوا للحج سنة ١٩٢٨م ورجعوا سنة ١٩٢٩م بعد أداء الحج. وهذا يمكن التوفيق بين القولين.

عاش في أوائل حياته ضنك العيش ثم نال شيئا من الرغد والهناء، ولما عين أستاذا بحيدرآباد صار يعد من أترياء الناس. ولما تخليت عن عملي في قسم الترجمة والتأليف بالجامعة عرضت بين يدي الإدارة أسماء ثلاثة رجال يخلفونني فيه، ولعل الشيخ عبد الباري كان طليعتهم. إنه دعني ليدرس في قسم الفلسفة للجامعة وتم نقله إلى قسم الإلهيات بعد ما قام للمستتر ميكتري مع مراقبيها الإنكليز بجولة لها. بنى قصرا في أحد أطراف لكناؤ، وليست العلاقات بينه وبين جيرانه متحسنة للغاية، ولا أدري ماهي الأسباب وراء ذلك. ويحسن التأليف ويجيد الكتابة. يقتبس الفكرة والمعاني من الشيخ التهانوي وأسلوب الكتابة من الشيخ شبلي. وقام بنشر تعاليم وإفادات الشيخ التهانوي في أربعة أجزاء أسماها "تجديد دين" فتلاوتها الأيدي ونالت قبولا عاما، وفي الأيام الأخيرة قام بنشر الدعوة إلى الله بلسان العلوم الطبيعية وأبرز الدين في قمص سابعة من البرهان ليشرق في العالم كله. ظل مصابا بنقل الأذنين طيلة حياته ومن أسبابه الطيبة إكتار استعمال الليمون، واشتد ثقله هنا قبل اليوم بعدة سنوات، وصحته لا يزال يزداد اعتلالها منذ أعوام وكأنه لم يعد الآن قابلا للتحرك والمشى، ومع فساد صحته يحسن الكتابة ويتابعها، والمؤسف أنه لم يعتن بالكتابة في حياة الشيخ التهانوي، ولو كتب في حياته لأعانه. إني كلما أذكره ألقبه "تهانوي الفكر شبلي القلم". أُلّف في ريعان شبابه كتابا صغير الحجم جزيل المعنى وأسماه "منهّب وعقليات" (الدين والعلوم العقلية) فأحسن وأجاد فيما كتب، وكأنه نسي الكتابة بعد.

فارق الشيخ التهانوي الفانية مصحوبا بهذه الحسرة دون أن تتحقق أمنيته هذه، ولكن الشيخ عبد الباري تشارك مافات إلى حد كبير بعدما توفي شيخه التهانوي. بارك الله في حياته ليقوم بخدمة الدين أكثر مما قام به. بايع الشيخ حسين أحمد المدني ولكنه تمت تربيته وتزكيتة بيد الشيخ التهانوي، حتى منحه الإجازة. إنه لا يزال طريق الفرائض مريضا أمهكته أنواع من الأمراض. وفي سنة ١٩٧٤م بدأ كتابي "معاصرين" ينشر في مجلة "صدق جديد" حلقة فحلقة،

وقبل أن تصدر حلقة الشيخ عبد الباري الندوي انتقل إلى رحمة الله، وذلك صباح الجمعة في ٣٠ من يناير سنة ١٩٧٦ م. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وأديت صلاة جنازته خارج مسجد ندوة العلماء بعد صلاة الجمعة، حضرها عدد لا بأس به من طلبتها وأساتذتها وغيرهم من عامة الناس، وصلى بهم الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ودفن في المدفن القديم ببالي كنج، لكتاؤ^{٢٦٤}.

٤. الشيخ الطبيب السيد عبد العلي الحسيني - الرئيس العام لندوة

العلماء سابقا - رحمه الله:

كان الشيخ الدكتور السيد عبد العلي - الأخ الأكبر للشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله - من أحب وأقرب أصحاب الشيخ عبد الباري حتى كان يقول عنه بغاية من الوثوق: "لا يخطر بباله هاجس من هواجس الإثم فضلا عن أن يقترفه"^{٢٦٥} وجعله صلاحه، وكرم سلطته، واتصاله بالله سبحانه، وورعه مولعا به حتى اختاره بمشورة شيخه المرشد أشرف علي التهانوي ناصحا مشيرا عليه في سائر تصرفاته وشؤونه الفردية والاجتماعية، وكان الشيخ عبد العلي يحبه، ولو قيل: لم يكن للشيخ عبد العلي إلا صديق واحد، لصاح الناس بلسان واحد: الشيخ عبد الباري، حتى إنك تجمله معه في مناسباته الخاصة التي لا يدعو فيها إلا علدا من الناس. وللعلاقات فيما بينهما أسباب شتى، منها أن كليهما بايع الشيخ حسين أحمد للدين حتى إنه كلما قدم لكتاؤ لم يقم إلا في منزل الشيخ عبد العلي، وأحيانا في منزل الشيخ عبد الباري استجابة لدعوته كما أن كل واحد منهما يتفق مع الشيخ التهانوي ذوقا وطبيعة وأعرب الشيخ عبد الباري عن ذلك بقوله: "ولم أزل أظن ما دام الشيخ عبد العلي حيا أن لي وحدي كل الحظ في وصله بالشيخ التهانوي وجه إياه ولكنني حينما قرأت رسائله عرفت أنه طبع على النوق الذي كان يحمله التهانوي"^{٢٦٦}.

^{٢٦٤} "معاصرين" للشيخ عبد الماجد الدرايبادي.

^{٢٦٥} رواية عن الشيخ محمد غفران الندوي الجوراسي، الأستاذ بدار العلوم لندوة العلماء، لكتاؤ.

^{٢٦٦} فرشته صفت انسان، ص: ٧٣.

وتأثر الشيخ عبد الباري بحياته التي كانت كلها عبارة عن الخشية لله، وعده أصدق تعبير
وخير نموذج للآية الكريمة: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ". وشبهه يوسف عليه الصلاة والسلام
بإفكار غيره على نفسه ورغبتها في الحياة الاجتماعية وللعمالات، واختيار الفرائض على غيرها من
العادات، وجمعه بين البصيرة في الدنيا والدين، والعفاف والورع. ولم يملك على نفسه من أن يصيح:
"إن هذا إلا ملك كريم" وكتب مقالا في سيرته بمنا العوان وعده "ثالث العمرين"^{٢٦٧} بلقة نظره في
الإحارة وتدير النظام، ومثل له ذهنه دولة كلها عدل وإنصاف، كما كان معترفا بجناته في مجال الطب
حتى لم يكن يرجع إلا إليه للعلاج إلا أن يشير عليه نفسه عراجعة غيره فلم يكن يرى فيه بأسا، وكان
كلاهما شريكا للأخر في بعض الشؤون، ولكن كل واحد منهما يؤثر الآخر على نفسه كأنه أعر لديه
من نفسه. ويحيب الشيخ عبد الباري عما يثور في ذهننا من سؤال لماذا سماه "ملكا كريما" قائلا: "بعث
الإنسان في هذه الدنيا ليرى الدنيا دينا. وأما للفتنة فإنهم لم ينظروا إلى ما هي فوائد خلقه، فقال الله لهم:
"إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ". ولا غرو إذا دلت الآية بإشارة النص على أنه إذا حف الإنسان بالشهوات
للادية، وتصدى كل الأحيان لهزات الشيطان وهجماته وصار عرضة لوساوس النفس ونزعاتها ثم ولد
من بين أظهرهم إنسان - مثل الدكتور عبد العلي - يتصف بما يتصف به الملك الكريم أفلا يكون
أرفع منزلة من ألوف للفتنة"^{٢٦٨}.

والشيخ عبد العلي عنده إنسان مثالي نموذجي. "كان بشرا" متصفا بجميع ما يتصف به البشر،
ولكنه كما يظن الشيخ الكيلاني وليا، ولم يلبث إلا عدة شهور حتى دفع إلى أن يقول: رأيت إنسانا
قلما يخطر بباله هاجس من هواجس الإثم، يشهد بذلك هذا العياب الذي يبصر إلا معائب غيره، نظرا
إلى العلاقات وللعمالات الشخصية التي جرت بيننا حتى رأته عن كتب. أشهد بأنني لم أره قط يريد
الدنيا ولو خسر في ذلك، ولا أذكر أن قد صدر عنه عمل يخالف الدين ولو عفوا، ولو ذهبت أذكر
مآثره وأخلاقه لم يسعها كتاب أو عدد ضخم من الجلة، وبالجملة إنه عاش حياة زكية سعيه ظاهرا
وباطنا كما يعيشها للفتنة الكرام. اللهم اغفر له وارفع درجاته"^{٢٦٩}.

^{٢٦٧} يعني ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب والخليفة العدل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

^{٢٦٨} فرشته صفت انسان، ص: ٦٤.

^{٢٦٩} المصدر السابق، ص: ٧٩.

ونذكر فيما يلي قيسة مما كتبه الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي عن اتحادهما الفكري والنوحي، وذلك ليكون من ليسور إدراك مدى العلاقات فيما بينهما:

"وكانت بين الشيخ عبد الباري وأخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي أواصر الحب، وكان أحدهما شريكا للآخر بوجوه شتى، وأدى ذلك الاشتراك إلى الاتصال والاتحاد فيما بينهما. ومن هذه الوجوه أن كان كلاهما حذرا أشد الحذر في حقوق العباد وغيرها من التصرفات، ويعملان بأحكام الشريعة مستغنين عن إطراء الناس واتقاداتهم، وثباتهم وطعنهم، غير مباينين بالمظاهر الجوفاء، ويؤثران الفرائض على النواقل وللمستحبات، وأودع كلاهما جدارة الإدارة والتدبير. متبسطان مسويان لسائر الشؤون والتصرفات. وبيع كلاهما الشيخ حسين أحمد للدين، ومع ما ذكرنا من وجوه الاتحاد فيما بينهما يملك كل واحد منهما ميزات تميزه عن غيره، وذلك بتأثير التعليم والتربية واختلاف البيئة وللاثرات الأسرية، وكيف يمكن أن تكون نفسان واحدة من كل وجه، فميزة الشيخ عبد الباري الندوي أنه كان حاد الطبع من غير مرونة، ولا يملك نفسه إذا رأى شيئا يضاد طبيعته ويخالف مبادئه، ولذلك كان يخافه الصغار ولا يستقبلونه، وقلما صدق أهل بيته على مبادئه. وقد عبر الشيخ السيد حسين أحمد للدين عن ميزاته هذه بجملة بليغة: "يريد الشيخ عبد الباري أن يموت الشيطان ولا يكون ذلك".

وكان أخي هو الطبيب الوحيد للشيخ عبد الباري، يتلوى بلوائه دائما، ولا يرجع إلى غيره من الأطباء إلا إذا أشار أخي عليه بذلك، فكان قاتلا بوحدة الطبيب كما كان قاتلا بوحدة المرشد، وجعله مشيرا عليه بمشاوره الشيخ أشرف علي التهانوي^{٢٧٠}.

الباب الحادي عشر

أشهر تلامذته والمستفيدين منه

١. سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي:

الميزة الكبرى لعقيدة الإمام الداعية الرباني أبي الحسن علي الحسيني الندوي نابغة عصره الاستفادة والتلمذ على كل نابغ متخصص في فنه، الميزة التي جعلته يشد الرحل إلى جميع المجتدين والمصلحين في زمنه وعباقة عصره ونوابغه في مجال العلم والروح متلمنا عليهم، متطفلا على موائلهم، وفي مقدمتهم الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والشيخ أشرف علي التهانوي، والشيخ السيد حسين أحمد المدني، والشيخ أحمد علي اللاهوري، والشيخ الشاه عبد القادر الرائي بوري، والشيخ زكريا الكاندهلوي، والعلامة السيد سليمان الندوي، والشاه وصي الله الفتحجوري، والشيخ الشاه محمد يعقوب المجلدي البوفالي، والشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكوي، والدكتور محمد إقبال، والشيخ حارون العسل - أحد العارفين المعروفين بالشام - ومن هؤلاء الشيخ عبد الباري الندوي اللكوي، ولا أعالي إذا سميت منهم الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الماجد الدرابادي رحمهم الله رحمة واسعة.

وميزته الأخرى أنه يؤثر الاستفادة في علوم وتفسير القرآن الكريم، ولنا مال إلى الشيخ عبد الباري الندوي كما قال في مقاله الذي كتبه في "بران جراغ" إثر وفاته، ولم يذغ للاستفادة منه إلى أن يغادر إلى بلد آخر، فإنه كلما رجع من مدينة حيدرآباد إلى لكناؤ لقضاء أيام الإجازة

في منزله بها، فكان يستفيد منه خلال تلك المدة. يقول الإمام الندوي:

"وكانت عادته أنه كلما رجع إلى لكتاؤ - وظل قائما على هذه العادة حتى بعد التقاعد - كان يؤدي صلاة الجمعة في مسجد حينما الذي كان أخي إماما وخطيبا فيه، ثم عيني إماما مكانه، ويحضر الشيخ مسعود علي أيضا إن كان في لكتاؤ^{٢٧١}. ويتاولان الغناء مع أخي ويستريحان في حجرة المدخل الأسفل التي تكون باردة أيام الصيف. وإذا انعقد المجلس حضرت لأستمع إلى كلامهم للمتعم المعجب العلمي وإن كان الشيخ الكيلاني حاضرا في المجلس ازداد رونقا ونورا لحلاوة كلامه، وظرافة طبعه، وتلقيقاته، وفكاهاته.

وخلال إقامته في لكتاؤ أيام الإجازة بدأت أزوره في منزله، ومعني صديقي، وأستاذي بالإنجليزية، وتلميذي بالعربية الحاج عبد الواحد - الماجستير في الآداب، نزيل لاهور - فكان نصل إلى بيته البعيد من منزلنا الواقع في سوق جهاؤلال، بميلين، ومتجولين بكرة فكان يلقي علينا درسا للقرآن الكريم ويطعمنا الأنيج بعد انتهاء الدرس. ودروسه مليئة بنكت لطيفة ودقائق بديعة لو ذهبنا نشرحها لما وسعها إلا كتاب ضخيم. ولا أذكر الآن شيئا من المواد التي كان يلقيها علينا إلا أنني أذكر أنني انتفعت بها كثيرا وزدت بها إيمانا بعظمة القرآن الكريم وتصديقا بإعجازه. إن هذه السلسلة وإن لم تستمر إلى زمن طويل ولكنها تركت أثرا عميقا على ذهني.

ولما بدأت أدرس في دار العلوم لنهضة العلماء جعل طلبة الصفوف العليا يحضرون في دروسه بما أنني رغبتهم إلى ذلك. وما أحب الشيخ عبد الباري أن يحضره الطلبة ماشين على

^{٢٧١} كان الشيخ مسعود علي من أبناء ندوة العلماء المرموقين، وصار بعد عضوا لها، كما كان من المسئولين عن دار المصنفين. بنى مسجدي ندوة العلماء ودار المصنفين. كان ربيب العلامة شبلي، وصار بعد تلميذا مجازا للشيخ التهانوي. وبعد أحد أعضاء طائفة الشيخ السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الباري الندوي والدكتور عبد العلي الحسيني والشيخ عبد الماجد الدرابادي والشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمهم الله رحمة واسعة.

الأفلام، فكان يذهب نفسه إلى مسجد واقع على مقربة من السكك الحديدية يسميه "مكاننا سوى" - لوقوعه على مسافة وسط بين منزله ودار العلوم لنوة العلماء - فكثيرا ما أحضره معهم وأستفيد منه ^{٢٧٢}.

وكان الشيخ عبد الباري النوي معترفا بفضل الشيخ السيد أبي الحسن علي النوي ومشينا به كما تدل على ذلك بعض عباراته. يقول في مقدمة كتابه "مذهب وسائس" (بين الدين والعلوم):

"كلما قلمت لكتاؤ في الإجازات حضر بعض طلبة نوة العلماء للدارسين في الصفوف العالية فأعرض بين يديهم ما يجول بخاطري. ويحضر بعض الأحيان الشيخ أبو الحسن علي النوي. وأذكر أنني حينما قلمت لكتاؤ مرة في إجازة طويلة في الجامعة العثمانية، حيدرآباد فقد كان يحضر مع بعض أصحابه لأسابيع ماشيا على قدمه ميلين أو أكثر، ويمكث عندي لساعة أو أكثر وأفكر اليوم أنني لو أنني أدركت منزلة الشيخ النوي - الذي تعرف البطحاء وطأته - تلك الساعة جلست في غضون صفوف الطلاب تاركًا مكاني. إنه في الواقع أصدق مثال وخير نموذج للحديث الشريف "من تواضع لله رفعه الله"، فكان يتردد مثل تلميذ في الحضور عند من يجد شيئًا مما ينفعه ممن ليس لهم شأن ولا أنسى فضله في مساعدته إياي في إعداد كتابي "مذهب وسائس".

ونظرا إلى خلماته وأعماله ومواهبه كان يؤكد عليه أن يركز جهوده على العالم العربي ويقول له أن ينقطع إلى هنا العمل كل الانقطاع. يقول الشيخ النوي:

"وكان يرى أن أحاطب العرب وأتخذ العالم العربي موضوعا لدعوتي وبجلا أبذل فيه كل جهودي، وكان يقول: لاتليق بك الهند. أنت ههنا لتدافع عنها هجمات الصين؟ ^{٢٧٣}

^{٢٧٢} بران جراخ: ١٢١/٢.

^{٢٧٣} وكان الصين هاجمت الهند آنذاك.

وكان مطلعاً على الحركات المعادية للإسلام - القومية العربية وفتنة جمال عبد الناصر - والتزعات اللادينية التي كانت تحملها البلدان العربية ودول آسيا الوسطى. وكان له إلمام بالمقالات والرسائل التي ألقتها فكان يود أن أركز جهودني على هذا الجانب^{٢٧٤}.

وما يدل على مدى علاقته ووجهه الشيخ أبو الحسن النلوي أنه بعدما ألف كتابه الرائع "منهـب وسائـس" كتب في صفحته الأولى كلمات الإهداء إلى الذين أحسنوا إليه وكان منهم الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي الذي ختم به فهرس الإهداء بطريق جعله يتقدم كل أسمائه. وهو كما يلي:

"من فيوض والدي الكريم الطيب اليوناني عبد الخالق، والأستاذ الشفوق الخنون العلامة شبلي النعماني، والبروفيسور الشيخ عبد القادر، للمسؤول عن الخدمات المدنية، جامعة بمباي، والمحـب العظيم الشيخ حبيب الرحمن خان، صدر الصدور للمملكة الأصفية، ومرشدي وشيخي الشيخ الشهانوي المعروف بـ "حكيم الأمة" رحمهم الله تعالى رحمة واسعة، وأولا وآخرا الأخ أبي الحسن علي الحسيني النلوي سلمه الله. ولا يظن أن هذا الإهداء على غلاف الكتاب إهداء شكلي واسم بلا مسمى، لابل أريد به ذكر أولئك الذين ظلت مشاوراتهم ومقترحاتهم ومنهم باعثة على إعداد هذا الكتاب منذ خمسين سنة".

٢. الدكتور رضي الدين الصديقي:

الأيام التي قضاها الشيخ عبد الباري في الجامعة العثمانية بجميرآباد تعد من أيام عهدنا النحبي حيث اجتمع فيها عباقرة فنوهم ونوابغ علومهم فهلت الجامعة من منهلهم العذب الفياض، واتفتحت بمواهبهم وجلاراتهم، ومنهم الشيخ مناظر أحسن الكيلاني، والبروفيسور إليس

البرني، والدكتور خليفة عبد الحكيم^{٢٧٥}، والدكتور السيد عبد اللطيف، ثم لحق بهم الدكتور رضي الدين الصديقي الذي لم يزل يقطع مراحل التقدم والرقي، ولكن جهوده أثمرت بعد ما انتقل إلى باكستان حيث احتل مكانا مرموقا بعمله أستاذا في مختلف جامعات "إسلام آباد" و "بشاور" كما اشتغل نائب رئيس جامعة بشاور، وكان في عهد الشيخ عبد الباري طالبا بالجامعة العثمانية ثم لم يلبث أن عين بها أستاذا. يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندي: "وكان الدكتور مير ولي الدين، والدكتور حميد الله - نزلي باريس - والدكتور رضي الدين الصديقي، نائب رئيس جامعة بشاور سابقا طلبة الجامعة في ذلك العهد^{٢٧٦}."

وفيما كتب الدكتور رضي الدين الصديقي وهو يصور الجامعة العثمانية بيتها خلال طلبه العلم بما ورد ذكر اعترافه بالتلمذ على الشيخ مناظر أحسن الكيلاني، ومقابلاته واستفاداته من الشيخ عبد الباري الندي، فتوصل بذلك إلى أنه ظل من المستفيدين منه لا محالة، لا بل كان معترفا بفضل ونووغه أيضا، وإن لم يكن تلميذا له في الجامعة وفيما يلي قبسة من مقاله تسلط الضوء على ذلك:

"سعدنا بمصاحبة الشيخ عبد الباري في الجامعة عشرين سنة على الأقل. كان أستاذا بقسم الفلسفة. وأما أنا فكنيت أستاذا في قسم الرياضي. كان واسع الاطلاع على الفلسفتين القديمة والجديدة، بصيرا في علم الكلام كما كان يريد أن يعثر على أهم مبادئ العلوم، وما يترتب بها من نتائج، وما تلقي من أثر على الفلسفة وعلم الكلام. هنا، وكنت ألقى دروسا حول نظريتي "الإضافية" (Relativity) و "كوانتم" (Quantum) وغيرها من نظريات علم الرياضي. وما هو الأمر البين أن هاتين النظريتين ألفت كلتاهما أثرا بالغا على الفلسفة وعلم

^{٢٧٥} كلمة الدكتور خليفة عبد الحكيم شاعرا فلسفيا معروفا بعلمه وشعره. تشرف بحماسة العلامة إقبال الشاعر. يلاحظ "باد رفعتكان" (ذكرى الذاهبين) لماهر القادري ١/٤٦٧.

^{٢٧٦} براني جراغ: ٢/١٢٥.

الكلام. وفي هذا الصدد أثبتته مرات عديدة، وجرى بيننا الكلام حول هذا الموضوع ومثل هذه القضايا. وخلال هذين العقدين في الجامعة لم أشرف بالتلمذ عليه، ولكنني بالمكتبات التي جرت بيني وبينه علمت بأنه مشغول بتأليف كتاب حول العلاقات التي تتواجد بين الفلسفة وعلم الكلام والعلوم وما يترتب على ذلك من تأثيرات.

وقبل اليوم بشهور قال لي الشيخ عبد الباري النبوي في إحدى رسائله أن أكتب مقدمة كتابه، وكيف أجزؤ على هذا وإن شملني بألطافه منذ أول أمري. فهذا أنا إذا أكتب عدة سطور امتثالا لأمره:

"كنت مطالعا على دقة نظره في دراسة الحقائق التي تكشف عنها ازدواجية فلسفة الإسلام والعلوم، وحينما درست مسودة كتابه هذا أدركت سعة مطالعته وأدركت كيف جمع المواد القيمة في موضوعه بتفحص مقالات ومؤلفات العلماء والفلاسفة الكبار القلامي منهم والجلد وكيف استبطن نتائج صحيحة منها بعد تحليلها وشرحها ثم زينها بالدلائل. ويستطرد قائلا:

"ولما انتهت سيطرة المادية التي كان صرحها مؤسسا على أسس العلوم الطبيعية ونجا أوارها تمهد السبيل إلى الإيمان بالله تعالى لأولئك الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ويتدبرون في نظام الكون وحقيقته مصداقا للمثل الفارسي الذي يقول: "كن مسلما إذا لم تستطع أن تكون كافرا"، ويدفع المتأمل في الآفاق والأنفس الذي نعبّر عنه بالنهن الآفاقي إلى الإقرار بالوهيته. وقد سلط الشيخ عبد الباري النبوي الضوء على هذا الواقع في كتابه هذا بغاية من التفصيل، ووفر أسباب اليقين والنجاة في الدنيا والآخرة لأولئك الذين تنزل ببيان إيمانهم وتطرق إليه الخلل والضعف مندحشين مبهورين بالتقدم الباهر في مجال العلوم والتكنولوجيا. إن عمله هنا في الواقع من مآثره البارزة الجليلة بالإطراء والتقريظ التي أنجزها بجدد بليغ رغم تقدم سنه. جزاه الله أحسن الجزاء ^{٢٧٧}.

يترشح من خلال عبارته هذه أنه لم يكن متأثراً بالشيخ عبد الباري فحسب بل استفاد منه حق الاستفادة أيضاً طالبا وأستاذا بالجامعة العثمانية مشافهة ومكاتبه بعد، ولم يكن تلميذا له في الجامعة إلا أنه ظل متصلا به.

٣. الدكتور المحقق حميد الله - نزيل باريس :-

هي العبقريّة التي اعترف بها العالم كله في مجال العلم والتحقيق. ولد في شهر فبراير سنة ١٩٠٨م وتوفي في ديسمبر سنة ٢٠٠٢م. عمره الله طويلا، ولم يضيع من عمره شيئا. نال التعليم في الجامعة العثمانية بميدراآباد حيث كان الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من أخص أساتذته فلم ينس فضله قط وظل مدينا معترفا بما أسداه إليه من خير ومعروف لما أن للشيخ مناظر أحسن الكيلاني إسهاما بارزا في بناء شخصيته، وقلما نجد يأتي التاريخ بأمثاله ممن بلغوا تلك النروة التي بلغها هو. مجرد جهده للتواصل وعمله الدائم كما كان يشعر نفسه بذلك وله إسهامات مشكورة في نشر الدعوة الإسلامية بالفرنسية وغيرها من اللغات الأوروبية، فعرفوا بها الإسلام وتعاليمه السمحة الحنيفة وجعلوا يألّفونه وأخذ يدب في نفوسهم شيئا فشيئا، والشيخ حميد الله يرجع إليه الفضل في غرس حبه في قلوبهم دون إهمال لما لعبت المنظمات الإسلامية وجماعة الدعوة والتبليغ من دور قيادي في ذلك. وكان للدكتور حميد الله بصير نافذ في الفلسفة حيث درسها دراسة واعية وافية، وعني بدراسة علوم القرآن وخدمة علم الحديث. وكان للشيخ مناظر أحسن الكيلاني والشيخ عبد الباري النلوي إسهام كبير في إثارة جنوة العلم والدين في نفسه. وجراء ذلك ظل متصلا بهما طيلة حياته أينما كان، باللقاء تارة، وبالمكاتب تارة أخرى. وجلالة شأنه وعظيم منزلته في مجال العلم كان ينظر إليه الشيخ عبد الباري نظرة الإجلال والتقدير، ويعترف بمؤهلاته العلمية ونبوغه في شتى مجالات العلم، وكان يشيد بنظره الدقيق في الفلسفتين القديمة والجديدة ودراسته الواعية للعلوم. واستفاد من جدارته هذه عند تأليفه بعض الكتب وأرسل إليه بعض ماكتبه ليراجعه. يقول الشيخ عبد الباري النلوي في رسالة له

وجهها إلى الشيخ زكريا الكاندهلوي المعروف بـ "شيخ الحديث":

"إنني لا أعرف من العلوم الطبيعية شيئا وكنت راجيا أن أستعين فيها بأساتذة الكليات والجامعات، ولكن لم أجد أحدا في القارة الصغيرة كلها أتق بعلمه ويساعدني هو في عملي هنا. ولي صديق في باريس^{٢٧٨} أكرمه الله من العلم والعمل بتصيب أوفر، وهو متدين عامل بالشرعية. يجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة. إنه كلما قدم المهند ساعدني ما وسعه. والآن أرسل إليه يباريس مسودة باب العلوم من الكتاب"^{٢٧٩}. ويكتب في رسالة له إليه:

"تم الجزء الثاني من كتابي "تجديد كلاميات" (تجديد علم الكلام) وقد أرسلته إلى صديق لي بباريس"^{٢٨٠}.

تعرب هذه السطور عن مدى صلته بالشيخ عبد الباري. ولا يخفى أن العلاقة التي نشأت بينهما خلال طلبه العلم بالجامعة العثمانية لم يتطرق إليها الضعف قط. توفي الدكتور حميد الله سنة ٢٠٠٢م بباريس، وحدث من وفاته فراغ كبير في الأوساط العلمية.

٤. الدكتور مير ولي الدين الحيدرآبادي:

هو الفيلسفي التابع، الصوفي الجليل، المصنف البارِع، المعلم الحاذق. توفي في شهر ديسمبر عام ١٩٧٥م في حيدرآباد مسقط رأسه ومنبت أرومته، وكان نيفا على الثمانين من عمره. تلمذ على الشيخ عبد الباري في الفلسفة. وكان تلميذا صادقا للشيخ العارف محمد حسين الحيدرآبادي.

يقول سعادة الشيخ الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي مدير دار العلوم لنودة العلماء ومدير تحرير مجلة "البعث الإسلامي":

^{٢٧٨} المراد به الدكتور حميد الله .

^{٢٧٩} الرسالة مؤرخة — ٣ من ذي الحجة سنة ١٣٨٧هـ — المصادف ٣ من مارس سنة ١٩٦٨م.

^{٢٨٠} الرسالة مؤرخة — ٢ من ربيع الثاني سنة ١٣٨٨هـ — المصادف ٦ من يونيو سنة ١٩٦٨م.

"توفي الدكتور مير ولي الدين في ديسمبر الماضي بخير آباد فإننا لله وإنا إليه راجعون.
كان الدكتور من علماء الفلسفة أجديدة ورئيس الفلسفة الحديثة بالجامعة العثمانية
بخير آباد، وله كتابات ومؤلفات جيدة في هذا الموضوع، ونشر له في "البعث" مقالات عديدة،
وقد حدث من وفاته فراغ كبير في صف الكتاب والأساتذة الإسلاميين"^{٢٨١}.

ويقول الصحفي المحقق الشيخ ضياء الدين الإصلاحي (المتوفى سنة ٢٠٠٨م) مشيئا

به:

"موضوع الدكتور ولي الدين الفلسفة. وكان مع ذلك مؤمنا صالحا عارفا بالله
فحصمه الله من نتائجها الوخيمة وتأثيراتها السيئة حتى إن كتاباته في الفلسفة تجعل القارئ يلتذ
بجلاوة الإيمان ويتمتع يشاشتها. وميزته أنه يبين فلسفة القرآن قبل الخوض في علم الفلسفة حتى
في مؤلفاته التي كتبها حول الفلسفة.

ونفخت روعة أسلوب الدكتور ولي الدين روح الطراوة الشعرية للمتعة الأدبية في
موضوع الفلسفة الجاف. والتصوف عبارة عن الذوق والوجدان، ومن العسير التعبير عنهما
بأسلوب عقلي فلسفي، ولكنه يجعله سهلا ميسورا حتى لا يجد القارئ فيه أي غموض أو
صعوبة"^{٢٨٢}.

اجتمعت في نفس الدكتور ولي الدين خصائص أستاذه الشيخ عبد الباري النلوي إلى حد كبير.
فعمل أستاذا للفلسفة، وله فيها مؤلفات عديدة. ودرس القرآن الكريم والتصوف الإسلامي دراسة
واعية دقيقة، ولهما طابع في جميع مؤلفاته ونشر له أول كتاب أسماه "فلسفه كي بهلي كتاب" (أول
كتاب في الفلسفة) من مطبعة "المصنفين" أعظم جراه، ومن أهم إنتاجاته كتابه "مراقبات" أثبت فيه

^{٢٨١} مجلة "البعث الإسلامي" العدد: يناير - مارس سنة ١٩٧٦م.

^{٢٨٢} مجلة "معارف" الصادرة من أعظم جراه، في يناير سنة ١٩٧٦م.

أن "الإيمان القوي بالتعاليم الدينية والثقة بالإيمانيات والعقائد الإسلامية تضمن للإنسان الفلاح في الدنيا والآخرة عقدياً ونفسياً". وذكر ذلك الدكتور مير ولي الدين بغاية من التفصيل. كان متديناً عاملاً بأحكام الدين متمسكاً بما متصل بالله سبحانه اتصالاً قوياً مباشراً. وحالفه الدين في كل مرحلة من مراحل الحياة. وصدق من قال: إذا كان ذهنه متوراً بالفلسفة الحديثة فكان قلبه مستيراً بنور الإيمان. رحمه الله رحمة واسعة.

كتب الأديب الأريب والمؤرخ اللبيب السيد صباح الدين عبد الرحمن^{٢٨٣}، مدير مجلة "معارف" (أعظم جراه) في شذرها أثر وفاة الشيخ عبد الباري النلوي:

"وكان الشيخ عبد الباري النلوي من نوابغ أبناء ندوة العلماء التي تعتر بهم ومفخرتها التي لا تزال تجلج النفوس ذكرها. كان مصنفًا فلسفيًا مترجمًا. وبالإضافة إلى ذلك كان خبيرًا مثاليًا للدين". يصلق هذا الكلام ولو بشيء من التعديل على تلميذه النقيب الدكتور مير ولي الدين الحليز آبادي فإنه أحد أبناء ندوة العلماء حكماً^{٢٨٤} إن لم يكن حقيقة، وبأنه كان حديث عهد بالعلوم الإسلامية مثل شيخه فجعل يدرسها بعد التخصص في الفلسفة حتى بلغ فيها ذروة الكمال ثم درس القرآن الكريم بصر نافذ، وبصيرة تامة. بينما كان الشيخ عبد الباري برع في الدراسات الإسلامية أولاً ثم طالع الفلسفة القديمة والجديدة حتى نبغ فيها، وقام كلاهما بتبليد الشكوك والإلحاد بالفلسفة، وعطف عنان العقول الضالة نحو الطريق السوي ودعا الأذهان للتفلسفة إلى الإسلام الصحيح فاهتدت.

وذكره الشيخ عبد الباري النلوي ضمن تلامذته الذين استعان بهم في تأليف كتابه "منهج وسائس" وفي مقلمة كتابه للذكور أيضاً، ومهما يكن من اتلاف بين المواهب والخصائص فلا يمكن أن تكون نفسان واحدة، فطبعاً حدثت بينهما خلافات فتوترت العلاقات ثم تحسنت وأضحت كما كانت فعاد الوضع كما كان.

^{٢٨٣} الماحستير في الإنكليزية

^{٢٨٤} بوساطة الشيخ عبد الباري

الباب الثاني عشر اتجاهاته وآراؤه

من أهم واجبات الداعي أن يهتم بتجديد إيمان الجيل الناشئ ويحمل عاطفة للمواصلة والنصح للأمة بل الإنسانية كلها، ويكون جامعا بين لوعة مؤمن وهمة قائد، ويكون أهلا لقول كلمة حق والإصغاء إليها. ومنذ قدم شعر العلماء العظام والدعاة الربانيون بهذه الواجبات ولم يدخروا أي وسع في أدائها حق الأداء. وكلما حالت دونها عقبات فكروا في حلها أو إزالتها، ويمتاز الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني والشيخ السيد سليمان الندوي والشيخ عبد الباري الندوي والشيخ عبد الماجد الدرابادي عن سائر علماء القرآن في الرابع عشر المحجري بأنهم جمعوا إلى التخصص في العلوم الدينية دراسة العلوم التي كانت تؤثر في الجيل الجديد نظرا إلى متطلبات العصر الراهن واستعرضوا تأثيرات الحضارة الغربية الفتاكة وتوصلوا بعد تفكير طويل دائم إلى اتخاذ خطوات جادة نحو إصلاح الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ليتخلص هؤلاء المثقفون من برائن الردة التي تساب نحوهم وتذب عن طريق التعليم الجديد والحضارة الحديثة. إنشاء الأروقة الإسلامية حاجة الساعة:

وبما أن العلماء المذكورين ظلوا متصلين بالطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، ويعاشرونها ويستعرضون آرائها واتجاهاتها، وميولها ونظرياتها، فأضحوا بذلك مطلعين على مساوئها ومعايها وكان مايتصنر أبرز أولويات هؤلاء العلماء التوعية الإسلامية لأبناء الطبقة المثقفة ولا

سيما شبابنا الذين حادوا عن جادة الدين وابتعدوا عن تعاليمه السمحة وتورطوا في وحل الحضارة الحديثة، فكان لابد من توعيتهم الإسلامية ليعودوا إلى الجادة المستقيمة ولتجدد نفوسهم بتعاليم الإسلام ومبادئه، فحلا لهذه المشكلة التي واجهها هؤلاء العلماء اقترحوا أولاً إنشاء الأروقة الإسلامية في شتى الأماكن. وأول من اقترحها الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وأيده الشيخ عبد الباري النلوي تأييداً قويا، وبعلمنا قام الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني النلوي بجولات في الدول الأوروبية شاهداً بعين التأمل البصير، ولفت انتباه المسلمين إلى هذا المقترح بكتاباته وخطاباته، ومحاضراته ولقائاته. وإليكم خلفية اقتراح الشيخ مناظر أحسن الكيلاني وتأييده من قبل الشيخ عبد الباري النلوي ذكرها صاحب "حيات كيلاني" مع تعليق عليها:

"وكانوا مطلعين على ميول الشبان الذين كانوا يدرسون في شتى جامعات الهند ومعالجتها التعليمية، ويعرفون ما يبور بخلدكم من أفكار وخواطر، ومدى ابتعادكم عن التعليم الديني علماً وعملاً، وإلى أي مدى يذهب بهم السيل الجارف. فاقترح الشيخ مناظر أحسن الكيلاني على العلماء إنشاء الأروقة الإسلامية يقيم فيها طلبة المدارس العصرية والكليات والجامعات، ويوفر لهم فيها الطعام في أرخص سعر. ولابد من أن تكون نظيفة أنيقة مريحة للغاية، وذلك لتستشتم طبقاً للمنهج الإسلامي السديد، وتتوفر لهم فيها التربية الدينية علماً وعملاً، ويتبها لواقعية الدين الإسلامي"^{٢٨٥}.

وإليكم قبسة مما كتبه الشيخ عبد الباري النلوي شرحاً لما سبق:

"ولابد من تركيز الجهود الفردية والجماعية على إنشاء أروقة إسلامية صغيرة وكبيرة، في أرخص سعر، يوفر فيها التعليم الديني قدر الضرورة، والتربية الدينية بأحسن طريق، وهماً لهم صحة الأفراد الذين كانوا نماذجاً صالحة للإيمان والعمل الصالح يخالطوهم ويخالسوهم ويؤاكلوهم مع صحبة المشرفين عليهم. وبمجرد التحدث معهم يعرفون ميولهم، ولا يدرسون"

^{٢٨٥} "حيات كيلاني" للمفتي ظفر الدين، المفتي بدار العلوم ديوبند، ص: ١٩٢.

الكتب الدينية دراسة يملون بها إلا أنه لابد لهم من المحافظة على الصلاة والصوم، ولابد من التركيز على إصلاح أخلاقهم ومعاملاتهم، وتعد محالسا بعد صلاة الفجر يتعلمون فيها ترجمة القرآن الكريم وتفسيره إلى نصف ساعة، وتعد لهم مجموعة من الأحاديث المختارة المشتملة على الإيمانيات، والأعمال الصالحة، وحقوق العباد، والأخلاق، والتصرفات، والمعاشرة ومجموعة من المسائل الفقهية اللازمة^{٢٨٦}.

انطباع وتأيد الشيخ الدرريبادي:

هذه الوجهة - وقد أسلفنا ذكرها - التي وضعت خطة لتوعية وتربية أبناء المسلمين الذي يتفقون بالثقافة الحديثة، وعرضت حلا عظيما لإتقاذهم من الشراكيات والاحتفاظ بإيمانهم وعقائدهم تمت بيد الشيخ مناظر أحسن الكيلاني أولى مراحلها بأن قد أوجدها واقترحها على العلماء، وظهرت مرحلتها الثانية بيد الشيخ عبد الباري الندوي حيث أيلدها وشرحها، وتمت مرحلتها الثالثة بيد الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي فإنه أذاع صيتها على المستوى العالمي. وإليكم ماكتب عن ذلك الشيخ الدرريبادي في مجلة "صدق" (مع الشكر لصاحب كتاب "حيات كيلاني"):

"وبعد ما رجعت شيخنا "علي ميان"^{٢٨٧} من رحلة أوروبا جاء حاملا هذه الرسالة أن الطلبة المسلمين الذين يتعلمون في إنكلترا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا، أرى أن خير طريق لإصلاحهم والاحتفاظ بتشخصهم ما اقترحه الشيخ الكيلاني لأهل الهند وأيده الشيخ عبد الباري الندوي الذي هو حامل لوائه اليوم، وأعني بهذا الطريق إنشاء أروقة للطلبة وتعيين المشرفين والمرين فيها^{٢٨٨}.

^{٢٨٦} حيات كيلاني، نقلا عن مقدمة "مكاتب كيلاني" ص: ٦١.

^{٢٨٧} الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي

^{٢٨٨} حيات كيلاني، نقلا عن مجلة "صدق جديد" العدد: ٢٧ من يناير سنة ١٩٦٤م.

دعوة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي:

حق ما ذكر الشيخ الديربادي من مجهودات هؤلاء الثلاث - مناظر أحسن الكيلاني وعبد الباري الندوي وأبي الحسن علي الحسيني الندوي - لنشر ودعم هذه الفكرة. ومن ليسور إدراك مدى الاهتمام الذي أولاه الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي من خلال ما كتب داعيا إلى ذلك:

"أكبر فن الساعة في العالم الإسلامي النفاق والعقلية المعادية للإسلام التي ألقت الدول الإسلامية كلها على محجة الإلحاد والزنقة، وجعلتها تحمل لواء الثورة ضد الإسلام، وتفرسها الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بصيرته في الدين فاقترح تأسيس الأروقة الإسلامية حلا علميا ملائما للأوضاع الراهنة في الهند"^{٢٨٩}.

ودعا إليها الإمام الندوي في كتابه الرائع "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" على النطاق الدولي:

"وليس من المعقول التغافل عن مشكلة الجيل الإسلامي الجديد. وما لم يطبق للمشروع المذكور تحل المشكلة بإنشاء أروقة إسلامية يسكن فيها الطلبة المسلمون الذين يدرسون في الكليات والجامعات العصرية، وينفذ فيها نظام التربية الدينية والتوعية الإسلامية، وتوفر فيها بيئة صالحة إسلامية تجمع بين التغذية الروحية والفكرية الصالحة. ولا يجهد ذلك أصحاب الخبرة في هذا المجال. إن الكليات أو المدارس العصرية الإسلامية التي يندل عليها قنر وافر من الثروة والجهود فقدت قيمتها وأهميتها بما قد دخل الأوضاع من تغيرات، وإن ما يتوخى من خلال إنشائها من نتائج حسنة وفوائد لا يظهر إلا بقدر أقل، وأما إنشاء الأروقة الإسلامية فإنه يتطلب سعيا ضئيلا ويثمر أضعاف ما يندل من مجهودات له حتى إن المناطق أو البلدان التي لا يملك فيها

أصحاب الفكرة الصحيحة والنصح للمسلمين من زعمائهم زمام منهج التعليم ولا يرجى أن يملكوه في المستقبل فإن هذه الأروقة الإسلامية يمكن أن تزود الاحتفاظ بأخلاق الشبان المسلمين للتعليم فيها، وتضع نظاما لتربيتهم الدينية الفكرية، وتصوهم من مفسد البيئة الفاسدة ومنهج التعليم الذي يريد أن يشوه صورة التعليم الإسلامية، وتقذهم من برائن مراكز التعليم التي تسمم أخلاقهم وسلوكياتهم.

وهذه الأروقة الإسلامية حاجة الدول الغربية مثل البلدان الإسلامية اليوم، حيث يتعلم عدد وجيه من الشبان المسلمين الذين هم أمل الأمة وحجر الزاوية في صرحها فطنة وقوة، وذكاء وجسارة، والذين من المقرر لهم قيادة البلدان الإسلامية أو احتلال مناصبها الرئيسية لسعة اطلاعهم على العلوم واللغات والسياسة الغربية، فلو تم فيها إصلاح نفوسهم وأفكارهم، وتيقظ فيهم الوعي الإسلامي، وجدنا نعتهم بالإسلام لحدثت بذلك ثورة في البلدان الإسلامية التي سيملك زمامها ويتقلد مناصبها هؤلاء الشبان المسلمون. وإن هنا أسهل الطرق التي تستغل في تلك البلدان منذ زمن طويل وأكثرها أمنا وسلامة، والشيخ مناظر أحسن الكيلاني أول من اقترح هذه الفكرة ونهض لها ثم دعا إليها وأيدها الشيخ عبد الباري الندوي الذي لم يزل يكتب مقالات حول هذه الفكرة ويسترعي انتباه أهل النصح واللواصاة من المسلمين^{٢٩٠}.

أعظم مشكلة يواجهها مسلمو الهند:

وتقدم بين يديكم موقف الشيخ عبد الباري الندوي من الفكرة المذكورة أعلاه مقتبس من كتابه "قرآن كا دو آياتي نظام صلاح واصلاح" (نظام الصلاح والإصلاح في ضوء آيتين من القرآن الكريم):

"أعظم مشكلة يواجهها مسلمو الهند تجاه دينهم، وأكبر خطر يحدق بأجيالهم القادمة

^{٢٩٠} الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص: ٢٥٤-٢٥٥. (تقلا عن ترجمته بالأردية)

هو تعليم أبنائهم البدائي المكره. ولو استمر ذلك لم يبق للإسلام في نفوسهم عين وأثر - أعاذنا الله من ذلك - ونبات أساطين جمعية العلماء بهذا الخطر إثر قسمة البلاد، واسترعت الانتباه على النطاق الشعبي في مقال المعنون "الحل القنتم لمشكلة جديدة يواجهها المسلمون" إلى أن يهتموا بذلك أولا في هذه الأوضاع العصيبة الحرجة، فتهبت للنك جمعية العلماء أول ماتبهت ولو بشيء من التأخير ثم تهبته حركة التعليم الديني في ولاية أتراراديش بطريق منظم محكم، ولكن الخطوات والإستراتيجيات التي تتخذها الحركان تهدف إلى إقصاء الأزمنة مؤقتا لا إلى اجتياحها على كل، فإن درأها بأي طريق كان أهم وأولى من كل شيء.

والله ندعو أن تدرئ أزمة الساعة ولو بصفة مؤقتة، وأما اجتياحها فحله الوحيد أن تركز جمعية العلماء أو عصابة أخرى من العلماء جهودها على هذا العمل الذي هو جزء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - الواجب الذي يقع على كواهلهم كائرا عن كابر حتى يتهي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: "كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" - ولو أدينا هذا الواجب، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجب تبليغ رسالة الإسلام إلى جميع أنحاء العالم، ولو أدينا هذا الواجب حق أدائه لكانت الأسر المسلمة متمسكة بالدين وتعاليمه ولو تقلينا لآبائهم بلون احتياج إلى أي كتاب أو مدرسة، ولم يمكن أعداء الإسلام أن يكرهوا على التعليم اللاديني أجيال المسلمين القادمة على اعتناق ديانتهم، وتوصلنا من غير جزع إلى حل دائم ملائم لمشكلة التعليم اللاديني بالإكراه - وهو في الأصل تعليم الإلحاد والشرك -، وأما مايتخذ من استراتيجيات لدرء الأزمنة مؤقتا من أن الحكومة إذا ألحت على التعليم الإلحادي بالإكراه - الذي ينافي التوحيد - فلا بد للمسلمين من إنشاء ملايين الكتايب والمدارس يتعلم فيها أبناء المسلمين تعاليم الدين لساعة أو ساعتين كل يوم، بالإضافة إلى مايتعلمون في المدارس الحكومية للمؤسسة على الإلحاد والشرك فإنني أرى أنه لا يلزم أن نكون قد نجحنا بذلك نجاحا يولم أثره، ونحقق غايتنا التي نتوخاها من خلال إنشائها،

وأن ترسيخ الإيمان والعمل الصالح لا ينشأ بمجرد تدريس كتب في الكليات والمدارس وإنما يرسخ الإيمان في البيئة العائلية الاجتماعية.

وبما أنه لم يبق التعامل والتوارث الديني في الأسر المسلمة جعل عامة المسلمين ينظرون إلى الدين نظرة ازدراء، ويحطون من قيمته فمن الصعب الحصول على التبرعات لإنشاء مثل هذه الكليات بقلر وافر، وكان لا يتأكد بأنهم يعثون أبناءهم إليها راضين طائعين. ويندر أن نجد من العلماء والمتقنين المسلمين فضلا عن عامتهم من يهتمون بتحلية أبنائهم بالتعليم الديني، زاهدين غير مبالين بالترغيبات والأرباح المادية التي يتوخونها من خلال التعليم المادي العصري أو سالكين مسلك القصد والاتزان بين التعليم العصري والتعليم الديني فإن الناس لا يهتمون إلا بالأشياء التي ينظرون إليها نظرة تعظيم، وأما هذه الخطوات والإستراتيجيات المؤقتة فلا تستطيع إلا أن تدرأ الأزمة بصفة مؤقتة لا أن تجتثها من فوق الأرض فما لها من قرار.

المسلمون في باكستان:

شعورا بالمخاطر والمخاوف التي كانت تحف بالمسلمين الباكستانيين من كل جانب وصف الشيخ النووي حلا لتعلمهم في المستقبل:

"وكرثة باكستان أن أهلها المسلمين قطعوا صلتهم بالدين علما وعملا، وانفصلوا عنه توارثا وتعاملا وتقليدا. فلما تحرروا من احتلال الإنجليز وقعوا في الفسق والفسجور، وتعاطوا الرشا والربا، وارتكبوا الفواحش، وخنأوا، وجعلوا المادية نصب عيونهم من غير خوف لومة لائم كما صنع أهل الهند. والعجب كل العجب أن علماءها لا يزالون يركزون جهودهم على تشريع القوانين، ووضع الدساتير، وغير ذلك من القضايا المؤقتة حال أن مسؤوليتهم الرئيسية هي الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وضغت على إبالة أنهم باؤوا بالخفية، وفشلت جهودهم كلها في مجال التشريع أيضا حيث لم تتم شيئا. والسبب في ذلك يرجع إلى تركيزهم على القضايا والمشاكل المؤقتة بدلا من المشكلة الرئيسية العظمى. الأمر الذي يدفعنا إلى التفكير

أن الدولة الإسلامية التي أنشئت على أسس هتافات الإسلام يطالب فيها المسلمون بالشرع الإسلامي، وتنفيذ القانون الإسلامي، وتطبيقه على المستوى الحكومي كما طوب الأجنب بتحرير بلادنا، وأعجب من ذلك أن المسلمين هم الذين يعرقلون في سبيل المطالبين ويرهقونهم. الحق أننا قد نسينا أو تناسينا جميع مقتضيات الإيمان، وموجباته، ومقوماته سوى المطالبة بأننا مسلمون → اسما بلا مسمى - وكلما تقوهت ألسنا بكلمة الحكومة الإسلامية عنت بما أذهانا أن نستمتع بملذات الحكومة والاستبداد، وتلذذ بما دون أن يشر كنا في ذلك أحد - وذلك لا يتيسر إلا بعد تشتيت شمل الدولة وتقطيعها مثل تفريق العصا - وإذا سرحنا نظرة على المسلمين من أي بلد كانوا، وأينما سكنوا واستقروا، في الهند، أو باكستان، أو النول العربية، أو غيرها وجدنا أنهم نسوا الحياة الإسلامية القائمة على صرح الإيمان والعمل الصالح، وبنوها وراعهم ظهريا، وتخلوا عنها في كافة مجالات الحياة ولو ادعوا بالستهم أنهم مسلمون. والحل الوحيد لمثل هذه المشاكل التي تنشق عن نسيان النفس بث أساليب التذكير المنصوصة وطرقه المأثورة على النطاق اللولي الشامل وتوعية المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبما أن طائفة العلماء التي أقيت على كواهلها هذه المسئولية، مسئولية الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم تشمر عن ساق الجلد وتشد مئزرها لأدائها وتبلغها إلى العالم كله ونشرها من أقصى الأرض إلى أقصاها، ومن جنوبها إلى شمالها، ومن شرقها إلى غربها، وما لم تهض وتيقظ له ذهب جهودهم سدى، وابعوا بالفشل، ولم ينفعهم شيء. ومثله كمثل رجل يسقي غصون الشجرة وأفنانها ويترك أصولها تجف، ويتمنى في نفسه الأمانى ويحلم بأنها ستثمر عن قليل. لابل هي أحلام يقظة لن تتحقق إلا أن يشاء الله^{٢٩١}.

ثناء وانتقاد على الأحزاب السياسية والحركات الدينية والدعوية:

هناك أحزاب وحركات دينية وسياسية لعبت دورا بارزا قياديا في دعم الدين والأمة، والدعوة إلى الله ورسوله فأثمرت جهودها حيناً، وفشلت حيناً آخر ثم اعترها الجمود، وخذت عاطفتها فأسفر ذلك الجمود عن نقائص ومساوئ في المجتمع المسلم. وما اقترح عليها الشيخ عبد الباري في هذا الصدد يدل واضحا على كونه مفكرا مصلحا، وفيما يلي قبسات من كتابه "نظام صلاح واصلاح":

جمعية العلماء:

"جمعية العلماء أقدم من سائر الحركات الدينية في شبه القارة - الهند وباكستان - التي تقوم بالنشاطات والخدمات الدينية في ضوء الخطة التي وضعتها. ظهرت حركة "جمعية العلماء" أولا على الجبهة الساسية ولكن مع الاتجاه الديني، وقامت ضد الحكومة الإنكليزية، وظلت حزبا سياسيا إلى أن حدث انقسام المهند. واهتمت الجمعية في الأوضاع الراهنة بالقيام بالخدمات الدينية، وغيرها من نشاطات دنيوية، وغير سياسية، ومؤقتة مثل مشكلة التعليم الابتدائي بالإكراه أو قضية الأملاك المخلفة، وذلك عن طريق تأييد الحكومة، وكانت خدماتها كلها في سبيل مصالح المسلمين، ولاسيما حل مشكلة التعليم التي تؤثر في عقائد أجيال المسلمين القادمة، فإنه اندرأت محلها فتنة عظيمة تهدد بتشخص المسلمين، ولكنها في الواقع خدمة مؤقتة. إن من أسباب تأزم هذه الفتنة وثورتها إهمال العلماء واجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فعليهم أن يملكوا زمام هذا الواجب، ويؤدوه حق أدائه، وإذا فعلوا ذلك لم تحدث المشاكل المؤقتة، وإن حدثت كان من الميسور حلها، وسلمت الأمة من فتن العصر أو ما شق عليها التخلص من برائته على الأقل متربية تحت إشراف العلماء، وكيف لا فإن جميع مناحي حياة المسلمين من السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والمعاشرة خاضعة للدين تماما، وإذا صلح الدين صلحت وصحت فإن صحة المتبوع تستلزم صحة التابع، وإن تطرق إليها الخلل أو الفساد المؤقت لم يكن من الصعب إصلاحه ودروؤه.

الجماعة الإسلامية:

الجماعة الإسلامية ناشئة بالنسبة إلى جمعية العلماء. ظهرت كالأولى على الجبهة السياسية، وقامت بالدعوة إلى إنشاء الحكومة الإسلامية - أو الإلهية - ضد نظريات ونظم الحكومة التي لا تتفق مع طبيعة الإسلام.

ووجهتها التي - كانت ولا تزال حتى الآن إلى حد كبير - إثارة الثورة السياسية، وإنشاء الحكومة الإسلامية لإصلاح المسلمين من كل ناحية، وما لم تكن الحكومة الإسلامية لم يكن للمسلم مسلماً، ولم يمكن حل مشاكلهم الدينية والدينية التي يواجهونها فينة لأخرى، والحق أن وجهتها هذه عبارة عن قلب منطق التعليم والتاريخ النبويين بأن انقلبت المقدمات نتائج، والنتائج مقدمات فإن أولى مسؤوليات الأنبياء وورثتهم بناء مجتمع مؤمن صالح أو حياة إيمانية صالحة. أما الحكومة الإلهية أو الدينية فهي في الواقع فضل من الله وجزاء موعود منه مشروط بالإيمان والعمل الصالح كما تصرح الآية الكريمة: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض"^{٢٩٢}، أعني أن الذين يبنون صرح حياتهم على أسس الإيمان والعمل الصالح، ويؤدونها حق أدائهما ينتحهم الله للخلافة الإسلامية إلا أن هذا المنطق المقلوب للجماعة الإسلامية أثمر ولو بصفة مؤقتة بأن المتقنين الذين لا يتوخون من خلال التعليم والتربية إلا متاع الدنيا وجاهدوا - والحكومة تحملهما في طيها معا - مال كثير منهم إلى الدين منصرفين عن الدنيا، ولا بأس إذا ضل الإنسان الطريق ثم اهتدى، وأخذت الجماعة الإسلامية - كما أظن - تشعر أيضاً بأنها تسير على المنطق المقلوب فأبدلت كلمة "إقامة الدين" بـ "الحكومة الإلهية"، ولاسيما فرعها الذي يعمل في الهند فإنه يؤدي - بحمد الله - حق هذه الكلمة، وكلمة "إقامة الدين"، ويشين فرعي الجماعة الإسلامية - أي الفرع الذي يعمل في الهند، والفرع الثاني

الذي يعمل في باكستان - عيب واحد، وهو أن تفقههم - صغارا كانوا أو كبارا - في الدين مستبطن من الكتب وحدها بدلا من تلقين العلماء والشيوخ، وتزكيتهم، فيؤول ذلك إلى أن أبناءها يورطون في الإفراط والتفريط خطابة وكتابة، ومثلهم كمثل رجل يقرأ كتب الطب ثم يفتح مستوصفا، ويصف للناس الدواء وهو لا يعلم عن الوصف والتشخيص شيئا إذ لم يتلمذ على طبيب حاذق يطلعه على طبائع الأدوية، ويعلمه كيف يوصف الدواء، وذلك هو أصل الأدوية، وأم الأمراض الذي يتواجد في أفرادها.

والحق أن ذلك أيضا من واجبات "العلماء الراسخين" بالاطلاع على الأوضاع والأفكار السياسية، ومعرفة معانيها ومحاسنها، وبما أنهم لم يشعروا بحاجة الساعة، ولم يتبها لها، وتخلوا عن مناصبهم خلفهم غيرهم سدا للفراغ، وإرضاء للحاجة، وتولية للنساء عملا بمتطلبات العصر فبعثهم الناس، وخضعوا لهم فإن الحاجة تنال بغيتها لا محالة فليحكم الذين يتقلدون على تقصيرات العلماء وتفريطاتهم: أيهم مخطف؟ وأيهم مسئول عن التخلف والتخلي عن المسؤولية؟ وهل يمكن تشارك مافات، وجبر ما انكسر بفتاوى التفكير ورسائل الرد والانقياد؟^{٢٩٣}

جماعة الدعوة والتبليغ:

لا أعالي إذا قلت إن جماعة الدعوة والإصلاح التي أسسها الشيخ محمد إلياس رحمه الله هي أقرب جماعات المسلمين سلوكا على مسلك النبوة ومنهاج الأنبياء القويم الصحيح. ونالت بحسن حظها علماء شابة أعمارهم، فنية عزائمهم لم يستبطنوا الفقه في الدين من الكتب فحسب، وإنما أخذوه أيضا من ملازماتهم صحبة الشيخ إلياس رحمه الله وأمثاله من العلماء الراسخين في العلم. هنا، وقد قطعوا صلتهم عن الحكومة والسياسة، وبنلوا نفوسهم ونفقاتهم في سبيل الدعوة إلى الله، وإصلاح المسلمين عن طريق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما

لم يغفوا أنفسهم عن إصلاحها وترتيبها، ولذلك ظلوا سالين من الاجتهاد والتجدد والاستيلاء بالرأي، والفنان التي تشرق شمل الأمة المسلمة رغم أنهم لم يتخلفوا عن الجماعة الإسلامية ذكاء وفضانة، وكتابة وخطابة، واطلاعا على الاتجاهات والعلوم الجديدة، وخبرة في الأوضاع الراهنة. وأعظم ما ينقصها أن أصحابها ركزوا على إحياء الإيمان وترسيخه وتجليده، وأما جانب العمل الصالح فلم يهتموا منه إلا بالصلاة والصوم حتى ظن كثير من الناس أنها حركة الصلاة والصوم فحسب. وأهلوا جانباً من الدين وأغفلوا أهم نواحي الشريعة وهي التي يقوم عليها صرح الحياة الإسلامية من الاتصال بين العبد وخالقه، والحقوق والمعاملات، والتصرفات والسلوكيات، والأخلاق والمعايشة. لم تول الجماعة كل ذلك العناية اللائقة به، وبدونها يصبح الإيمان ناقصاً غير كامل، أو بمنزلة الجثة الهامدة التي لا روح فيها، أو الشجرة التي لا أصل لها. إن الإيمان والعمل الصالح جزءان لا ينفك بعضهما عن بعض، ويستمد كل واحد منهما حيويته ونشاطه، ونضارته وطروته، وقوته واستقامته من الآخر فإنهما بمنزلة الجسد والروح، وكمال كل واحد منهما منوط بالآخر فلا تستكمل روح الإيمان إلا بالعمل الصالح، ولا رسوخ ولا إخلاص في الإيمان ما لم يظهر بالعمل الصالح.

حركة دعوة الحق:

وضع الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله نظاماً دعويًا جامعاً سماه "دعوة الحق"، مركزاً على النهي عن المنكر مع الأمر بالمعروف فظل المتصلون به وخطافؤه يقومون بخدماتهم تحت لواء هذه الحركة، عاكفين عليها، جادين فيها ولكن من غير تشهير ولا ضجيج. ومن اقتنع بعمله الشيخ عبد الباري الندوي أكثر منه بعمل غيره من خلفائه والمتصلين به هو الشيخ أربار الحق للعرف بـ "محي السنة". وإليكم انطباع الشيخ عبد الباري الندوي - وهو نفسه من أجداء خلفاء التهانوي رحمه الله - عنه:

"ورأيت ميزة جمع العمل إلى العلم في حركة خاملة بالنسبة إلى الحركات الدعوية

الأخرى، وأعني بذلك حركة الشيخ أبرار الحق - أشرف المدارس، هردوى، اترايراديش - والحق أنه نفسه مدرسة متجولة في ذاته حيث يركز على العمل أكثر منه على العلم، ويراقب غيره فهو يعمل بتعاليم الإسلام وسنن النبي صلى الله عليه وسلم كاملا أم ناقصا، ويركز على أن يكون كل فرد من أفراد مدرسته أستاذا كان أو طالبا، موظفا كان أو خادما، متصفا بما ينبغي أن يتصف به واحد من أبناء مدرسة دينية صورة وسيرة، وعملا وخطقا، وأسوة يتأسى بها في سائر نواحي الحياة، وأعظم داء نراه اليوم في المدارس الدينية أن أساتذتها وطلابها فضلا عن أعضاء إدارتها لا يهتمون بأعمالهم وأخلاقهم ولا يبالون بما شيئا. وعضضت بالبنان دهشة حينما اطلمت أخيرا على أن أستاذا في مدرسة كبيرة معروفة يقن تلاميذه الخيانة وتعاطي الرشا، وما هو أعجب من ذلك أن المسؤولين عن تلك المدرسة مطلعون كل الاطلاع على عمله هنا منذ فترة طويلة، ولكنهم لا يتخلون أي خطوة ضده، وإنما فسحوا له مكانا يتزل منه في المدرسة على الرحب والرضا. وأما ما يستهان به من معائب عملية أو نقائص خلقية فإنها يقننها أساتذة المدارس والمسؤولون عنها وأعضاؤها عملا وسلوكا - إن لم يكن قولا - ولا تسمح "أشرف المدارس" لأولئك الذين ليسوا بصلحاء قولا وعملا، ولا يعلنون أنفسهم لإصلاحها بالتعليم أو التدريس أو بأي نوع من الاتصال بها.

الشيخ أبرار الحق حركة دعوية إصلاحية في ذاته يصحح أن يطلق عليها اسم "دعوة الحق"، ومن أنحص ميزات هذه الحركة أيضا الدعوة إلى ترسيخ الإيمان والعمل الصالح، والتركيز على نواحيها، ولا تهتم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في ضوء المنهج القرآني الذي أسلفنا ذكره إلا أن شيخنا الحقى يلفت إليهما الانتباه في خطبه ومواعظه. وما ينقص حركة "دعوة الحق" أنها لا تولي شيئا من عنايتها إلى بناء مجتمع يمثل الحياة الصالحة الإسلامية النموذجية. ونقيصتها الأخرى أن أصحابها عزل ليس عندهم سلاح ولا وسيلة من الأسلحة والوسائل العصرية حتى الإمكانيات والأجهزة التي لا بد منها لبث الدعوة على نطاق أوسع، ولا للمعلومات

العصرية والعلوم الحديثة والخطابة والكتابة في الأسلوب الذي يتفق وطبيعة العصر الراهن، والكتب والمجلات والصحف فأسفر ذلك عن أن بطؤ سيرها، ولم تستطع أن تنشر رسالتها نشرًا موسعًا فانكمش بحال نشاطها إلا أن لها أثرًا عميقًا فكل من ينضم إليها أو يدين منها تتجلى الشخصية الإسلامية من كل يمارسه من الأعمال، من الصلاة والصوم، وما يقوم به من التصرفات والمعاملات، ومن أخلاقه وسلوكياته ومعاشرته. والواقع أنه إذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا صلح الباطن صلح الظاهر لامحالة. ولما أن للمسلمين قدم عهدهم بالجمع بين الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فالاهتمام بهما، والدعوة إليهما معا على نطاق أوسع يتطلب زمانًا طويلاً وسعيًا بليغاً^{٢٩٤}.

حاجة الاهتمام بمتطلبات العصر الراهن:

ويرى الشيخ عبد الباري أن إهمال متطلبات العصر أكبر ما يتقص الداعي إلى الله. إنه يشعر العلماء بمسئوليتهم، ويوقظهم تجاه واجبهم هنا بقوله: "أقول مراراً: إن الحل الوحيد لإصلاح الأمة درء ما تطرق إليها من خلل وفساد، وأن يقوم العلماء - وهم رعاة الأمة - بواجبهم التي تقع عليهم من خلال هذه الرعاية والتعهد، ويؤدوها كما أمر القرآن الكريم بأدائها:

١. دعوة الناس إلى الخير: والظاهر أن المراد بذلك الدعوة إلى الخير الكامل، أو العمل بجميع أحكام الدين الكامل التي تتعلق بالحياة الإيمانية الصالحة من العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والمعايشة.
٢. الإشراف عليهم يعملون بهذه الأحكام أم لا يعملون، وبثنا بين أظهرهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومهما قوي

^{٢٩٤} نظام صلاح واصلاح للشيخ عبد الباري الندوي.

هذان الجانبان - أي الدعوة إلى الخير مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وتأسس عليهما صرح إصلاح الدين، فبقدر قوتكما رسوخ المسلم في إيمانه وعمله وشق بقدره على ذئاب الدين في جلود الضأن من القاديانيين والبروزيين اصطياد المؤمنين الراسخين إيماناً وعملاً، وصار من الصعب إضلال أبناء هؤلاء المؤمنين الراسخين المتربين في أحضانهم، عن طريق التعليم بالإكراه، ولا تؤثر فيهم بيعة المدارس العصرية كما نرى أبناء اليوم إلا أنه لا بد من إبعادهم عن المدارس العصرية الحكومية، وستكون حياتهم الإسلامية المثالية الحية أكثر نفعاً وتأثيراً من المواعظ أو الدعوة الخطابية أو الكتائية لغير المسلمين والأجانب، بل تكون حياتهم هي التي تمثل الإسلام وتبلغه إليهم من غير كتابة أو خطابة فرب عيان أعظم من قول، ولكنه لا بد من مراعاة متطلبات العصر الجديدة للنهوض بالدعوة إلى الخير مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وذلك لتكون قد أدينا واجبات التجديد ومقتضياته، ونسلم من متهات إفراطات التجديد وتفريطاته^{٢٩٥}.

الحاجة إلى تدوين منهج الدعوة والإصلاح:

هذه فكرة قلما تخطر ببال المفكرين والمصلحين والعلماء الراسخين، وإليكم قبسة من

كتابات الشيخ عبد الباري الندوي في هذا الصدد:

"إذا كان أئمة الإسلام قد استبطنوا الجزئيات من الكليات في كافة نواحي تعليم الدين، ورتبوها عليها في ضوء تفقهمهم في الكتاب والسنة، وبصيرتهم في الدين، وفراسطهم الإيمانية، وورعهم وعفافهم فإنهم دونوا كذلك مبادئ الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بغاية من الجهد والجهد فلم يبق لنا إلا أن نصوغها في بوتقة الأوضاع العصرية

^{٢٩٥} نظام صلاح وإصلاح للشيخ عبد الباري.

والمقتضيات الراهنة، ولا سيما الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلا بد من تجليد منجهما، ونشرهما بالحكمة والموعظة الحسنة، والبصيرة والفراسة فإن علماء الأمة فضلا عن عامة المسلمين قد نسوا أو تناسوا مبادئهما وآدابهما، وقل من يقومون بأداء هذا الواجب في عشيرتهم وجمتمعهم، وإذا تقدم أحد لأدائه صابر مثل عكاز العميان الذي يقع على كل رطب ويابس، وعلى كل شيء مما طاب وخبث، أو لان ويس، وسار كأنه يمشي في ظلمات بعضها فوق بعض حتى إذا أخرج يده لم يكده يراها، أو كأنه حاطب ليل أو غائص سيل، ويخط خطب عشواء، ويركب متن عمياء، والإسلام ميزته العظمى الاتزان والوسطية، وجميع أحكامه تتصف بهذه الميزة، ميزة الوسطية والاتزان، وقد بسط صاحب "إحياء العلوم" الكلام في حلود وقيود الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هذه، وأسهب القول في مبادئهما وآدابهما، فلم يبق لنا إلا أن نكيفها حسب الأوضاع الراهنة.

وأصل الأصول في هذا الباب - الأمر والنهي - واحد لا بد من الإرشاد إليه. كان الشيخ التهانوي رحمه الله يقول: "جميع المعاصي والمنكرات إما أدواء دينية أو خلقية أو روحية فاصنع من الرجل المصاب بها ما يصنع الطبيب مع المريض الذي يصاب بداء في جسمه، أعني أن تكره المعاصي وتشمئز منها، وتشفق على العاصي وترثي له. أما رأيت كيف نعامل مريضا من أقاربنا أو أصدقائنا أو صغارنا أو كبارنا؟ ألا نرثي له ونشفق عليه؟ أما نلين ونتلطف له؟ هذا، ولكننا لاندخر أي وسع في إزالة مرضه، ونبذل كل شيء من نفوسنا ونفائسنا في علاجه، ونبشر مرة، وننذر مرة أخرى، ولا نرعى في ذلك إرضاء رغبات المريض وأشواقه وأفراحه، حتى لا يفوتنا أن نسقيه دواء مرا، ونأمره بالاحتماء، ونراجع الطبيب ليقوم بإجراء عملية جراحية إذا احتجج إليها لأدائه العضال. ليس ذلك إلا إشفاقا عليه ونصحا له.

وأى حياة أدام وأبقى من حياة الآخرة؟ وأي ردى أكبر من رداها؟
وأى خسران أعظم من خسرتها؟ وكيف يجوز لنا - إذا كنا مؤمنين بالآخرة -
أن نؤثر سراء الدنيا أو ضراءها - ولو كانت عظمة - على سراء الآخرة
أو ضرائها - ولو كانت تافهة بالنسبة إليها - وتحتم علينا أن نشدد، وننذر،
ونتخذ إجراءات شديدة لدرء المنكرات، والنهي عن المعاصي فيما إذا لم ينفع
التلطف والتبشير، وهذا ما عبر عنه بـ "التغيير باليد" في ضوء الحديث
الشريف: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده" فمن الواجب تغييره وإزالته
بالقوة إذا كنا قادرين على ذلك إلا أنه لا بد من أن يترشح النصح والمواساة
من خلال ذلك التشديد والإنذار، والتخويف والترهيب، صنع طيب مواس
أو ممرض مع المريض حيث يكرهه على الاحتماء، ويداويه، ولكن لايزدرية،
ولا يغض، ولا يغضب، ولا يثور عليه، ويأمن عليه أي ضرر أو فتنة يسببها
الإكراه. ويشترط أيضا بأن لا يصيب الداعي أي ضرر في نفسه أو ماله
لايستطيع أن يصبر عليه أو يدفعه عن نفسه، وإذا استطاع أن يصبر فهنيئا له
الصبر فإن مثله كمثل من خرج في سبيل الله غازيا مجاهدا، فأصيب به في
نفسه أو ماله فصبر. ونظرا إلى هذا الصبر قسم تغيير المنكر إلى ثلاث درجات
في الحديث الشريف "من رأى منكم منكرا فليغيره". الدرجة الأولى تغيير
المنكر باليد والقوة إذا استطاع، والدرجة الثانية تغييره والتنبية عليه باللسان،
وإذا لم يقدر على ذلك ولم يجترأ عليه أو لم يجد لذلك فرصة ملائمة فالدرجة
الثالثة كراهته بالقلب وإبغاضه والاستمئزاز منه ما أمكنه وذلك أضعف الإيمان
كما صرح بذلك الحديث.

وقلما تجد منا من أكرمه الله بغيره إيمانية تحمله على تنبيه غيره على ما يرتكب من معصية أو خيانة أو ما يصدر عنه من كسل في الدين، ويغضب كلما رأى أحدا يذنب، بل قليلا مانرى من الناس من يشمئز من المعاصي ويكرهها إلا أن العالم محفوف بالوان من الناس عسى بعضهم أن يقرأ ما أسلفنا ذكره من أهمية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووجوب أدائهما فيتأثر به فكان لا بد من ذكر قيود هذا الواجب وآدابه وشرائطه، فكما أن من واجبات العلماء تعليم الأحكام التي لا بد منها في الحياة اليومية يجب كذلك تلقين أحكام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من وجوبهما، واستحبابهما، وجوازهما، وقيودهما، وشروطهما، وذكر أسماء الكتب التي تعد أحسن ما ألف في هذا الموضوع وذلك إذا كان المخاطب مثقفا^{٢٩٦}.

رسالة وصية^{٢٩٧}:

قرة عني وقلذة كبدي عائشة أمة الباري سلمك الله! إن الله تعالى أكرم عبده العاصي هنا - أبك - من العز والراحة ونعيم الدنيا بما لم يكرم به ألوف عباده، ولكنه لم يجعلني قط منذ هداني إلى التفقه في شئ من دينه خصما لكافر أو فاسق فاجر أنافسه في دنياه لنفسي أو لكم أهل بيتي. إن التعليم العصري الحديث في المدارس العصرية الذي نصدع به نحن للمسلمين - أسما بلا مسمى - ونجري وراءه كما يجري ذئب

^{٢٩٦} نظام صلاح واصلاح للشيخ عبد الباري.

^{٢٩٧} رسالة الشيخ عبد الباري هذه التي تقيض إيماننا وبقينا وصية في الواقع إلى بنات الإسلام خاصة، وإلى سائر أفراد الأمة عامة. إنها رسالة نافعة جدا كأنها شرح وتفسير جامع لما أوصى به يعقوب عليه الصلاة والسلام أبناءه بقوله: "ماتعبدون من بعدي"، ونشرت رسالته هذه في مجلة "رضوان" الشهرية (لكنائز)، في عددها الصادر في أبريل سنة ١٩٧٦م. أشكر أستاذي الشيخ نذير أحمد الرائي بريلوي الذي اطلعت بفضلته على عدد المجلة المذكور (المؤلف).

وراء فريسته، أو مطارد وراء طريده متخبطين، حراسا على الدنيا، طامعين في المادية لا يلبق بالأبناء فضلا عن البنات. وذلك لأنه تعليم البطن والعدة، وتعليم المادية وإرضاء الشهوات، ويتلف الإيمان، ويفسد الدين كأنه صفقة يبيع بها الإنسان دينه وإيمانه، والمرأة عرضها وغيرها. ولا يحلو بنا أن نحكي الناس في ذلك فإن بعضهم يقلد غيره، فمثلهم كمثل طاعون إذا أصاب أحدا تعلو إلى غيره حتى يتشرب في المنطقة بأسرها. أعاذنا الله من هذا التعليم الذي لانرضى به هدفا أو وسيلة، ولا نقره على الإيمان، ولا نبيع به ديننا ولو عوضنا به سيادة العالم كله. هنيئا لنا الجماعة إذا فررنا بإيماننا، وحينئذ لنا الفقر إذا سلم ديننا.

لا يخين عن بالك طيلة حياتك أني رأيت الأثرياء وللتقنين بالثقافة العليا عن كتب وبأم عيني فلم أجد عندهم إلا أن أسباب الدنيا ونعمها قد أعلقت عليهم من الأثاث، والرياش الفاخرة، والقصور الشاهقة، والسيارات الجديدة ولكنهم سلبوا الطمأنينة والهدوء وحرموا وداعة القلب وراحته إلا من عمر قلبه ذكر الله سبحانه فيطمئن قلبه قنر ما يذكر الله، ووجدت المؤمنين الربانيين من سكان الأكوخ والفقراء المتقشفين يذكرون الله قنر ما لا يذكره أصحاب القصور والأغنياء. وقرئى باب "حياة طيبة" من كتابي "تجليد تصوف". إن الله تعالى منحك من زينة الدنيا وحلاها ما لم يمنحه كثيرا من الناس. لا تمتعى بها فإنها لا تنفع إلا إياما معدودة وإن كانت غالية جدا.

واعلمي - وذلك خير لك في الدنيا والآخرة - أن أفضل الحلوى كتاب "بهشتي زيور" للشيخ التهانوي رحمه الله، واعلمي أن العلم بما يرضي الله ورسوله، ويسخط الله ورسوله، وبما يصيبنا من سراء أو ضراء، أو ماننال من أجر دائم أو عذاب أليم في الآخرة هو العلم الرئيسي الصادق. هذا العلم هو الذي يصلح به ديننا. وقدر ما تتمنين هذه الزينة أنت وزوجك أو أحمائك أو جيرانك معا، تصلح دنياكم بقدره. ومن فعل ذلك وحده سبه الناس، ووجدوا عليه، وكرهوا صنيعه ولكن الله يرضى به.

فعليك أولاً - وفي كل حال - أن تحلي نفسك بهذه الحلية، وألا يصدر منك شيء مما يغضب الله ورسوله، وأطيعي زوجك فإن في طاعته طاعة الله. درسى - أينما كنت - الأبناء والبنات كتاب "هشيتي زيور"، وقرئي عليهم شيئاً منه كل يوم ولو لنصف ساعة. سيجزيك الله سبحانه أحسن الجزاء وأجزله، ويوفقك للعمل بما جاء فيه إن شاء الله.

وآخر وصية لك من أبيك أن تتقي الله سبحانه في كل حين وفي كل حال، وتؤثري الآخرة على متاع الدنيا ونعيمها الزائل، وتقاليدها وأعرافها. وأي سفة أكبر من إثارة الدنيا على الدين والآخرة.

والسلام عليكم
أبوك عباري^{٢٩٨}



فهرس المحتويات

رقم الصفحة	المحتويات
٣	المقدمة بقلم سماحة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي
٩	المقدمة بقلم سعادة الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي
١٢	تصدير الطبعة العربية بقلم سعادة الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي
٢١	كلمة المؤلف
٢٣	كلمة المترجم
٢٥	الباب الأول: عناصر تكوين شخصية العلامة عبد الباري الندوي (الأسرة - الدين - العلم)
٢٧	علماء فرنكي محل
٢٧	الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي
٣٠	العلامة عبد الحي الفرنكي محلي
٣٢	أسرة الشيخ علم الله، وعلماء ومشايخ نغرام

رقم الصفحة	المحتويات
٣٣	الشيخ السيد الشاه محمد عدل
٣٩	القاضي عبد الكريم الجوراسي
٤٠	القاضي عبد الكريم النغرامي
٤١	الشيخ عبد العلي النغرامي
٤٣	الشيخ الأجل محمد إدريس النغرامي
٤٥	دار العلوم ندوة العلماء
٤٦	العلامة شبلي النعماني
٥٠	أبواه
٥٤	الباب الثاني: حياته
٥٤	مولده ونشأته
٥٦	في حضرة الشيخ محمد إدريس النغرامي
٥٦	في دار العلوم ندوة العلماء
٥٧	حنيئه إلى إتقان اللغة الإنجليزية والتضلع من الفلسفة الجديدة

رقم الصفحة	المحتويات
٦٠	وفاة العلامة شبلي النعماني
٦٠	في كلية دكن، بونا
٦١	ثقة البروفيسور (السر) عبد القادر والمديرين
٦٢	تورطه في المحن، ونقله إلى كلية غجرات، أحمدآباد
٦٤	إقامته في بكلية غجرات، أحمدآباد، وتأليف الكتاب "الدين والعلوم العقلية"
٦٥	في الجامعة العثمانية، حيدرآباد
٦٨	زيارته لشيخ عارف بالله
٦٨	تلاؤم بينه وبين الشيخ السيد مناظر أحسن الكيلاني
٦٩	مبايعته للسلوك وسفره للحج (سنة ١٩٢٨م)
٧٢	ساعة مع الشيخ الداعية محمد إلياس رحمه الله
٧٣	رحلة دعوية مع الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي إلى راي بريلي
٧٥	دراسة كتاب "سيرة سيد أحمد شهيد" وانطباعه عنه
٧٧	قدوم الشيخ أشرف علي التهانوي مدينة كوناو

رقم الصفحة	المحتويات
٧٨	أطيب مكان
٨١	كفاح تحرير البلاد ورحلته إلى باكستان وإيثاره الإقامة بالهند عليها
٨٢	اتصاله بحركة ندوة العلماء
٨٥	الباب الثالث: الحج والزيارة
٨٥	تأهبه للسفر
٨٦	ورع أمه الكريمة
٨٧	إيمان أبيه وولاه
٨٧	رفقة سفره
٨٨	الشاه السيد لطف الله
٨٩	الحضور بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم
٩٠	اهتزاز وطرب
٩١	في ديار الحبيب صلى الله عليه وسلم

رقم الصفحة	المحتويات
٩١	رؤيا صادقة
٩٤	من روضة الرسول إلى حرم الله سبحانه
٩٥	نظرة على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم
٩٥	آخر عهدهم بالمدينة المنورة
٩٦	لبيك اللهم لبيك
٩٨	من مقر مكة إلى بيت الله الحرام
٩٩	مسجد الحرام وكعبة الله المقدسة
٩٩	الطواف الأول
١٠٠	السعي
١٠١	بعد السعي
١٠١	الإهلال بالحج
١٠٢	نحو منى
١٠٣	في منى

رقم الصفحة	المحتويات
١٠٣	يوم عرفة
١٠٤	وتم الحج
١٠٤	المزدلفة
١٠٦	الرجوع
١٠٧	الباب الرابع: السلوك والعرفان
١٠٩	في حضرة الشيخ السيد حسين أحمد المدني رحمه الله
١١٧	بين يدي عارف حيدر آبادي
١١٩	زيارته للشيخ التهانوي مرة بعد أخرى وإجازته
١٢٢	قصة السلوك والفرقان يحكيها الشيخ عبد الباري الندوي
١٣٠	اتصاله الإصلاحية بالعالم الرباني الشاه وصي الله
١٣٢	أربعة أسابيع في الكهف
١٣٤	مكاتبته الشيخ زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى واستفادته منه

رقم الصفحة	المحتويات
١٥٠	الرسالة رقم (١)
١٥٢	الرسالة رقم (٢)
١٥٣	المسترشدون والرفاق
١٥٦	الباب الخامس: مرضه ووفاته
١٥٦	اعتلال صحته
١٥٧	مرض ووفاته
١٥٨	وصيته
١٥٩	وفاته
١٦٠	صفاته
١٦٠	يومياته
١٦١	أخلاقه
١٦٢	زوجته
١٦٣	أولاده

رقم الصفحة	المحتويات
١٦٦	صهره
١٦٨	نهاية قرن بوفاة الشيخ عبد الباري الندوي
١٨١	الباب السادس: تفقهه في القرآن الكريم
١٨١	غرامه الشديد بالقرآن المجيد
١٨٥	إسهاماته في علوم القرآن والتفسير
١٨٦	١- نظام صلاح واصلاح
١٨٧	٢- كلاميات قرآن
١٨٧	منهجه في دروس القرآن الكريم
١٩١	الباب السابع: الفلسفة
١٩٣	فضل لاينسائه الجيل الناشئ
١٩٥	الفلسفي العظيم
١٩٨	طلوع الشمس آية وجودها
١٩٩	مترجمات الشيخ عبد الباري وميزاتها

رقم الصفحة	المحتويات
٢٠١	المحاكمات الفلسفية
٢٠٢	ميله إلى التصوف
٢٠٤	من فيوض صفة الربوبية
٢٠٦	علم الاقتصاد
٢٠٧	التعليم والتبليغ
٢٠٨	الباب الثامن: صفاته وأخلاقه
٢٠٨	التواضع والورع
٢١٠	ذوقه الأدبي
٢١٢	منهج تربيته
٢١٦	الصراحة في القول والجرأة
٢١٩	غيرته الإيمانية وتأييده للدين
٢٢١	جمعه بين حسنتي الدين و الدنيا
٢٢٤	الباب التاسع: أهم مؤلفاته: دراسة وتحليل

رقم الصفحة	المحتويات
٢٢٤	١. تفسير القرآن الكريم
٢٢٦	٢. مبادئ علم انساني (مبادئ العلم الإنساني) (بالأردنية)
٢٢٧	٣. بركلي كي سوانح اور اس كا فلسفة (سيرة بركلي وفلسفته) (بالأردنية)
٢٢٧	٤. مذهب وعقليات (الدين والعلوم العقلية) (بالأردنية)
٢٢٨	٥. معجزات أنبياء اور عقليات جديده (معجزات الأنبياء والعقل الجديد) (بالأردنية)
٢٣٠	٦. حقيقه نفسيات (محتويات علم النفس) (بالأردنية)
٢٣٣	٧. مذهب وسائنس (الدين والعلوم) (بالأردنية)
٢٣٤	٨. كلاميات سائنس (كلاميات العلوم) (بالأردنية)
٢٣٥	٩. اسباق زندكي (دروس من الحياة) (بالأردنية)
٢٣٥	١٠. تجديد دين كامل (بالأردنية)
٢٣٧	١١. تجديد تصوف وسلوك (بين التصوف والحياة) (بالأردنية)

رقم الصفحة	المحتويات
٢٤١	١٢. تجديد تعليم وتبليغ (تجديد التعليم والدعوة) (بالأردنية)
٢٤١	١٣. تجديد معاشيات (تجديد علم الاقتصاد) (بالأردنية)
٢٤٢	١٤. قرآن كا دو آياتي نظام صلاح واصلاح (نظام الصلاح والإصلاح في ضوء آيتين من القرآن الكريم) (بالأردنية)
٢٤٣	١٥. تجديد كلاميات (تجديد علم الكلام) (بالأردنية)
٢٤٤	١٦. تعليقة على كتاب "تجديد كلاميات"
٢٤٥	١٧. أسلوب سلسلة كتب التجديد
٢٤٥	١٨. ميزة سلسلة كتب التجديد
٢٤٦	١٩. تعليقة
٢٥٠	الباب العاشر: أصدقاؤه النبغاء
٢٥٠	١- العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله
٢٥٤	٢- الشيخ الأديب اللبيب السيد مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله

رقم الصفحة	المحتويات
٢٥٧	٣- الشيخ المفسر عبد الماجد الدرايبادي رحمه الله
٢٦١	٤- الشيخ الطبيب السيد عبد العلي الحسني رحمه الله
٢٦٤	الباب الحادي عشر: أشهر تلامذته والمستفيدين منه
٢٦٤	١- سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي
٢٦٧	٢- الدكتور رضي الدين الصديقي
٢٧٠	٣- الدكتور المحقق حميد الله (نزىل باريس)
٢٧١	٤- الدكتور مير ولي الدين الحيدرآبادي
٢٧٤	الباب الثاني عشر: اتجاهاته وآراؤه
٢٧٤	إنشاء الأروقة الإسلامية حاجة الساعة
٢٧٦	انطباع وتأيد الشيخ الدرايبادي
٢٧٧	دعوة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي
٢٧٨	أعظم مشكلة يواجهها مسلمو الهند

رقم الصفحة	المحتويات
٢٨٠	المسلمون في باكستان
٢٨٢	ثناء وانتقاد على الأحزاب السياسية والحركات الدينية والدعوية
٢٨٢	جمعية العلماء
٢٨٣	الجماعة الإسلامية
٢٨٤	جماعة الدعوة والتبليغ
٢٨٥	حركة دعوة الحق
٢٨٧	حاجة الاهتمام بمتطلبات العصر الراهن
٢٨٨	الحاجة إلى تدوين منهج الدعوة والإصلاح
٢٩١	رسالة وصية

